أ.د. محمد أبوالفضل بدران

الأدب المقارن

أوديب المأساة الكاملة

لم تنتشر مسرحية في الآداب العالمية كما انتشرت مسرحية أوديب التي تخطت اللغات والحدود والبلدان لتوجَد في الآداب كافة وربما كان سوفوكليس أول من كتب مسرحية مكتملة عن أوديب لاسيما أن سوفوكليس يعد من أعظم كُتاب التراجيديا الإغريق ومن المعدودين في التاريخ الأدبي والفلسفي مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو فانيس وهيرودوت.

ملخص المسرحية.

عاش لايوس ملكا على مدينة طيبة لكنه طُرد منها فلجأ إلى مملكة طنطاله في ضيافة ملكها ببلوبس الذى أكرمه ولكن لايوس لم يقدّر هذا الجميل إذ قام بخطف ابن ببلوبس، ويكافح لاستعادة عرش طيبة وينجح في ذلك ويتزوج من الأميرة جوكاست ويعيشان سعيدين إلا أنهما لم ينجبا، ويذهب لايوس إلى وحي الإله "أبوللو" كي يسألهم عن أسباب عدم إنجابه وليا للعهد فيخبروه أن لعنة حلّت به لفعله السيئ مع ملك طنطاله وأنه سينجب ولدا يقتل أباه وسيتزوج من أمه. يعود لايوس حزينا بين حلم أن ينجب ولدا وبين خوف أن يقتله ابنه، صار كل وقته مهموما، وعندما تنجب امرأته جوكاست ولدا يقرر الخلاص منه في لحظة مأساوية ولذا أعطَى الولد لأحد خدمه طالبا منه إلقاءه على الجبل كي تفترسه الوحوش الضارية، ويحمل الخادمُ الطفلَ متجها نحو قتله لكنه عندما يبصر وجه الطفل وبراءته وعينيه يقرر عدم قتله فيتركه في العراء دون أن يخنقه، ويعود الخادم للقصر مخبرا لايوس أنه قتل الطفل..

ويزداد بكاء الطفل في العراء فيسمعه راع من رعاة ملك كورنثه ويهرع إليه فيجد طفلا بريئا جميلا مربوطا في قدميه اللتينْ تورّمتا ولذا أطلق عليه "أوديب" أي صاحب القدمين المتورمتين، حمله ذلك الراعي إلى ملك كورنثه الذى اتخذه ولدا ورباه في قصره حتى أضحى شابا يافعا وبينما كان يُنادم بعض أصدقائه إذ سَكِر أحدهم فصاح بأوديب:" إنك لست ابنا لملك كورنثه" وهنا أسرع أوديب إلى أمه التي ربته فأنكرت مقولة الشاب وادّعت أنه ابنهما، ولكن أوديب يحس غير ذلك

فيتجه إلى معبد دلف يستشير وحي الآلهة الذين يخبرونه باللعنة التي كُتبت على أبيه وأنها لعنة متوارثة:

"إذهب يا أوديب لقد قُضي عليك أيها التعس أن تقتل أباك وتتزوج من أمك"

وهنا يفعل ما فعله أبوه من محاولة تحدي هذه اللعنة فيقرر ألا يعود للقصر ويمضي تاركا مملكة كورنثه معتقدا أنها مملكته وأن أباه وأمه فيها، يتحدى النبوءة هائما على وجهه في طريقه لمملكة طيبة المجاورة، كان حزينا غاضبا وبينما يسير في طريق ضيق يبصر عربة يتشاجر مع راكبها ومن معه على أسبقية المرور ويحتد النقاش وتتشابك الأيدي فيقتل الرجلَ صاحبَ العربة ويفرّ مَن كان معه، ويمضي إلى طيبة متحديا النبوءة ولم يكن يعرف أنه قد قتل أباه القابع في العربة منذ لحظات وبذلك تحقق الجزء الأول من النبوءة، يتجه أوديب إلى طيبة التي كانت تعاني من "أبوالهول" الوحش القابع على أسوارها فوق صخرة مرتفعة سائلا كلَّ مَن ودّ الدخول إليها سؤالا لو أجابه المسئول إجابة صحيحة سيقتل أبوالهول نفسه، وإن لم يجبه افترسه أبوالهول، ولم يستطع أحد أن يجيبه ولذا فالمفقودون كُثر، لكن عندما يطرح أبوالهول السؤال على أوديب "ما هو الحيوان الذي يمشى في الصباح على أربع، وفي الظهيرة يمشى على اثنتين وفي المساء على ثلاث؟

يجيبه أوديب: "إنه الإنسان، يحبو على أربع في طفولته ثم يسير على رجليْه في شبابه، ثم يتوكأ على عصاه مع رِجليْه في شيخوخته"

وهنا يُلقي أبوالهول نفسه من فوق الصخرة منتحرا ويموت وهنا تخرج طيبة فرحةً بانتصار أوديب على أبوالهول وحماية طيبة من شروره ولذا يفرحون بمخلّصهم من أبوالهول ويقررون الاحتفال به وتنصيبه ملكا عليهم أي على مملكة طيبة ويزوّجونه ملكتهم جوكاست ويقبَل أوديب هذا وذاك ولم يكن يعلم أنه ينفذ النبوءة دون أن يدري، يقتل أباه لا يوس ويتزوج من أمه جوكاست وينجب منها أربعة ويعيش سعيدا.. ثم تحل اللعنة على مملكة طيبة إذ سرى وباء الطاعون يقتل ويصيب عددا كبيرا من سكان طيبة وأمام عجز الأطباء عن معرفة سبب الوفاء وكيفية القضاء عليه يرسل أوديب رسولا لمعبد أبولو حتى يعرف أسباب هذا الوباء وسُبل التخلص منه ويعود المبعوث ليخبره أن الوباء سيستمر حتى يُدْرَك

ثأر الملك لايوس المقتول، ويتعهد أوديب بالبحث من قاتل لايوس طالبا من الشعب أن يساعده كي يقضي على هذا المجرم القاتل، ويبحث أوديب أمام الشعب مستدعيا كل تفاصيل لايوس ويستجوب الخادم وكل الشهود حتى يتبين له ولجوكاست أنه القاتل وأنه تزوج أمه وهنا تشنق جوكاست نفسها ويفقأ أوديب عينْيه، وتقوده ابنته أنتجون في مشهد تراجيدى حزين مؤثر، ولذا رأى أرسطو في هذه المأساة أنها مكتملة الأركان.

وتنتشر مسرحية أوديب ملِكا مترجمة بجميع اللغات وتُعالج في جميع الآداب العالمية وعولجت معالجات فنية باختلاف الرؤى والتوظيف الفني ولذا أنصح بقراءة النص الفرنسي مثلا فكتب أندريه جيد Andre Gide ١٨٦٩-١٩٥١ مسرحية أوديب وقد عاصر أندريه جيد كل من الأديبيْن مارسيل بروست Marcel Proust (١٨٧١- 1922)وفاليرى Paul Valery(١٨٧١- 1945)

وقد قسم أندريه جيد مسرحية إلى قسمين وهناك أوجه اتفاق واختلاف بين مسرحية أوديب ملكا لسوفوكليس ومسرحية أوديب لأندري جيد وأنصح بقراءة المسرحيتين لعقد مقارنة بينهما.

كما عالج الأديب جان كوكتو Jean Cocteau 1953_1889مأساة أوديب فى مسرحية الآلة الجهنمية La Machine Internal ويعد هذا الأديب من رواد الأسلوب السريالي.

وبين سوفوكليس وجان كوكتو أوجه اتفاق واختلاف تستوجب قراءتها.

- **توفيق الحكيم وأوديب**

كتب توفيق الحكيم مسرحية "الملك أوديب"

أنصح بقراءة المسرحيتين لعقد مقارنة بينهما.

صورة العالم الآخر عند أبى العلاء المعرى

و MICHAEL ENDE

٢-١- مدخل

٢-٢- أولا : - تشخيص البطل لدى المعرى و Michael Ende

٢-٣- ثانيا : - موقف الحكى فى رسالة الغفران و Die Unendliche Geschichte

٢-٤- ثالثا : - تشكيل العالم الآخر :

٢-٤-١ الجنة

٢-٤-٢ النار

٢-٤-٣ المنزلة بين المنزلتين

٢-٥- ملاحظات عامة

٢-٦- سقطـات فنية

صورة العالم الآخر عند أبى العلاء المعرى

وميشائيل إنده

مـدخـل

المقارنـة بـين أديبـين ينتميـان إلـى بيئتـين مختلفتـين وعصـرين مختلفـين تبـدو مقارنـة محفوفة بالمخـاطر لكنـى فـى إطـار المدرسـة الأمريكيـه التـى تـرى أن " الادب المقـارن لا يـدرس العلاقـات وإنمـا الأدب بوجـه عـام حـين تتجـاوز الدراسـه الحـدود القوميـة لـه ، ومـن ثـم فـإن مثـل هـذا التشـابه يـدخل فـى نطـاق اهتمامـات الأدب المقارن ، ويصبح جديرا بالبحث والدراسة"[١]

فإن مجـال الدراسـة هنـا يكمـن فـى تتبـع هـذا التشـابه بـين الأديبـين ووضـعه تحـت مجهر النقد ، ومن هذا المنطلق فإننى سأتجه إلـى تحليل صورة العالم الآخـر عنـد أبــى العــلاء المعـرى (٣٦٣ هـ = ٩٧٣م –٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م)[٢] الروائــى الألمانى ميشائيل إنده Michael Ende [٣](١٩٢٩– ...) وسأكتفى بتشكيل العالم

---

[١] الطاهر أحمد مكى : (دكتور) : الأدب المقارن ، أصوله وتطوره ومناهجه ص ٢٠٠ ط. دار المعارف القاهرة ، ١٩٨٧ م .

[٢] ابوالعلاء المعرى :

ولد فى معرة النعمان وفقد بصره صغيرا منذ كان فى الرابعة من عمره وسافر إلى بغداد ثم عاد إلى المعره فعاش فيها معتزلا الناس متزهدا ومن مؤلفاته " سقط الزند " و " اللزوميات " و "رسالة الصاهل والشاحج " و " رسالة الهناء " و " رسالة الملائكة " وغير ذلك .

[٣] Michael Ende

يعد ميكائيل انده من أعظم الرواة الألمان المعاصرين وقد ولد فى ١٢ نوفمبر ١٩٢٩ بمدينة جارمش باتنكرشن (جنوب المانيا الغربية) ابنا للفنان الرسام ادجار انده الذى يعد من أوائل الرسامين الألمان وربما أثر هذا الجو السريالى على ميكائيل كما سنرى فيما بعد نحو تعلم الرسم ونحو الإيمان بالمذهب السريالى والكتابة على نهجه .

وقد التحق ميكائيل بالجيش فى الحرب العالمية الثانية وقد أسر أبوه فيها وبعد الحرب يسافر ميكائيل إلى شتوتجارت حتى يكمل تعليمه بها وابتدأ الكتابة فى الشعر والقصة القصيرة والمسرحية ولكنه لا يحقق النجاح المنشود فيها .

ولكن هذا الفشل لا يحقق فى نفس ميكائيل إلا الإصرار على خلق واستحداث أشكال جديدة محطما كتابات بريشت التى غدت المثال الأوحد فى الكتابة الفنية والمسرحية على حد سواء . ويكتب

الآخر لدى كل منهما من خلال أحد أعمالهما ولذا فقد اخترت رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، ورواية " قصة بلا نهاية " Die Unendliche Geschichte ويرجع اختيارى لهذين العملين لاعتبارين هما :

أولا : إن كلا الأدبين حاول فى عمله هذا أن يخلق عالما آخر من خلال وجهة نظره متأثرا بثقافات عصره .

ثانيا : إن أوجه التشابه بين العملين تبدو أكثر قربا من الأعمال الأخرى فالمعرى فى رسالة الغفران يأخذ ابن القارح بطل رسالة الغفران ويصعده إلى السماء حتى يلتقى بالأنبياء والشعراء والرجاز والمفكرين والفلاسفة والرواه وغيرهم متنقلا بين الجنة والنار وما بينهما . ويبدو ابن القارح منهمكا فى مناقشات نقدية مع هؤلاء المبدعين ينتصر أحيانا لرأيه أو يبرر آراءهم التى قد تتصادم مع رأيه فى حوارية حاول من خلالها أن يقضى على ملل المتلقى واستخدم من الحدث والبطل (ابن القارح) مستندا لهذا الخلق الأخروى وتصويرا للعالم الآخر المتشكل لديه .

أما Michael Ende فإن روايته تبدأ من لحظة وقوف الطفل Bastian باستيان بلتازاربوكس أمام مكتبة الكتب القديمة خائفا من أطفال فصله الذين

فى تلك الفترة " جيم كنوبف ولوكاس سائق القاطرة " ١٩٨٥ التى حازت على جائزة كتب الشباب الألمانية ١٩٦٠.

وفى عام ١٩٧٣ صدرت روايته الأسطورية " مومو MOMO " التى حصلت عام ١٩٧٤ على جائزة كتب الشباب الألمانية أيضا ، وعمت شهرة الرواية وترجمت إلى أكثر من عشرين لغة عالمية .

وفى عام ١٩٧٧ سافر ميكائيل إنده إلى اليابان وتأثر تأثرا بالغا بمسرح " كابوكى " و"اللامسرح" وفى هذا العام نفسه بدأ فى كتابة "قصة بلا نهاية " التى نحن بصدد تحليلها وقد استغرقت كتابتها عامين وصدرت فى خريف ١٩٧٩ م .

وقد أحدثت صدمه نقدية عند صدورها لأن معظم النقاد كانوا يرون أن رواية ميكائيل انده "مومو" هى آخر إبداعاته أو قمة إبداعاته بتعبير أدق ولكن جاءت قصة " بلا نهاية " لكى تؤكد قدرة الكاتب على تخطى مراحل إبداعه نحو الأمام وليس العكس وقد ترجمت تلك الرواية إلى أكثر من عشرين لغة وما تزال حديث النقاد الأوربيين والأمريكيين أيضا وقد حولت هذه الرواية إلى فيلم سينمائى ضخم تكلف ستين مليون مارك ألمانى ، وربما كان هذا هو أضخم إنتاج سينمائى ألمانى على الأطلاق بل من أكبر الأفلام التى أنتجتها السينما العالمية . ثم توالى انتاج ميكائيل إنده حيث أصدر " ترانكيلا تراملتروى السلحفاء المثابرة وقراقوز الهلاليل" و " ليروم لا روم فيلى لا روم " و "آكل الاحلام الصغيرة " ويعد الأن – كما يذكر د. الجوهرى – كتابا بعنوان " يور أو المرآة فى المرآة "

يطاردونه استهزاء لأنه يحكى لهم حكايات خياليه ويبدو شاردا طوال الوقت ، ويدخل إلى تلك المكتبة القديمة التى تحتوى على كثير من الكتب يبيعها السيد كورياندو يعد حديث مقتطب يسرق باستيان قصة رآها أمامه وهى " قصة بلا نهاية " ويعتزم قراءتها فى مخزن المدرسة بعد انصراف الأطفال عنها معتزما عدم الذهاب إلى بيته حيث والده الشارد والبعيد عنه بعد موت أمه ، ويجلس يقرأ حتى الصباح وسرعان ما تأخذه تلك الروايه التى تدور أحداثها عن مدينة فانتازين مدينة الخيال التى تعانى من انقضاض العدم على أركانها إذ بدت ظاهرة غريبة وهى أن أجزاء كبيرة منها بدأت تدخل فى مرحلة العدم أى تختفى إلى الأبد ، الأرض ، الحيوانات بل سائر مخلوقاتها ولكن يصل العدم إلى ذروته عندما تمرض إمبراطورة فانتازين الإمبراطورة الطفولية التي تسلم شارة أو شعار فانتازيان المقدس " آورين " إلى كبير الأطباء " كايرون" ليسلمه إلى البطل " أتريو " الذى قد يستطيع أن يشفى الملكة ومن ثم بشفائها يزول الخطر الذى يهدد مملكة " فانتازين " وكان " أتريو " هذا مفاجأة للجميع الذين أحاطوا فى هلع برج العاج مركز حكم الامبراطورة الطفولية ، وقد أتوا من كل فج لأن أتريو هذا كان مجهولا ولكن كايرون يذهب ومعه " آورين " الشعار المقدس الذى يحمى حامله ويسخر له كل مخلوقات فانتازين " باحثا عن " أتريو " هذا الذى يجده بعد عناء ومشقه لكى يبلغه برسالة الإمبراطورة ويمنحه "آورين" حتى يساعده ... كل ذلك كان ما يقرأه باستيان فى قصة بلا نهاية وكان الظلام قد أتى على باستيان فى مخزن المدرسة ولذا فقد أشعل بعض الشمعات التى وجدها فى المخزن وراح يقرأ فى نهم بقية القصة .

ويبدأ أتريو فى محاولات البحث ذاهبا إلى " مورلا" العجوز الشمطاء فى رحلات تشبه إلى حد بعيد رحلات طرزان وما يواجهه من أخطار تصل به فى أحايين كثيرة إلى القرب من الهلاك ، ولكن " آورين " القوة المقدسة تحميه حتى يخلص الإمبراطورية من العدم الذى يجتاحها من كل الجهات ولكن رحلات " أتريو " التى يتعمد ميشائيل إنده على خلق جو أسطورى تدور فيه وعلى خلق مغامرات تكاد تودى بحياته تصل فى النهاية إلى معرفة أن هذا العدم لا يمكن لاى مخلوق من مخلوقات فانتازين أن يوقفه وإنما لا يوقف إلا إذا منح شخص إنسانى اسما جديدا للإمبراطورة الطفولية حتى تبعث من جديد ، وبالتالى يروح العدم ، ولكن أنى

لأتريو بهذا؟ ولذا يلجأ إلى الامبراطورة يخبرها يتلك الحقيقة ، ومن هنا وفى جو درامى يقرر باستيان وهو يقرأ هذه القصة أن يتدخل وفى عقبة فنية كبيرة يحاول ميشائيل إنده نقل هذا الطفل باستيان إلى مدينة فانتازين ويمنح الإمبراطورة اسماً جديدا هو " طفلة الأقمار " وتبدأ " فانتازين " مرة أخرى فى النمو بعد شفاء الإمبراطورة ولكن باستيان يقرر أن يبقى فى فانتازين ، ولكن بدلا من أن يحاول أن يعمرها إذا به يود أن يصبح الإمبراطور الأوحد ويفرض نفسه على مخلوقات فانتازين وبدلا من أن يسمع نصح صديقه " أتريو " نفاجأ بباستيان يطعن صديقه " أتريو " بالسيف فى صدره ومع ذلك يحاول أتريو أن يعيده إلى الأرض حتى يصلح الناس وحتى يصلح باستيان نفسه وفى النهاية يستطيع أتريو إرجاع صديقه إلى الدنيا البشرية وتدق الساعة المعلقة على مقربة من المدرسة معلنة تمام الساعة التاسعة صباحا ويهرول باستيان إلى بيته ليجد أباه قد أبلغ الشرطة عن غيابه ويفرح بعودته كثيرا . وقد ترجمت الرواية إلى اللغة العربية من قبل الأستاذ الدكتور باهر الجوهرى .[٤] واظن أن محاولة تلخيص الرواية عمل مستحيل ولكن من هذا الأساس نبدأ فى تحليل تشكيل صورة العالم الآخر عندهما .

---

[٤] الدكتور باهر الجوهرى :

ينبغى علينا بادئ ذى بدء أن نعترف أن حركة الترجمة بعد فترة الستينيات كادت أن تتوقف بعد أن قطعت فى الستينيات شوطا عظيما ، ولذا فإن ظهور مترجم واع يبشر بالكثير من الخير لابد أن يلقى حفاوة عظيمة ، فليست الترجمة – كما سنرى فيما بعد – عملية نقل أوتوماتيكية ، وإنما هى مثابرة وعناء فمهما حاول المترجم إجادة اللغة الأخرى إلا أن لكل لغة خاصيتها ، ومهما حاول المترجم تقريب الهوة البعيدة بين اللغتين إلا أن كثيرا من الفواصل ما تزال قائمة إذ إن لكل لغة دلالاتها ولكل لفظ إيحاء معين قد يستحيل فى أحيان كثيرة نقله إلى أخرى حيث توجد هنالك عراقيل كثيرة .

ويتحول المترجم الواعى إلى مبدع فى أحيان كثيرة يشارك المؤلف إبداعه مع أمانة النقل والترجمة وهذا كما ذكرت آنفا لا يضطلع به إلا القليلون بل النادرون من المترجمين .

وبعد هذه المقدمة التى هى – فى رأيى – من لوازم القول نتعرف على الدكتور باهر محمد الجوهرى أستاذ الأدب الألمانى بكلية الألسن بجامعة عين شمس وقد عمل من قبل ملحقا ثقافيا بسفارة مصر فى ألمانيا الغربية .

واللغة الألمانية ليست غريبة على واحد كهذا ولذا فإنه قد ألف الكثير باللغة الألمانية ومن أهم مؤلفاته كتاب عن " المستشرق يوسف فون همبورجتشال " وكتاب آخر عن " مراحل تطور الفن القصصى لدى بربارا فريشموت " وكتاب عن " فضل همبورجتشال فى استقبال دنيا الإسلام فى الغرب

وبداية أقرر أنه لابد من ضرورة تنحية المبدع فى أثناء الحكم على إبداعه ، فالعمل الإبداعى قادر على القيام بذاته أو بمعزل عن مؤلفه تأثيرا أو تأثرا أمام أوجه النقد الحديث ، وقد تناول الدكتور سمير سرحان فى مقال له بمجلة فصول " مفهوم التأثير فى الأدب المقارن " وخلص إلى أنه " إذا كان بعض الدراسين يعتبرون أنه من المهم الكشف عن عناصر التأثير فإننا نعتبر أنه من المهم أكثر

" وآخر عن " ميراث الأساطير الشرقية من ألف ليلة وليلة فى الأديب الألمانى جوتنجن " وقد ترجم إلى العربية " الجدة الأولى " للأديب النمساوى فرانس جريلبارتسر وترجم أيضا " سايفو" للأديب ذاته وتأتى ترجمته لرواية ميكائيل إنده "قصة بلا نهاية " التى صدرت عن الهيئة العامة للكتاب منذ فترة قليلة لتضع المترجم فى صفوة المترجمين من اللغة الألمانية للعربية ، ولى بعض ملاحظات على الترجمة منها على سبيل المثال لا الحصر استبقاء كلمة " فانتازين " وكم كنت أتمنى أن يأتى بمعناها العربى أو أن يدخلها كدخيل للغة العربية صابا عليها مقومات اللغة العربية كإضافة " الـ " إليها .

وكأنه قد استشعر هذا ولذا فقد وضع هامشا ؛ قال فيه " فانتازين " Phantasien اسم مشتق من كلمة Phantasie وهى كلمة أصلها يونانى ومعناها الخيال ، وواضح أن المؤلف يرمز بإطلاق هذا الإسم على مملكة فانتازين بأنها مدينة الخيال أو بلاد خيالية ليس لها وجود فى الواقع ، وقد راودتنى فكرة أن أنقل هذا الإسم باللغة العربية مع رمزيته العربية واخترت لذلك اسم " مملكة خياليا " أو خيالستان " ولكن آثرت أن احتفظ بالإسم الموجود فى الأصل الألمانى مكتفيا بهذه الإشارة – المترجم " وهنا يتضح لنا إلى أى مدى وقع المترجم فى خطأ لعل العجلة وضخامة العمل هى التى حدت به نحو هذا فإن من المعلوم أن Phantasien هى جمع كلمة Phantasie وهى مشتقة من كلمة OANTA IA اليونانية التى تكتب باللاتينية Phantasia أى أنها جمع وكان من السهل على المترجم أن يترجمها إلى مدينة الخيالات أو الأخيلة ولكن ترجمها إلى فنتازين ولا أدرى لماذا ؟ ثم اقترح أن ينقل هذا الإسم إلى اللغة العربية ووضع لفظين هما خياليا وخيالستان واللفظة الأولى ليس لها وجود فى العربية التى أعرفها والثانية كلمة فارسية أو بالمعنى الأدق (عربية خيال) وفارسية (ستان) بمعنى أرض الخيال أى أن البديلين غير عربيين وكم كان قد أراحنا كثيرا لو ترجمها إلى مدينة الخيالات أو المدينة الفانتازية على أقل تقدير .

وقد استخدم ميكائيل إنده العديد من الأشعار فى الرواية وقد حاول المترجم أن ينقل تلك الأشعار إلى أشعار بالعربية ولكنه أتى بكلام لا يمت للشعر على الإطلاق ولا نعتب عليه ذلك لأن الشعر لا يأتى بالترجمة ولا يولد بقرار وإنما هو موهبة فطرية وكان من السهل على المترجم أن يستعين بأحد الشعراء كى يساعده فى نظم هذه المعانى شعرا حتى يخرج هذا العمل العظيم على أجمل وجه .

ناهيك عن الأخطاء النحوية التى لا تخلو صفحة من صفحات الرواية منها ، وإن كان هذا يلقى على عاتق الهيئة العامة للكتاب التى طبعت الرواية .

الكشف عن المرحلة–فى العمل الفنى–التى يترك فيها الكاتب عناصر التأثير ليجد ذاته وأصالته "[٥]

ولذلك فإن تتبع التشابه ما بين Michael Ende وأبى العلاء المعرى تتبع لظواهر أدبية لا تخلق – من وجهة نظرى – بمحض الصدفة[٦] ولا تنفى عن Michael Ende إبداعه بقدر ما تثبته من حيث قدرته على التخلص من التأثير إلى مرحلة الخلق الإبداعى .

وإننى سأعمل من خلال ما حدده Shaw فى دراسة التأثير " لابد لكى يكون للتأثير معنى أن يتجلى فى شكل محدد داخل الأعمال الأدبية ذاتها ، ويمكن أن يتجلى التأثير فى شكل محدد داخل الأعمال الأدبية ذاتها ، ويمكن أن يتجلى التأثير فى الأسلوب أو الصور الفنية أو الشخصيات نفسها أو اللوازم الخاصة ، ويمكن أيضا أن يظهر التأثير فى المضمون أو الفلسفة أو الأفكار أو الروح العامة التى تسيطر على عمل أدبى بعينه "[٧] ومن خلال ذلك فإن صورة العالم الآخر لديهما ترتكز على عدة أشياء :

أولا : تشخيص البطل لدى المعرى وميشائيل إنده :

يلعب البطل فى العالم الآخر دورا كبيرا لديهما وقد جاء ابن القارح بطلا ينزوى ليخرج أبو العلاء المبدع الناقد يشى به ضمير المتكلم ويكاد يتوارى ابن القارح تماما ، بل إن وجود ابن القارح لا يؤثر على شخصية المعرى لأن الحوار قائم على مناقشة يبثها المعرى على لسان ابن القارح وعلى هذا فقد اتخذ أبوالعلاء المعرى فى رسالة الغفران من شخصية ابن القارح قناعاً فنياً لكى يناقش الشعراء والأدباء والرواة وغيرهم بلسان المعرى الناقد ، وما ابن القارح إلا شخصية تطلبتها التقنية الفنية ، وربما كان ذلك لدى ميشائيل إنده فى خلقه شخصيتين لشخصية واحدة هى شخصية المؤلف ذاته وتطلعه إلى العالم الآخر .

---

[٥] سمير سرحان :دكتور : مجلة فصول ، المجلد الثالث ، العدد الثالث ص ٣٠ القاهرة ١٩٨٣

[٦] التقيت فى ١٩٨٩/١١/٢٨ بمدينة بون بالروائى Michael Ende وسألته عن قراءته للأدب العربى ولاسيما رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى فأجابنى "Ich habe gelesen, was ich konnte" لقد قرأت كل ما استطيع (قراءته) .

[٧] سمير سرحان : مجلة فصول ، المجلد الثالث ، العدد الثالث ص ٢٩ القاهرة ١٩٨٣

فأبو العلاء المعرى فى " رسالة الغفران " لا يذهب بنفسه إلى العالم الآخر وكذلك فعل ميشائيل إنده ، وإن كان هنا لك إشارات ضمائرية متكلمية بثها المعرى فى مؤلفه توحى بذلك على نحو قوله

" وكنت بمدينة السلام فشاهدت بعض الوراقين يسأل عن قافية عدى بن زيد " ..... الخ [٨]

أو قوله فى موضع آخر تعليقا على قصيدة المرقش الأكبر :

هل بالديار أن تجيب صمم لو كان حيا ناطقا كلم

وإنها عندى لمن المفردات[٩] وفى تعليقه على قصيدة له أخرى يقول : " ولم أجدها فى ديوانك "[١٠] والموقف لا يختلف عند Michael Ende الذى يبدو هنا وقد خلق شخصيتين متوازيتين من النظرة الأولى لكنهما بعد تمعن نقدى يتطابقان وهما شخصية Bastian و Atreju . فرحلات Atreju ورحلات Bastian متشابهة وسرعان ما ينكشف لك هذا الفخ الذى نصبه Michael Ende وترى أن Atreju هو Bastian ذاته لكن ميشائيل إنده لا يلجأ إلى الخطابية ، وإنما يلجأ إلى التلميح تارة وإلى الاعتماد على ذكاء القارئ تارة أخرى ، ولذا يقول " لقد كان لدى باستيان جزء يسير من التشابه مع أتريو "[١١] أو عندما يخاطب السيد Koreander البطل Bastian قائلا : " هنالك بشر لا يستطيعون أن يجيئوا إلى Phantasien على الإطلاق ، وهنالك بشر يستطيعون ذلك لكنهم يبقون بها إلى الأبد وهنالك بعض الناس هؤلاء الذين يروحون إلى مدينة Phantasien ويرجعون مرة أخرى مثلك أنت وهؤلاء الذين يصلحون كلا العالمين "[١٢] أى أن

---

[٨] أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ص ١٤٦ تحقيق د. عائشة عبدالرحمن " بنت الشاطئ" الطبعة الثامنة ، القاهرة ، ١٩٩٠ م .

[٩] السابق ص ٣٥٦ .

[١٠] السابق

[١١] ميكائيل انده : قصة بلا نهاية ص ٩٩ ترجمة د. باهر الجوهرى ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٨ م .

[١٢] Michael Ende : Die Unendliche Geschichte, Thienemanns Verlag, Stuttgart 1979,426

الشخصيتين هما شخصية واحدة ذات المبدع Ende وأن رؤيته الفنيه التى وظف لها Atreju و Bastian لا تختلف كثيرا فى تشكيل البطل عن توظيف المعرى لابن القارح فى رسالة الغفران حيث يتوارى – كما ذكرت آنفا – حتى يبدو المعرى ذاته محاورا وفى النهاية يكشف ذلك فى قوله "وأنا أعتذر إلى مولاى الشيخ الجليل من تأخير الإجابة " [١٣]

ثانيا : موقف الحكى فى رسالة الغفران وقصة بلا نهاية :

يعد موقف الحكى من الأدوات الفنية التى تنتبه إليها جيدا المناهج النقدية الحديثة وقد اختلط المعرى لنفسه منهجا نقديا نستطيع أن نقول عنه الموقف الشخصي أو ما أطلق عليه Franz K.Stanzel فى كتابه Typische Formen des Romans موقف Der Personale Roman [١٤] وفيه يستقدم المبدع شخصيات روايته كى تتحدث عن نفسها أو يتحدث الراوى الغائب عنها مقدما لها ولكنه يتوارى كى تظهر بذاتها وهذا ما فعله المعرى فى رسالة الغفران فإنه يذهب من خلال ابن القارح متنقلا فى الجنة والنار مستقدما شخصياته المنتقدة كى يحاور كلا منهم وتأتى الشخصية مدافعة عن نفسها ومبرئة نفسها أحيانا وفى أحايين أخرى تخفق فى هذا ، والأمر لا يختلف كثيرا عند Michael Ende فى " قصة بلا نهاية " فشخصياته رموز للعالم وكل شخصية تتوارى خلف رمزها فإذا ما استقدمها فى نعيمها أو فى عدمها فهى محاولة كى يعود الخير الى الأرض ، والحوار يختلف كثيرا عن رسالة الغفران .

ومن الواضح من حيث الشكل أن ميشائيل إنده قد استقى تقسيم روايته إلى ستة وعشرين فصلا عدد الأحرف الأبجدية الألمانية ولذلك أعطى كل فصل حرفا وهذا ما فعله ابوالعلاء المعرى من قبل فى كتابه رسالة الفصول والغايات إذا جعل

---

[١٣] أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ص ٥٨٣ تحقيق د. عائشة عبدالرحمن " بنت الشاطئ " الطبعة الثامنة ، القاهرة ، ١٩٩٠ م .

[١٤] Franz K.Stanzel : Typische Formen des Romans, Vandenhoeck und Ruprecht in Goettingen, 11. Auflage, 1987, S. 39.

الفصول مقسمة حسب الأبجدية العربية فالفصل الأول فصل غايته همزة ثم فصل غاياته باء ..... الخ[١٥]

ثالثا : تشكيل العالم الآخر :

يخضع تشكيل العالم الآخر عند المعرى إلى المفاهيم الإسلامية التى تقسم العالم الآخر إلى منزلتين هما الجنة والنار إلا أنه أوجد مساحة فاصلة بين الجنة والنار وهذا هو التعديل الذى أوجده المعرى على المنظور الإسلامى للآخره ، ولذا جاء تصوره التشكيلى على النحو التالى :

أ- الجنة : أدخل المعرى كل الشعراء المسلمين إلى الجنة ولذا راح يبحث للشعراء الذين تساوت أعمالهم ما بين الخير والشر عن بيت شعر يدخلهم الجنة كالأعشى [١٦] وزهير بن أبى سلمى [١٧] وعبيد بن الأبرص[١٨] وغيرهم بينما الجنة عند Michael Ende هى مدينة Phantasien التى هى رمز للخيال والجمال ، إن الأشياء تتخلق فيها كما تتخلق الأشياء فى الجنة عند المعرى.

" فيأخذ سفرجلة أو رمانة أو تفاحة أو ما شاء الله من الثمار فيكسرها ، فتخرج منها جارية حوراء عيناء ، تبرق لحسنها حوريات الجنات ، فتقول : من أنت يا عبد الله ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان ، فتقول : إنى أمنى نفسى بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة . فعند ذلك يسجد إعظاما لله القدير ويقول : هذا كما جاء فى الحديث : أعددت لعبادى المؤمنين ما لاعين رأت أ ولا أذن سمعت ، بله ما اطلعتم عليه ،وبله في معنى : دع وكيف.

ويخطر فى نفسه وهو ساجد أن تلك الجاريه - على حسنها - ضاويه ، فيرفع رأسه من السجود وقد صارت من ورائها ردف يضاهى كثبان عالج "[١٩] إذن

---

[١٥] ابوالعلاء المعرى : رسالة الفصول والغايات فى تمجيد الله والمواعظ تحقيق محمود حسن زناتى ، ط. مطبعة حجازى بالقاهرة ١٣٥٦هـ = ١٩٣٨ م .

[١٦] أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ص ١٨٠ - ١٨١

[١٧] السابق ص ١٨٤

[١٨] السابق ص ١٨٥

[١٩] السابق ص ٢٨٨ - ٢٨٩

التشكيل هنا حسبما تراه ، فقد أفلح المعرى فى ذلك إذ جعل الأشياء تتخلق على نحو ما تتمنى أنت كمتلق وليس كما هو كائن من قبل . إذن مفهوم الجنه عند المعرى مفهوم يوازى الخير وهذا ما نراه عند Michael Ende الذى تتخذ الجنة عنده مفهوم الخير والحق والجمال كمفاهيم أزلية لما يتمنى الإنسان لهذا العالم وبذلك يتلاقيان معا ، ففى مدينة Phantasien لا يحدث أن يخطئ أحد فى الآخر ، ولا تتشاتم الكائنات وإنما تعيش فى صفاء دائم ، وهذا ما نلقاه فى جنة المعرى التى يؤكد على أن أشخاصها كما قال تعالى فيهم " وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ [٢٠]

ب- النار :

تعد النار عند المعرى كمفهوم إسلامى حول العذاب فى الدار الاخره ولذا فقد أدخل الكفار إلى النار ولمح امرأ القيس وهو يعذب فى النار ولكن ذلك لم يمنعه من أن يتحاور معه محاورة نقدية ولكن أبا العلاء يتدخل فى دخول بعض الشعراء إلى الجنة إذ يراهم حقيقين بدخول النار فعندما يتحاور النابغة الجعدى مع الأعشى يصيح به قائلا : " اسكت يا ضل بن ضل " فأقسم أن دخولك الجنة من المنكرات ، ولكن الأقضية جرت كما شاء الله ، لحقك أن تكون فى الدرك الأسفل من النار ولقد صلى بها من هو خير منك ، ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت : إنك غلط بك[٢١]

إذن تشكيل النار كعالم آخر عند المعرى وإن كان يأخذ جذوره من الإسلام إلا أنه يخلع منهاجه فى تقسيم البشر إلى خيرين وأشرار .

بينما نرى أن العدم عند Michael Ende هو المرادف الموازى للنار عند المعرى فى رسالة الغفران ، هذا العدم الذى لا يتوقف على تناقص الأشياء وانعدامها بل يصل – كما أوضحت آنفا – إلى تناقص الكائنات ذاتها وإلى إنعدامها ...

إذن النار عند المعرى عقاب كما فى المفهوم الإسلامى وكذلك العدم الذى يجتاح مملكة Phantasien هو عقاب لنقص الخير والحق والجمال . وإذا كان العدم لا

---

[٢٠] سورة الحجر ، آيتا ٤٧ ، ٤٨

[٢١] أبوالعلاء المعرى : رسالة الغفران ص ٢٣٠

يقضى عليه إلا من خلال اسم جديد أى عودة إلى الأسماء حتى يقضى على العدم وتعود الأشياء إلى سيرتها الأولى فإن اتقاء النار عند المعرى –طبقا للمفهوم الاسلامى لا يمكن إلا فى الدار الأولى بينما أعاد ميشائيل إنده بطله باستيان إلى الأرض كى يصلحها من جديد وتعود إلى مثلها ومبادئها وربما كان هذا اختلاف واضح بين نار المعرى وعدمية ميشائيل إنده ، فالعدم عنده هو إختفاء الأسماء ، أن تفقد الأشياء أسماءها وماهيتها : " العدم جاء يقترب

وصمتت النبوءة

ولن يسمع بعد الآن

رنين يعلو وينخفض "[٢٢]

أو يعبر عن انقضاء الأشياء وفنائها العدمى :

" فوق الجبل والوادى ، فوق الحقل والمرج

سوف أنقضى .... وأختفى

آه ... كل شىء لا يحدث إلا مرة واحدة

لكن .... مرة لابد أن يحدث كل شئ "[٢٣]

وهكذا تبدو تشابهية تشكيل صورة النار عند المعرى وميشائيل إنده فالنار عند المعرى هى المحصلة النهائية للشر لدى الإنسان وعند Michael Ende هى محصلة ضياع الخير ووجود الشر لدى الإنسان والكائنات جميعها ، كما أن Ende يرسم صورة الصراع العدمى بين الخير والشر من خلال شخصية Bastian الذى لا يود فى النهاية أن يعود إلى البشرية ويتمنى أن يبقى هناك فى Phanasien وبدلا من أنه قد قام بعمل بطولى وهو منح الأسماء من جديد ، تظهر عوامل الشر الكامنة فيه على تصرفاته ويحاول قتل صديقه حتى يخلد فى Phantasien ولم يكن يدرى أنه بذلك يحول الجنة إلى جحيم .

جـ: المنزلة بين الجنة والنار :

فى تشكيل المعرى للعالم الآخر انفرد المعرى بإيجاد منزلة وسطى بين الجنة والنار ، وقد أسهم هذا فى تكوين صورة واضحة لما يراه فى ضرورة الوسطية أو

---

[٢٢] ميكائيل انده : قصة بلا نهاية ص ١٥٦

[٢٣] السابق : ص ١٥٧

المنزلة بين المنزلتين ، وقد ساعده على ذلك تطلعه الفلسفى نحو المعرفة والعدل ، وقد أوجد المعرى جنة العفاريت التى هى " حدائق ليست كحدائق الجنة ، ولا عليها النور الشعشعانى " [٢٤]ويضع المعرى الرجز فى " أبيات ليس لها سموق أبيات الجنة فيسأل عنها فيقال : هذه جنة الرجز " [٢٥]

لكن هذه المنزلة تتضح لدى تشكيل ميشائيل إنده للعالم الآخر فى مدينة القياصرة الذين جعلهم فاقدى الذاكرة أو " الذين لا يقولون شيئا [٢٦] وأوضح ميشائيل إنده هؤلاء البشر الذين " يوجدون فى جميع الأزمنه ، بم يعثروا على طريق العودة إلى عالمهم وفى بادئ الأمر لم يعودوا يرغبون ، والآن – فلنقل لم يعودوا يستطيعون " . [٢٧]

إنهم هؤلاء الذين انفصلوا عن ماضيهم وعن تراثهم وإذا يصرح إنده أنه " من لم يعد له ماض ، فليس له مستقبل ايضا " [٢٨]اننا هنا أمام لوحة يرسمها انداه لهؤلاء الذين لا يستطيعون أن يعيشوا فى عالمهم الملئ بالشر ولا يستطيعون أن يغيروه أو بالأحرى لا يتمنون تغييره ولذلك فهم أشبه بمرحلة ضائعة بين الوجود والعدم .

ملاحظات عامة :

تعد قصة بلا نهاية رواية يسرقها طفل من مكتبة يقرأها ليرجعها فى صباح اليوم التالى معتذرا عن فعلته للسيد كورياند Koreander صاحب المكتبة الذى يشفق على الطفل لما ألم به من أثر هذه الرواية التى غدا بطلها الأوحد ، وتعد رسالة الغفران خطابا يرسله المعرى إلى صديقه ابن القارح يبدؤه كرسالة وينهيه أيضا معتذرا له . " وأنا أعتذر إلى مولاى من تأخير الإجابة ، فإن عوائق الزمن

---

[٢٤] أبوالعلاء المعرى : رسالةالغفران ص ٢٨٩ – ٢٩٠

[٢٥] السابق : ٢٧٣ – ٢٧٤

[٢٦] ميكائيل انده : قصة بلا نهاية ص ٤٧٤

[٢٧] السابق

[٢٨] السابق ص ٤٧٥

منعت من إملاء السوداء ..... وأنا مستطيع بغيرى فإذا غاب الكاتب فلا إملاء[٢٩] كما اننا لا نغفل تشابه بعض الأشياء فى العملية الإبداعية كما نرى فى : توظيف الحيات التى تحتل منزلة كبرى فى رسالة الغفران للمعرى وفى " قصة بلا نهاية " لميشائيل إنده والحيات عند المعرى جزء من تشكيل العالم الآخر . فها هى حية فى الجنة تخاطب المعرى فى بلاغة وفصاحة ويتخذ منها مدخلا لنقد قصيدة نابغة بنى ذبيان[٣٠] ويتخذ من حية أخرى مدعاةً لنقد القراء أبى عمرو وحمزة ابن حبيب وغيرهم[٣١] ويقرر المعرى على لسان إحدى الحيات "لو قمت عندنا إلى أن تخبر ودنا فى إنفصالنا لندمت إن كنت فى الدار العاجلة قتلت حية أو عثماناً"[٣٢].

ونرى ذلك واضحا فى قصة بلا نهاية إذ إن رمزية الثعبانين الأبيض والأسود وهذا الصراع الأزلى بينهما للخير والشر يعد مرتكزا أساسيا فى تشكيل العالم الآخر فى الرواية وهذا يتضح منذ البداية " عندما تطلع إلى الغلاف مرة أخرى بدقة أكبر ، اكتشف عليه ثعبانين ، واحد فاتح وواحد داكن اللون كل منهما يعض الآخر فى ذنبه "[٣٣] .

ويستمر هذا الصراع حتى نهاية الرواية بل إن مرحلة خروج Bastian لا تتحقق إلا عندما تأتى لحظة أن " بدأ رأس الثعبان العملاق الأسود فى الارتفاع ببطء دون أن يترك فى أثناء ذلك طرف الثعبان الأبيض الذى يمسك فى حلقه ، وتقوس الجسمان الهائلان إلى أعلى إلى أن شكلا بوابة مرتفعة نصفها أسود و الأخر أبيض "[٣٤] ويستنطق المعرى فى رسالة الغفران الحيوانات كالأسد[٣٥] من

---

[٢٩] أبوالعلاء المعرى : رسالة الغفران ص ٥٨٣

[٣٠] السابق ص ٣٦٦

[٣١] السابق ص ٣٦٨

[٣٢] السابق ص ٣٧٢

[٣٣] ميكائيل إنده : قصة بلا نهاية ص ٢٤

[٣٤] السابق ص ٥٣٦

[٣٥] أبوالعلاء المعرى : رسالة الغفران ص ٣٠٥

اللافت للنظر أيضا استخدام ميشائيل إنده فى روايته للشعر بل إن هنالك شخصيات لا تتحدث إلا شعرا وقد استنطق المعرى معظم شخصياته شعرا حتى الجن فها هو أبو هدرش يقول شعرا [٣٦] ونرى أن رحلات أتريو Atreju وباستيان تتشابه كثيرا مع رحلات ابن القارح فى رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، كما أن " فخور " تنين الحظ الذى كان يسافر بحرا وبرا وجوا مع أتريو يمتطيه فينقذ فارسه لا يختلف كثيرا عن موروثنا الإسلامى عن " البراق " الذى استخدمه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فى ليلة الإسراء والمعراج بل نؤكد أيضا إن كثيراً من الإختلاف قد وقع بين رواية ميشائيل إنده وجمهورية أفلاطون على نحو ما سنوضح فيما بعد . فى طرد أفلاطون للشعراء ولكن ميشائيل إنده يرى أن الشعراء هم الذين يوجدون هذه المملكة بل هم الذين يقع عليهم عبء حمايتها ولذلك نجد كثيرا من الشعر فى الرواية بل إن بعض أشخاصها لا يمكن أن يتحدثوا إلا شعرا ولا يفهمون ما يقال لهم إلا إذا أتى شعراً.

ولكن بين هذا وذاك يظل الرمز هو المحك الأول نحو فهم هذا العمل المبدع وتظل مدينة فانتازين التى تصنع من الأحلام كما يقرر ميشائيل إنده " الحلم لا يمكن أن يصبح لا شئ عندما يحلم مرة ، ولكن إذا لم يحفظه الإنسان الذى حلمه فأين يبقى إذن ؟ هنا عندنا فى فانتازين ... فانتازين كلها تقف فوق أساسات من الأحلام المنسية "[٣٧] .

وتدور الرواية فى محور أزلى وهو الصراع بين الخير والشر ولكن عند ميشائيل إنده يتحول هذا الصراع إلى صراع عدمى بمعنى أن وجوده لا يوجد إلا العدم ولعله بهذه النظرة يتفرد عن أقرانه من الأدباء والمفكرين .

ولكن فى الرمز يوجد كثير من الرموز التى لم يوضح لنا مفاتيحها ولعل مقولته وقد أنقذ باستيان المملكة من العدم وفى أول لقاء بين باستيان والإمبراطورة يصف ميشائيل هذا المنقذ " لقد كان بكل تأكيد رشيقا ذا حسن رائع ،

---

[٣٦] ميكائيل انده : قصة بلا نهاية ص ٢٩٤ وما بعدها

[٣٧] السابق ص ٥٢٠

وكانت وقفته بها كبرياء واعتدال وكان وجهه نبيلا نحيلا وبه رجولة ، وكان يبدو كأمير شاب من بلاد الشرق " . [٣٨]

ويكرر نفس المعنى[٣٩] ، فهل يعنى هذا أن صلاح البشرية من وجهة نظر ميشائيل إنده سوف يأتى من الشرق ، إن معطيات الرواية تقول هذا !

ولذا فإنى أقرر إن الرواية هى صرخة احتجاج ضد المدينة الأوربية بكل تقدمها الاقتصادى الواضح وخوائها الفكرى والعقائدى ولعل ميشائيل إنده يشعل فتيل التحذير قبل أن تغرق السفينة ولذا يفاجئنا عندما يشك فى أساسيات الدين ويتخذ موقف الإستهزاء من رموزه فى الدير فى خلق ثلاث شخصيات لرهبان أحسب أنهم يمثلون أصناف المسيحيه الثلاثة الرئيسية وهو يتهكم منهم فى سخرية واضحة وهذا ما فعله المعرى من التهكم والسخرية فى مؤلفاته من رجال الأديان المنافقين .

ومن الواضح أن ميشائيل إنده يلجأ إلى هندسة الرواية ووضع لبناتها فى بناء محكم لا تستطيع إلا أن تقف حياله فى إعجاب مبهر وأن تشهد له بمدى خياله ومدى قدرته على الإبتكار وكم كنت أحس وأنا أقرأ هذه الرواية بإحساس المشفق على خيالات هذا الكاتب ولكنه كان يفاجئنى بالخلق المبتكر ولا محدودية الخيال .

وقد استخدم الأساطير ووظف بعضا منها فى نسج روايته كما حدث مع شخصية "جراوجرمان " الذى كان رمزا للصحراء أو للموت وقد حكم عليه ألا يبارح الصحراء وأن يتعذب كل ليلة عندما ينام ولعل هذه الشخصية تذكرنا بشكل واضح بأسطورة سيزيف الذى عصى الآلهة فحكمت عليه أن ينقل صخرة كبيرة من أدنى الجبل إلى سفحه وأخذ يزحزحها وكلما زحزحها شبرا تراجعت شبرا وهكذا هو مخلد فى العذاب . وقد استخدم المعرى الجن والعفاريت من منطلق أسطورى أيضا .

كما إننا نقرر أن الرواية كلها على امتداد أحداثها دارت فى الزمنية التى حددها أرسطو من قبل وهى ٢٤ ساعة لا تتجاوزها واستخدم ميشائيل إنده لتوضيح ذلك ساعة البرج المعلقة على مقربة من مخزن المدرسة حيث يقرأ

---

[٣٨] Michael Ende : Die Unendliche Geschichte, S.198

[٣٩] ميكائيل انده : قصة بلا نهاية ص ٣١٦

باستيان قصة بلا نهاية منذ الساعة ٩ صباحا . وينتقل باستيان من قارئ إلى بطل مشارك للرواية فى الساعة ١٢ مساء ، ويعود باستيان من مملكة فانتازين فى الساعة التاسعة صباح اليوم التالى ، وهو بذلك قد نجح إلى حد بعيد فى مهارة فائقة وإن كنت اختلفت معه على الدوران فى الأحكام الارسطية إلا أننا نلمح تلاشى الزمن عند المعرى وربما أراد أن يجعل الزمن فى العالم الآخر زمنا لا يحد وأن يختلف كثيرا عن الزمن الدنيوى . كما أننى لا أغفل دور توظيف الصورة عند ميشائيل إنده والإعتماد عليها فى خلق الخيال وهذا يحسب له بشكل مشهود " تكثف الظلام إلى أن ظهر حتى الليل الدامس " أو قوله " إنه الحزن هو الذى أثقلنى لدرجة إجبارى على الغرق لا مفر " . أو قوله "قريبا ستذرونى الرياح ، فما أنا إلا أنشودة الشكوى "[٤٠] .

سقطات فنية :

كأى عمل بشرى يقع فى أخطاء عديدة ولكن هنا أمام ميشائيل انده فإننا نقرر أنه قد أفلح كثيرا فى بنائية روايته ولكن سقطات فنية قد أخلت بتلك البنائية المبهرة كما ذكرت سابقاً .

ومن أولى تلك السقطات هى لحظة إنتقال باستيان من قارئ إلى مشارك فى الرواية بل يتحول إلى بطلها الرئيسى ومع تقديرنا لصعوبة هذا الحدث فنيا إن لم يكن تعقيدا فنيا فى حبكة الرواية إلا أن ميشائيل إنده حاول قدر الامكان أن يكون تحولا محسوبا بدقة متناهية ولكنه رغم ذلك بدأ هذا التحول لمهارة الكاتب المبالغ فيها فجوة واضحة . وهذا ما وقع فيه المعرى من قبل فى تصوير لحظة معراج ابن القارح .

كما أن العديد من القصص الصغيرة التى ملأ بها العديد من الصفحات وإن خدمت النص الكامل إلا أنها أرهلته ترهلا واضحا ولذلك فقد استشعر المؤلف هذا الترهل وقطع بعض الحكايات التى كان يشير إليها فى جملة تكررت كثيرا " ولهذا الموضوع حكاية سنحكيها مرة أخرى " ولم تحك أبدا ، ولذا فقد سمى الرواية " قصة بلا نهاية " وقد أضرت تلك الحكايا التى كانت إرضاء لخيال المؤلف بتقنية الرواية وأصبحت عبئا على العمل الأدبى . إلا أننا عندما ننظر إلى رسالة الغفران

---

[٤٠] السابق ص ١٥٣

نجد أن هذا الترهل كاد أن يصيبها ويشفع له أنه يملى لكونه ضريرا وأنه أراد بتغير الشخصيات إبعاد شبح الملل عن المتلقى .

وهكذا فإن تشكيل صورة العالم الآخر عند المعرى وميشائيل إنده تتشابه كثيرا بما يتفق ومعطيات هذا البحث الذى أرى أنه فاتحة للإتجاه إلى Michael Ende كأديب تشى مؤلفاته بتشابه بينه وبين تراثنا العربى .

فاوست "النص المهيمن"في الأدب العربي

فاوست الجديد لعلي أحمد باكثير أنموذجاً

أ. د. محمد أبوالفضل بدران[41]

badranm@hotmail.com

مقدمة:

"توقفي [أيتها اللحظة] فأنتِ في غاية الجمال"[42] يود جوته أن يتوقف الزمن ليكتب الخلود لهذه اللحظة الجميلة فيتلاشى الزمن ليوجد اللازمن في ديمومته وأبديته ؛ وهيهات أن تتوقف ، وهكذا الإنسان يبحث دوماً عن الكمال ؛ وفي طريق عناء البحث يكتشف في النهاية أنه بحث عن المستحيل ؛ ويدرك أن الحياة بوابة نحو الأخرى ، وأن هذه الأماني عبثية الجوهر، ومن هنا فإن الشاعر الألماني جوته[43] Wolwgang von Goethe عندما كتب مسرحيته Faust التي كانت وماتزال من أشهر أعماله بل من الأعمال العالمية المعدودة كان يعبر عن ظمأ الإنسان للعلم غير المحدود ؛ وعن ولع الإنسان بالشهوات غيرالمتناهية ، وعن أسئلته غير المجابة ، وعن حبه الأبدي نحو الخلود ، وحينما يصطدم بقدراته المحدودة وبعلمه الذي لا يحقق طموحه يلجأ إلىالشيطان الذي يعقد معه عقدا يُسلم فاوست بمقتضاه روحه للشيطان في مقابل أن يهبه الشيطان ملذات لا تنتهي وعِلما لا يُحَد وشباباً لا يزول.هذا العقد يحقق للطرفين ما يتمناه كل منهما لكن فاوست بعد فترة يملّ مما هو فيه ويكتشف أنه مايزال باحثا عن حقيقة لايملكها الشيطان ومن ثم تبدأ جدلية الصراع بين فاوست والشيطان في محاولة لعتق نفسه من ذلك العقد؛ أي أن الصراع يتجدد بصورة أخرى.

---

[41] تم هذا البحث في إطار منحة التفرغ من DAAD هيئةالتبادل الأكاديمي الألماني العربي ، صيف ١٩٩٨

[42] جيته : فاوست ص ٥٦٥ ترجمة عبدالرحمن بدوي ، ط. دار المدى ، ، دمشق ١٩٩٨

[43] لم يستقر المترجمون العرب على ترجمة اسم الشاعر الألماني Goethe إذ تُرجم إلىجوته و قوته وجوتيه و كوته وجيته وجيتى وغوته وقوتا وقوتي وغير ذلك ولعل ذلك يلفت انتباه المترجمين إلىضرورة وضع قواعد للترجمة تعمل على توحيد المصطلح وأحادية المسمى ، ولعل من الأنسب في ترجمة Goethe أن نترجمها إلىگـُوته بشرطتَين على الكاف وهو حرف فارسي يطلق عليه الكاف وهو شبيه في نطقه بنطق حرف G في اللغة الإنجليزية أو نطق حرف القاف في اللهجة الصعيدية حتى نكون أقرب إلىنطقه باللغة الألمانية.

ومنذ كتابة هذه المسرحية تحولت إلنص مُهيمن في الآداب العالمية التي تلقفته ترجمةً ومحاكاة ونقداً واختلافا.

ولم يكن الأدب العربي بمعزل عن فكرة "فاوست" بل تأثر بها على نحو ما سأوضح لاحقا ، وقد قام على أحمد باكثير (١٩١٠-١٩٦٩) بتأليف مسرحيته " فاوست الجديد " في ١٩٦٧ تقريبا. وقد عثرتُ لدى المستشرق الألماني البروفيسور Stefan Wild بجامعة بون بألمانيا على نسخة[٤٤] من مسرحية علي أحمد باكثير "فاوست الجديد ؛ وقد تفضل البروفيسور Stefan Wild مشكوراً بإهداء هذه النسخة إليَّ مؤملاً أن أقوم بتحقيقها.

وقد قامت مؤسسة التبادل الألماني العربي DAAD بإعطائي منحة تفرغ علمي قضيتها بجامعة بون في صيف ١٩٩٨ للتفرغ لدراسة هذا العمل ونقده، وكانت فرصة للتعايش بين فاوست جوته في أرضها وبين فاوست باكثير ؛ فلمؤسسة التبادل الألماني العربي DAAD أقدم خالص الشكر والإمتنان[٤٥].

وقد شغلتني شواغل كثيرة عن نشر التحقيق والدراسة التي قمت بإعدادها حتى عرفت من الصديق عبدالحكيم الزبيدي أن مسرحية فاوست الجديد لباكثير قد صدرت[١] في مكتبة مصر في ٢٠٠١ مع مقدمة صغيرة للدكتور محمد أبوبكر حميد وقد رأيت النسخة وبقدر حزني على الجهد الذي بذلته فرحت لظهورها .

١-١ تأثر العرب بفكرة فاوست:

اهتم الأدب العربي بفاوست فكرةً ومسرحيةً فتُرجمت إلىاللغة العربية وحاول أدباؤنا أن يكتبوا على منوالها ومن الأمثلة على ذلك أعمال محمد فريد أبو حديد في

---

٤٤ " آلت إلى البروفيسور Stefan Wild من خلال طالبِه خليل الشيخ٤٤ الذي أعد أطروحته حول "الشيطان في الأدب العربي الحديث" Der Teufel in Der modernen arabischen literatur وعقد فصلا في أطروحته لنيل درجة الدكتوراه عن فاوست في الأدب العربي ، وكان قد حصل على المخطوطة من أحد ورثة باكثير.

٤٥ لا أنسى أن أوجه شكري للبروفيسور Stefan Wild على منحي هذا المخطوط ، ولا يفوتني أن أوجه شكري العميق للباحثة عزة منير التي تفضلت بتصوير مئات الصفحات من ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي لفاوست جوته –بعد نفاذها من الأسواق_وأرسلتها إليَّ في أريحية قلَّ أن يجود الزمان بمثلها ، وللصديق الراحل الدكتور كمال رضوان كلمة شكر ودعاء إلىالله أن يتغمده برحمته ورضوانه فقد كانت جلساتنا في أيام التحصيل بألمانيا - عندما كان مستشاراً ثقافيا لمصر ببون حيث كنتُ أدرس بجامعتها-وكتابه حول فاوست حافزيْن لي نحو تناول جوته وعمله المسرحي الكبير فاوست.
بناء على نصيحة الصديق مصطفى عبدالله توجهت معه إلىالأستاذ سعيد السحار (في ١٩٩٨) وقد كان من أصدقاء علي أحمد باكثير وناشره فرحّب كثيرا بنشر هذه المسرحية في دار نشره وذكر لي أن باكثير حدَّثَه كثيراً عنها وعن نشرها وأنه كان يعده بإحضارها وتشغله شواغل عن ذلك حتى وفاته المفاجئة.ويبقى الشكر مضاعفا للصديق مصطفى عبدالله على حماسه للمشروع وحثه الدائم لي على إنجازه.

مسرحيته "عبد الشيطان"[٤٦] وتوفيق الحكيم في مسرحياته "نحو حياة أفضل"[٤٧] و " عهد الشيطان" و"الشيطان في خطر"[٤٨]و"امرأة غلبت الشيطان"[٤٩]وغير ذلك كما كتب وعرّب نظمي خليل مأساة الدكتور فوستس[٥٠] ؛ وكتب عباس محمود العقاد كتابيْه "إبليس"و "تذكار جيتى"[٥١] وفي مقالاته حول "فوست"[٥٢]و"الشيطان"[٥٣] ؛ وفاوست للدكتور محمد عناني[٥٤] وأحمد سويلم [٥٥]في "طبول فاوست"وسعدالله ونوس [٥٦]والسيد ابراهيم[٥٧] والدكتور يوسف عزالدين عيسى[٥٨] في روايته "الرجل الذي باع رأسه" وفي أعمال فتحي رضوان "دموع إبليس"وعبدالكريم برشيد ومحمود طاهر لاشين وغيره ؛ وقد تناول عدد كبير من النقاد هذا الموضوع مثل الدكتور كمال رضوان[٥٩] والدكتور عز الدين اسماعيل[٦٠]الذي كان من أوائل من ألقى الضوء على أثر فاوست في الأدب العربي ؛ والدكتور صلاح فضل[٦١] والدكتور عبدالغفار

---

[٤٦] محمد فريد أبو حديد : عبد الشيطان (مسرحية)، ط. دار المعارف ، القاهرة ١٩٤٥

[٤٧] توفيق الحكيم :نحو حياة أفضل (مسرحية) مجموعة المسرح المنوع ص٨١٣-٨٣٠ ط.مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٧٠

[٤٨] توفيق الحكيم : الشيطان في خطر (مسرحية)) مجموعة المسرح المنوع ص٧٤٧-٧٥٩ ط.مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٧٠

[49] توفيق الحكيم :أرني الله ، قصص فلسفية ص ١٢٦-١٣٢ ط. مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٧٦

[50] نظمي خليل : مأساة الدكتور فوستس عن كريستوفر مارلو ، سلسلة روائع المسرح العالمي ٢٥

[51] العقاد ، عباس محمود :إبليس ط.دار الكتاب العربي ، بيروت

[51] العقاد ، عباس محمود : تذكار جيتى (التراجم والسير) ط.دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨١ ويستخدم العقاد اسم فوست

[52] العقاد ، عباس محمود : تذكار جيتى ص٦٤-٧٠

[53] العقاد ، عباس محمود : الشيطان ،(المجموعة الكاملة ؛الإسلاميات ج٥ ص ١٠٠-١١٠ ط.دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٧٤والعقاد يرى أن رواية فوست –على حد قوله –"بكل ما فيها من العيوب والفجوات وكل ما فيها من الحشو والإملال لا يحجب عن القارئ أن الرواية صنعة قريحة عظيمة وأنها مرآة حياة واسعة غاصة بذخائر الفن والمعرفة والفهم العميق الرجيح"

العقاد :تذكار جيتى ص٦٦ ط.دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٨١

[54] محمد عناني (دكتور) :فاوست ، مسرحية من فصل واحد ، مجلة المسرح ، العدد ١١٢ القاهرة ، مارس ١٩٩٨

[55] أحمد سويلم : طبول فاوست ، عُرضت على المسرح في مصر في ١٩٩٩

[56] سعدالله ونوس : ملحمة السراب (مسرحية) ، دار الآداب ، بيروت ١٩٩٦

[57] السيد ابراهيم : الشيطان والوصايا السبع (مجموعة قصصية) ، القاهرة ١٩٨٠

[58] يوسف عزالدين عيسى (دكتور) : الرجل الذي باع رأسه (رواية) ط . دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩

[59] كمال رضوان (دكتور): فكرة فاوست منذ عصر جوته ، مقال بمجلة فصول ص ص ٢٣٠-٢٣٧ العدد٤/١٩٨٣(

[60] عز الدين اسماعيل (دكتور) : قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر، ط. دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٦٨

[61] صلاح فضل (دكتور) : سعدالله ونوس يعيد صياغة فاوست ، مقال بصحيفة الحياة ، لندن، ١٩٩٦/٥/٢٩

مكاوي[٦٢] والدكتور مصطفى ماهر[٦٣] والدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي[٦٤] الذي حلل صورة الشيطان في المسرح المعاصر تحليلاً نقديا[٦٥] والدكتور عصام بهي[٦٦] والدكتور خليل الشيخ[٦٧] وعلاء الدين حلمي[٦٨] والدكتور ناجي نجيب[٦٩] والدكتور أحمد السعدني وغيرهم وهذا يؤكد اهتمام العرب بفكرة فاوست والتركيز عليها من منطلق إنساني أحيانا أو من رؤى فلسفية في أحايين كثيرة ؛ كما وظفها بعضهم في أغراض سياسية.

والعلاقة الجدلية بين الإنسان والشيطان لم تكن بعيدة عن الفكر الإسلامي فقد عبر القرآن الكريم في مواضع عديدة عنها محذراً من الوقوع في براثينه وقد تناولت كافة التفاسير الإسلامية هذا الجانب وفي "رسالة إبليس إلى إخوانه المناحيس"[٧٠] للحاكم أبي سعد بن محمد بن كرامة الجشُمي البيهقي المتوفي سنة٤٩٤ هجرية ما يشير إلى توظيف إبليس في القضايا العقائدية والتحرر من براثينه ، كما أن الأدب العربي لم يغب عن هذه الإشكالية وربما كان الشعراء أول

---

[62] Faust-Aufnahme in عبدالغفار مكاوي (دكتور): "مأساة فاوست وبعض ظلالها في الأدب المصري الحديث" و غوته العبقرية العالمية" ط. إذاعة صوت ألمانيا ١٩٩٩ Goethe Ein Universlgenie " في كتاب Aegypten وقد تناول فكرة فاوست في عدة أعمال أخرى .

[63] مصطفى ماهر (دكتور) : فصول في الأدب العربي المصري ؛ عهد الشيطان ، مجلة فصول ١٩٨٣/٤
كما قام بترجمة أصول فاوست إلىالعربية في ١٩٧٥ وغير ذلك من مقالات حول الفكرة.

[64] أحمد شمس الدين الحجاجي (دكتور) : الأسطورة في المسرح المصري المعاصر(١٩٣٣-١٩٧٠)الكتاب الأول ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٥

[65] السابق ص ٢٢٥-٢٨١

[66] عصام بهي (دكتور): الشخصية الشريرة في الأدب المسرحي ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦
عصام بهي (دكتور): الشيطان في ثلاث مسرحيات ، مجلة فصول (القاهرة) ١٩٨٣/٤

[67] **Khalil Scheich , Der Teufel in Der modernen arabischen literatur . Die Rezeption eines europaeischen Motiv in der arabischen BelletristiK , Dramatik und Poesie des 19. und 20. Jahrhunderts.**

[68] **Aladin Hilmi :Die Rezeotion Goethes in Aegypten ,Verlag Hans-Dieter Heinz, Akademischer Verlag ,Stuttgart,1986**

[69] ناجي نجيب : عهد الشيطان ، مقال بمجلة فكر وفن العدد ٣٧ /١٩٨٢ ص ص ١٧-٢١

[70] البيهقي (الحاكم أبو سعد بن محمد بن كرامة الجشُمي البيهقي المتوفي سنة٤٩٤ هجرية) : رسالة إبليس إلى إخوانه المناحيس ، تحقيق حسين المدرّسي : ط. دار المنتخب العربي ، بيروت ١٩٩٥

من أشار إلى هذا [٧١]في أشعارهم ومصادر إلهامهم . وفي المقامات نجد حضور الشيطان والحوار معه كما في المقامة الإبليسية[٧٢] لبديع الزمان الهمذاني وغيره.

لقد تأخرت ترجمة فاوست جوته للغة العربية سنوات طويلة ولكن منذ أن ترجم إلىاللغة العربية ونشره في Goethe فاوست جوتهFaustصالح حامد حميد القاهرة ١٩١١ في مجلة البيان ثم تبعه محمد عوض محمد بترجمة ثانية في ١٩٢٩ تلك الترجمة الجيدة التي يرى الدكتور عبده عبود أنها "أشهر تلك الترجمات وأوسعها انتشاراً ولأنجزها محمد عوض محمد عن الألمانية وزودها طه حسين بترجمة مستفيضة ضمنها آراءه المتعلقة بغوته وبالترجمة الأدبية ودورها الثقافي ، فهي ترجمة دقيقة وسلسة الأسلوب في آن واحد ولكنها مقتصرة على الجزء الأول من المسرحية"[73]

وفي روايات الجيب ظهرت ترجمة أخرى لفاوست من اسماعيل كامل وهي ترجمة حدث فيها تصرف كبير من قبل المترجم[74]

ومروراً بترجمة محمد عبدالحليم كرارة التي ظهرت في الإسكندرية ١٩٥٩ وحاول أن ينقل شاعرية جوته في النص الألماني إلى نظم عربي ، كما كتب مقدمة وافية عن حياة جوته ، وقد كان الجزء الأول من فاوست قد تُرجم إلى العربية مما حدا بكرارة أن يترجم الجزء الثاني من فاوست لأول مرة في العربية شعرا.

كما ترجم الدكتور مصطفى ماهر "جذور فاوست" إلى العربية وبها مقدمة متخصصة حول جوته وأعماله ولا سيما فاوست ؛ كما ترجمهاسهيل أيوب[٧٥] أيضاً

---

[71] عبدالرزاق حميدة (دكتور): شياطين الشعراء ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ؛ إحسان عباس (دكتور) : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٥ ومابعدها ط.دار الشروق ، عمان ١٩٩٧

[72] بديع الزمان الهمذاني (أبوالفضل أحمد بن الحسين ت ٣٩٨) : شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني ص ٢٥٣ ومابعدها تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٧٩

[73] عبده عبود (دكتور): مقال بعنوان "الترجمات العربية لأدب غوته" ص ٩٥ في كتاب Goethe Ein Universlgenie غوته العبقرية العالمية" ط. إذاعة صوت ألمانيا ١٩٩٩

[74] Aladin Hilmi :Die Rezeotion Goethes in Aegypten ,Verlag Hans-Dieter Heinz, Akademischer Verlag ,Stuttgart,1986,S.55

قام علاء الدين حلمي بإعطائنا نبذة عن سير المترجمين ونقد ترجماتهم ومقدماتهم حول جوته ومؤلفاته مما يعد مرجعا لايُستغنى عنه في هذا المجال.

[75] يرى الدكتور عبده عبود أن "أدق هذه الترجمات وأفضلها لغة وأسلوبا ودلالة هي الترجمة التي أنجزها سهيل أيوب" مقال بعنوان "الترجمات العربية لأدب غوته" ص ٩٦ في كتاب Goethe Ein Universlgenie غوته العبقرية العالمية" ط. إذاعة صوت ألمانيا ١٩٩٩

وحتى ترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي التي تعد واسطة عقد ترجمات فاوست وأهمها وأوسعها انتشاراً ، لقي موضوع فاوست اهتماما كبيرا في الأدب العربي فأُلِّفت أعمال كثيرة ترتكز ارتكازا مباشرا على هذا الموضوع Motiv وتعالجه من منطلق علاقة الشيطان بالإنسان كما أوضحت آنفا؛ وأحيانا تُسقط عليه مشكلاتها المعاصرة كما فعل محمد فريد أبو حديد في مسرحيته عبد الشيطان ١٩٤٤ موضحا مساوئ الاستعمار من خلال عمله على نحو ما سنرى.

١-٢ أهمية البحث:

يركز بحثي على دراسة أثر فاوست جوته في الأدب العربي مع التركيز على فاوست الجديد لعلي أحمد باكثير ومن ثم على دراسة جوانب الاتفاق والاختلاف بين فاوست جوته وفاوست باكثير ومحاولة الرد على التساؤلات الآتية :

- لماذا اتكأ باكثير على التصوف ورسم لنا فاوست كما لو كان وليا من أولياء الله أصابه الغرور فأراد الله أن يؤدبه فاختبره لكنه نجا في النهاية ؟
- لماذا تأخر نشر هذه المسرحية على الرغم من مرور أكثر من ثلاثين عاما على كتابتها ؟
- ماالذي جعل باكثير يُكثر من التساؤلات الفلسفية في مسرحيته " فاوست الجديد "وهل هي تساؤلات فاوست في المسرحية أم تساؤلات باكثير نفسه في الحياة ؟وغير ذلك من الأسئلة.

وللإجابة عن هذا السؤال حول أسباب تأخر نشر هذه المسرحية التي كُتبت في ١٩٦٧ أي قبل أكثر من ثلاثين عاما أعتقد أن ذلك يعود إلىالأسباب التالية:

أولاً :إذا عرفنا أن المسرحية كُتبت في ١٩٦٧[٧٦] وما صاحب هذا العام من هزيمة عربية أثرت بالتأكيد في نفس كل عربي ، مما حدا بباكثير أن يتمهل في نشرها في

---

[76] إلىهذا يميل المستشرق الألماني كرستيان سزكا في بحثه:

Szyska, Christian
"Re-writing the European canon :Ali Ahmad Bakatir` s New Faust" in
Encounters of Words and Texts . Intercultural Studies in Honour of Stefan wild,

ظل هذه الأحداث المأساوية في الوطن العربي ولكن الموت لم يمهله إذ توفي في ١٩٦٩

ثانياً :ربما اختلف الورثة حول نشرها إما لأن البعض رأى أن باكثير لم ينشرها في حياته ومن ثم فلا ينشرونها أو لعدم اهتمامهم بذلك.

ثالثاً :على نحو ماوضحتُ آنفاً فقد التقيت الأستاذ سعيد السحار (في ١٩٩٨) وقد كان من أصدقاء علي أحمد باكثير وناشره فرحّب كثيرا بنشر هذه المسرحية في دار نشره وذكر لي أن باكثير وعَدَه كثيراً بإحضارها إليه لنشرها ولكن لم يحدث ذلك حتى وفاته.

وربما كانت هنالك أسباب أخرى لا أعرفها لكن قيمة هذه المسرحية ومكانة علي أحمد باكثير جعلت تحقيقها ونشرها من الأعمال التي استوجبها البحث العلمي ولما قام محمد أبوبكر حميد بنشرها أخيرا فقد كفاني هذه المهمة وألزمت نفسي بالنقد ولعلي أوفقُ في ذلك.

١-٣ منهج البحث :

يعتمد الباحث على النقد التحليلي في قراءة النص وفهمه ؛ ولما كانت ثقافة باكثير ثقافة عالمية فقد أورد كثيراً من الأعلام الأجنبية والأساطير الإغريقية مما استوجب الإحالة إلى كتب ودراسات حول الأساطير حتى تكون واضحة في ذهن المتلقي العربي عندما يقرأ النص .

٢-١ *نبذة عن فكرة فاوست عالمياً*

يُرجع النقاد والمؤرخون فكرة فاوست إلشخصية ألمانية حقيقية تدعى Georg Faust جورج فاوست الذي عاش في الفترة ١٤٨٠ – ١٥٤٠ ومن هذه

---

hg. Lutz Edzard und Christian Szyska (Reihe : Arabische studien und Reihen). Olms Verlag. Heldesheim/ Zuerich / New York 1997 , S. 131ff

وإلى هذا ذهب الدكتور محمد أبوبكر حميد في مقدمته لمسرحية فاوست الجديد ص ٥

الشخصية تكونت أسطورة فاوست في الأدب الألماني ومن ثم الآداب العالمية ، وحيث إننا لا نملك مصادر عربية عن نشأة فاوست الحقيقي كان لزاما علي أن أرجع إلىالمصادر الألمانية.

تذكر Elisabeth Franzel في كتابها حول "مواد الآداب العالمية"Stoffe der Weltliteratur أن فاوست درس الكثير من العلوم المتداولة في ذلك العصر كالطب وعلم الفلك ، والكيمياء وعلم السحر (الدجل والشعوذة) وَوُصِف من معاصريه بمواصفات أسطورية في عصره ، وهنالك عديد من المصادر تؤكد دراسته السحر ،و استدعاء الأرواح في مدينة krakau وتنبأ ، وحاول في مدينة Venedig الطيران و وتقول إحدى الروايات إن الشيطان قد تشكل له في صورة كلب ظهر له وأخذه إليه"[٧٧]

أي أن هذه الشخصية حقيقية عاشت في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين وكانت النواة الأولى التي شكلت منها العقلية الأوربية فاوست شخصيةً وفكرة .

ومن هذه البدايات –كما تذكر Elisabeth Franzel تكونت أسطورة فاوست التى طبعت فى مطبعة Spiess بفرانكفورت في كتاب شعبي على شكل سيرة شعبية ، تحت عنوان : "سيرة الدكتور يوحنا فاوست ١٥٨٧" .

و"حسب هذه الرواية فقد ولد في Roda بمدينة Weimar ودرس في Wittenberg علم الأديان ، وبعد أن حصل على الدكتوراه اتجه لدراسة السحر ، وكان متكبرا ولديه حب للمعرفة ، دفعه إلىعقد اتفاق بينه وبين مفستوفيس (وسيط الشيطان وخادمه) وبعد انتهاء فترة الأربعة وعشرين عاما التى سيلبي الشيطان فيها كل رغباته سيمنح روحه للشيطان .

في الثماني سنوات الأوليات قضى جزءا من سنوات الدراسة وجزءا من الاستمتاع فى Wittenberg ، وجاءت رغبته فى الزواج ضد خطة الشيطان ولذلك كان يشجعه على كل البديلات دون زواج.

---

[77] Franzel, Elisabeth :Stoffe der Weltliteratur,4.Auflage ,Alfered Kroener Verlag Stuttgart,1992,SS.218

ويخفف هجمات الندم التي كانت تعتريه بالموسيقى الساحرة ، و في الثماني سنوات التاليات التي قضاها Faust في رحلات كونية وأرضية إلىالفاتيكان والسلطان في القسطنطينية وبلاط القيصر ، وفي ألاعيبه السحرية بهر الجميع وعاد إلىWitt وحاول التوبة عن طريق رجل حكيم وتنتهي هذه السنوات بعقد جديد مكتوب بالدم مع الشيطان.

وأخيراً استدعى أمام الطلاب في Wittenberg روح هيلينا Helena فأصابها وتزوج من خيالها ، وانجب ابنا اسمه Justus Faust ويموت فاوست من الفزع الشديد بعد أن ألقى خطبة رثاء أمام طلابه .ويهدي بيته إلىخادمه كرستوف فاجنر Wagner وتختفي هيلينا Helena وابنه منها"[٧٨]

وينقل الدكتور عبدالرحمن بدوي ماذكره Mennelوهو أحد تلاميذ لانجتون رفيق مارتن لوثر أن لانجتون وهو من بلدة فاوست نفسها رآه شخصيا وحكى أنه كان صعلوكا يمارس السحر ورفعه الشيطان في الهواء ثم يحكي كيفية موته في فندق بمدينة Wurtemberg حيث قال لصاحب الفندق ذات الليلة وقد رآه مهموما"(لاتفزع في هذه الليلة) وفي وسط الليل اهتز الفندق ، وفي الغداة صباحاً لمَّا لم ينهض فاوست وبلغ الوقت ساعة الظهيرة ذهب صاحب الفندق بصحبة آخرين ودخل غرفة فاوست فوجده راقداً بالقرب من السرير ووجهه ملتفت إلىظهره وعلى هذا النحو قتله الشيطان"[٧٩]

وعلى الرغم من أن هذا الوصف يحمل كراهية لفاوست إذ أنه خرج على تعاليم المسيحية في عصره وقلل من أهمية الدين المسيحي إلا أن هذا الوصف يجعل – دون أن يدري صاحبه– من فاوست صالحا لأن الشيطان قد قام بقتله أي أنهما اختلفا في النهاية.

"وقد نُشرت قصة فاوست في ١٥٨٩ بشكل موسع وأُكملت فى ١٥٩٣ من قِبل Christoph Wagner خادمه وفي عصر النهضة شُوهت صورة Faust الساحر وربطوا صورة الساحر الملعون في القرون الوسطى به ، وأنه خرج من

---

[78] Franzel, Elisabeth :Stoffe der Weltliteratur,4.Auflage ,Alfered Kroener Verlag Stuttgart,1992,SS.218-219

[79] عبدالرحمن بدوي :مقدمة فاوست لجيته ص١٦ ط.دارالمدى ،المجمع الثقافي بأبوظبي ١٩٩٨

طاعة الله وعقد عقداً مع الشيطان ، وهنالك أسطورة Theophilus تيوفيلوس هذا الساحر الذي كان أشبه به ولكن يُنقَذ من خلال التوبة وبمساعدة السيدة مريم ؛ وهنالك تشابه بين هذه الأسطورة وفاوست.

لكن الخصائص التي يمتاز بها Faust هي تكبُّر العالِم ، وطموحه ، وحبه للقوة والسلطة وتسلط المثقف وعصيانه للمسيحية ليس عن طريق عقده مع الشيطان فحسب وإنما ارتباطه مع هيلينيا Helena الكافرة التى تسعى إلىجهنم .

إن أكبر خطأ ارتكبه Faust كما يرى Widmann أنه شكّ في الله ؛ في التوكل على الله .

قام Christopher Marlowe بكتابة مسرحية " تراجيديا دكتور فاوست ١٥٩٤ التي طبعت فى ١٦٠٥ بانجلترا وفيها روح الجدل بين الخير والشر بين الإنجيل والسحر ، بين التوبة والذنب بين التراجيديا والكوميديا ؛ وصور حب Faust بينما صور Mephisto خادم الشيطان على أنه حزين ورفيقه Faust في سوء الحظ في النهاية المفجعة

ويبدأ مسرحيته في غرفة الدراسة ، وينتهي باللعنة التي لا يمكن أن يتفاداها في دقات الساعة الثانية عشرة ويبكى الكورُس سقوط الرجل المتعالي الطموح .

وقد ظل Faust مائتيْ سنة في نطاق المسرح الألماني والانجليزى ، وسقط المستوى إلىمشاهد هزلية ورجع إلى ألمانيا فى صورة هزلية أيضا"[٨٠] .

وقد لحظ الكتور عبدالرحمن بدوي في مسرحية Christopher Marlowe جانب الشك لدى فاوست الذي كان أكثر شكا من الشيطان ذاته "إنه يحاول أن يثبت للشيطان أنه لا يوجد جحيم وما الجحيم إلا خرافات عجائز وأنه ليس بعد الموت شيء إلا العدم ولا ينقذ فاوست من الانتحار إلا جمال شعر هوميروس"[٨١]

وهذا الجانب الشكي هو الذي يعتمد عليه في بنائية مسرحيات فاوست التي تتخذ منه مدخلا يؤثر من خلاله الشيطان على فكر فاوست وإيمانه المسيحي الذي سرعان ما يتهاوى.

---

[80] Franzel, Elisabeth :Stoffe der Weltliteratur,4.Auflage ,Alfered Kroener Verlag Stuttgart,1992,SS.219-221

[81] ط.دارالمدى ،المجمع الثقافي بأبوظبي ١٩٩٨ 38 عبدالرحمن بدوي :مقدمة فاوست لجيته ص

"وقد أخذ Pfitzer شخصية Faust ومنعه من الزواج في مسرحية تناول فيها قصة حب جديدة ١٦٧٤ وخطة زواج فاوست من فتاة فقيرة أُبطلت من مفيستو عن طريق ارتباطه بهيلينيا.

وفى القصص الشعبية يبدو أنه فقير وفى حاجة إلىالمال وعند Marlowe نجد شخصية الخادم المرح .

وفى Wien فيينا اشتهرت شخصية الخادم المرح عن " حياة فاوست وموته" وجعل الخادم شخصية مناقضة لفاوست وساخرة منه وتطورت هذه الصورة الساخرة عند A. Baeuerle في حواديت " معطف الدكتور فاوست " كما حولوا فى فيينا صورة مفستو إلىمتنكر في صورة فرنسيكان (راهب) جاء على شكل فارس مهذب مع النساء .وفى انجلترا كتب Wlliaim Mountforts مسرحيات ساخرة حول حياة وموت دكتور فاوست ١٦٨٤ وبعد ذلك أُلف بانتوميم د. فاوست ولُعب على شكل عرائس متحركة فى المسرح والشكل الجاد بقى فى الأغانى الشعبية عن فاوست"[٨٢] .

ونلحظ هنا أن شخصية فاوست الحقيقية تُجووِزت في الأعمال الأدبية في ألمانيا وخارجها وربما وجدوا فيها موضوعاً جديدا يحاكي الشخصية القديمة لكن لا يكررها بل وجد فيه الأدباء شكلا احتجاجيا ضد الكهنوتية في ذلك العصر فودُّوا من خلال فاوست المسرحي أن يقوِّلوه ماودُّوا أن يتلفّظوا هم به.

"في القرن ١٨ حدث تحول فى المجتمع ولذلك تحولت فكرة Faust بعيدا عند Lessingالذي اكتشف مادة فاوست من جديد وكانت لديه رؤيتان : إنه انسان دون شيطان على منوال المسرح التراجيدى ، والأخرى على هيئة الأسطورة .

وحب فاوست الشديد للعلم يعطى للشيطان الفرصة لمعرفة منطقة ضعفه ولكنه ينتصر (...)وعندما ينام فاوست يكتشف أن كل ماحدث كان حلما .عند Lessing نجد التفاؤل بينما كان لدى من تناولوا Faust من قبل متشائمين .

وفى حركة العاصفة والاندفاع Sturm und Drang في المانيا صوروا Faust يعيش فى حياة الرفاهية وحب العظمة ، بينما نجد Maler Mueller

---

[82] Franzel, Elisabeth :Stoffe der Weltliteratur,4.Auflage ,Alfered Kroener Verlag Stuttgart,1992,SS.220-221

مالرمولر يصور Faust على أنه وحش مستمتع وينتهى عمله بموته ويصور لينز Lenz عذاب فاوست الجهنمي لأنه وحيد في حياته دونما حب"[٨٣]
يوحي هذا التناول لنا إلى أي مدى تحوَّل هذا النص منذ كتابته إلنص يحتذى به ويُقلد ويُختلف معه بحيث بدا نصاً متطوراً عبر العصور المختلفة.

وفي تحليل Elisabeth Franzel ترى أن Klinger كلينكر يصور FAUST فى روايته " حياة فاوست وأعماله وسفره إلىجهنم "١٧٩١ يصوره عالما من وجهة نظر سلبية فالعالم يمنع الإنسان من التعليم من خلال كل من الحكومة والكنيسة والمجتمع .
فاوست هو الأمل فى تغيير العالم عن طريق الطباعة والعلم لكنه يقع فى العصيان فيطلب من الشيطان أن يقتله .
وفى عصر Goethe كتب كل من Soden و Schink عن FAUST بمعزل عنه مزيجا من الواقعية والإنقاذ الأسطورى .
Soden جعل FAUST يحاول التوبة الا أن اللعنة تحيق به فى النهاية بينما Shink حاول أن يدخل فى القصة حب Faust لفتاة تنقذه من العَقد مع الشيطان ويرتكب FAUST ثلاثة ذنوب أخرى حتى تقع اللعنة عليه .
فى القرن ١٩ [اشتهر] موضوع FAUST لدرجة أن Tieck كتب Anti- FAUST " ضد فاوست"[٨٤] .

نشر جوته أول جزء من عمله Faust فى ١٨٠٨ وحوَّلها إلتراجيديا حب مابين الاستجمام والطموح وجعل العقد بين FAUST والشيطان على أنه عصيان (الانسان مخيّر) ومفستو رمز الشر والكذب والشك .
بعد ٢٥ سنة ظهر الجزء الثاني من Faust ويخمن النقاد أن شخصية فاوست أصبحت ذات طابع رمزي أسطوري إذ أن أقلام الكتاب تلقفوها ؛ وكل منهم أسقط عليها رؤاه وفلسفته وموقفه من الدين والحياة والأيديولوجيات المعاصرة ، بل غدت "فاوست" قناعا نقديا لنقد العصر ورجالاته .

---

[83] Ibid S.222
[84] Ibed,222

فعند A . V . Chamisso ينتحر FAUST حتى يصل إلىالحقيقة التى لم يعرفها فى حياته ، بينما حوَّل بوشكيه ١٨٢٦ حب المعرفة إلىمعرفة عبثية الوجود ؛ فالملل الذي تسبب فى بُعد Faust عن الله عند Gesill .

"فى القرن ١٩ نجد Faust قد اكتملت صورته بصنع شخصية صورة مضادة عن صورة FAUST جوته وتبتعد عن الفلسفة المبالغة وعملية أكثر لذا تقترب من شخصية "دون جوان Don Juan" فهم يلعنون FAUST وأنه يستحق الموت إلا عند Holtei فإنه يتوب قبل أن يُقذف فى جهنم .

وأنهم يوظفون الشخصية الطاهرة (البريئة) فـ Hoffman جعل Faust يتوب وكذلك مفيستو يتوب أيضا .

Mme de Stael مدام دى ستال الفرنسية لأول مرة شجعت الفرنسيين على قراءة جوته فكتبوا فى موضوع FAUST وفضلوا تصوير مفستو والشر على الإنسان الخاطئ الطموح فاوست.

فى ١٨٣٢ كتب جوته الجزء الثانى من فاوست حيث يعود جوته إلىالتراث عند FAUSTواستدعاء روح هلينا ورحلاته إلىالقيصر وغيره .

والمحور الرئيسي فى العمل هو استمتاع فاوست بفرحة ما قبل التجربة ، وفى النهاية هو راض عن عدم قناعته الأبدية.

عند جوته لم ينجح الشيطان فى أن يخدع فاوست بالمتعة –وهذا ما جعل هذا العمل يلقى رواجا في الفكر الإنساني –واستطاع FAUST أن يهرب من الموت والله يرحمه .

ومن عجب أن Pengler يرى بعد مائة سنة من موت جوته أن خصائص حب المعرفة فى FAUST خاصة بالثقافة الغربية !!وإلىهذا ذهب كل من بايرون وشلي وهذا رأي خاطئ إذ يقوم على تفرد حضارة بقيم معينة دون أخرى ولا شك أن حب المعرفة ضالة الإنسان مذ كان وسيظل دوماً.

وقد توقفت الكتابة في القرن ١٩ عن فاوست بعد جوته لعظمة ما كتب ولكن ظهر انعكاس لعمل جوته فى أعمالهم واستلهموه وهنالك استثناءات قليلة لمن كتبوا عن FAUST جوته ومنهم لنياوس الذي ألف قصيدة طويلة ١٨٣٦

ورسم صورة لفاوست عبثي النظرة تجاه الكون ويعصى الإله وينتهى بحب الموت.

"كتب Vischer الجزء الثالث لفاوست جوته وبشكل ساخر حوّل فاوست إلىامرأة[٨٥] ، وعندما ابتعد الكتّاب عن تأثير عمل جوته فى القرن العشرين استطاعوا أن يبدعوا عند Paul Valery وظيفة الشاعر أن يجد الشخصيات وليس الأدوار وليست هنالك امكانية للوصول إلىحقيقة العلم ، والقوى الفعلية فى الشر أكثر مما هي نظريا.

يكتب مكسيم جوركى FAUST ويبدع إنسانا فاوستيا وليست المادة ذاتها ؛ وقد وظف بلقاكوف هذا العقد توظيفا سياسيا فى روايته "السيد ومارجريتا" فالعقد بين الشيطان ومرجريتا ليس من أجل الوصول إلىالمعرفة والشباب والسلطة والغنى وإنما من أجل الحرية.

كتب توماس مان " دكتور فاوستوس"[٨٦] وجعل شخصية الموسيقي المعاصر Adrian Lever كرمز للشعب الألمانى أجمعه وربطه بالساحر فى الكتب الشعبية إذ جعل تكبر الساحر ووصوله لأغراضه عن طريق الشيطان ؛ وأغلق قلبه أمام الحب والإبداع وكان تأثير الشيطان عليه بالموسيقى الساحرة ، وفي المشهد النهائى يبدو اعترافه وندمه وبكاؤه وسقوطه النهائي.

يبدأ مارلو[٨٧] Christopher Marlolow مسرحيته بأول مشهد مونولوج FAUSTإلىأى جهة يتحول ؟ إلىالعلم أم إلىالدين أم إلىكل العلوم وفى النهاية يختار السحر ؛ هذا المشهد يعد مشهدا رئيسيا يبني عليه كثير من كتاب الدراما الفاوستية "

---

85 Franzel, Elisabeth :Stoffe der Weltliteratur,4.Auflage ,Alfered Kroener Verlag Stuttgart,1992,S.225

86 توماس مان : دكتور فاوستوس ، ترجمة محمد جديد ، ط. دار المدى ٢٠٠٠

87 يرى الدكتور عصام بهي "أن الذين كتبوا عن فاوست لم يكونوا متأثرين بفاوست جوته وحده – كما هو شائع في دراساتنا_ بل متأثرين أيضاً بفاوست مارلو بالدرجة نفسها"

عصام بهي(دكتور) :الشيطان في ثلاث مسرحيات ، مقال بمجلة فصول ص ٢٤٩ العدد الرابع ١٩٨٣

نظر شعراء عصر النهضة إلحب فاوست إلىالمعرفة على أنه ليس ضد الله"[٨٨] وقد استلهمت الموسيقى إشكالية فاوست في أعمال موسيقية خالدة كافتتاحية أوبرا فاوست لفاجنر وسيمونية فاوست لليست Liszt وغير ذلك من أعمال أدبية وموسيقية استلهمت فكرة فاوست وصراعه الداخلي وإشكالية تساؤلاته المحيرة.

من هنا يبدو لنا إلىأي مدى كان حضور عمل جوته مُهيمنا على الأدب العالمي فقد وجد كل أديب في فكرة جوته ما صادف قبولاً لديه وجعله قادراً على أن يوظفه توظيفاً جديدا وأن يعيد تشكيله من جديد وفق رؤاه وفلسفته وعصره.

[88] Franzel, Elisabeth :Stoffe der Weltliteratur,4.Auflage ,Alfered Kroener Verlag Stuttgart,1992,S357

٣-١ أثر فكرة فاوست في الأدب العربي

لماذا عاشت فاوست في الأدب العربي بينما توقفت محاكاة أعمال أدبية أخرى ؟

أرى أن هذا يعود إلـأن فاوست قابلـة للتأسلم والتصوف ولا تتعارض مـع الرؤيـة الإسلامية للشيطان الذي يشتري الإنسان ليضلّه بينما ظلت أوديب – على سبيل المثال – تعاني من فكرة تعدد الآلهة وموقفها حيال الإنسان والعلاقات المحرمة ولذا فقد عاشت Faustبينما توقفت محاكاة أعمال أخرى.

وقد وجدنا عددا من المحاكاة لفاوست في الأدب العربي ومن أهمها:

٣-١-١ محمد فريد أبو حديد : عبد الشيطان[٨٩](١٩٤٥):

تبدأ المسرحية بطوبوز الذي سئم القراءة والاطلاع وبينما هو فى هذه الحالـة يدخل عليـه صديقه كلدي الذي يقيم فى (فاران) ويحب متع الدنيا ولايأبه بالقراءة ، ويحكي لصديقه طوبوز عن خطيبته سادي ثم يتحدثان عن صديقهما قدري وحبه لثريا وأنه على وشك التوصل إلىاختراع

سيقلب العالم رأساً على عقب (على حد قول كلدي) إذ إن باستطاعته أن يسخر أشعة الشمس لتوليد الكهرباء ، ثم تحضر ساري وتدعو أستاذها طوبوز لزيارتهما فى فاران ، ويمضيان وتعبر لـه عن إعجابها بكتابـه " فاوسطوس " ويعود طوبوز إلى مكتبته فى حالة ضيق من الكتب ويُخرج مسدسا ويحاول الانتحار لكنه يتردد وينادي الشيطان ؛ وفى هذه اللحظة يدخل عليه شخص غريب الأطوار ويتحدثان مثنيا على كتابه "فاوسطوس" ويعرفه بنفسه على أنـه "أهرمن" ويدور حوار بينهما حول الحياة ومتعها وفلسفتها ، ويعرض أهرمن على طوبوز أن يمده بالذهب نظير بيع طوبوز نفسه للشيطان ويوقعان اتفاقاً بالدم ويصير "عبد الشيطان " وعندها ينتهي الفصل الأول.

---

[٨٩] محمد فريد أبو حديد : عبد الشيطان ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٥م وقد ذكر الدكتور عز الدين إسماعيل أنها كُتبت في ١٩٢٩ وهذا أصوب لأن الأحداث تشب بمصر في تلك الآونة ، كما ذكر روبرت كامبل في "أعلام الأدب العربي المعاصر سير وسير ذاتية أن عبدالشيطان نُشرت في ١٩٣٣
روبرت كامبل : أعلام الأدب العربي المعاصر سير وسير ذاتية ج ١ ص ١٨٢ ط. Franz Steiner Verlag, Stuttgart 1996

يبدأ الفصل الثاني في قصر طوبوز باشا – الذي أضحى أكبر أغنياء "جانبولاد"– بحفل رقص مصاحب بالموسيقى ، وينتحى طوبوز واهرمن ويتحاوران حوارا طويلا حول كراهية اهرمن لجنس

الإنسان ،ثم يبدأ البعض في لعب الورق ثم نفاجأ بسادى التي يحاول طوبوز تهدئتها ويظهر من الحوار أنها خانت خطيبها كلدي مع طوبوز ثم تنصرف عن الرقص وسط ضجر طوبوز ولكن اهرمن يهدئه ويقول له :هددها بخطاباتها المعطرة إليك.

ويبدأ الجميع من علية بورانيا في اللعب والرقص والخمر ويتنقل اهرمن وسطهم وهو في فرح كبير لأنه يراهم يعبدونه ، ويشترى طوبوز المصانع والأراضى ويسرّح العمال والمزارعين الذين لا يجدون عملا وإنما يأتون لقصر طوبوز ممتنين لإحسانه عليهم .ومن خلال أمان إحدى محبوبات طوبوز يبدو لنا كيف دخل طوبوز في عالم الملذات والنساء. ثم يوحي اهرمن إلىطوبوز أن يعمل على أن يكون حاكما لبورانيا حتى يخضع له الجميع مستخدماً استمالة الكُتّاب بالمال والقضاء على النقابات والجمعيات والأحزاب وكل مظاهر الديمقراطية فى البلاد. وبعد حوار طويل يقتنع طوبوز أنه سيد بورانيا وأنه جدير بأن يعتلي منصة الحكم.

يبدأ الفصل الثالث وقد صار حاكما لبورانيا وانتشرت البطالةبينما تبدو مظاهر الثراء فى قصره ،وكان طوبوز وبصحبته مستشاره اهرمن قد عادا من جولة بين أفراد الشعب ويبدو اهرمن سعيدا بما آلت إليه من خراب وبطالة لكن طوبوز حزين لهذا الدمار ؛ يتحاوران حول هذا الوضع ويتضح لنا أن اختلافا فى الآراء قد دب بينهما إذ يتألم طوبوز من حالة الجوع الدامي الذي استشرى في البلاد ويدرك أنه وقع ضحية للشيطان ويذكّره اهرمن بأن مارآه كان جزءا من اتفاقهم الأول.

"اهرمن : أليس هذا اتفاقنا الأول ؟ أليس من أجل هذا أصبحت طوبوز باشا الحاكم المطلق باشا؟

طوبوز : الحاكم المطلق ؟ أي حكم لي وأنت تلعب بي أيها الشيطان ، أنت تسيرني وراءك ، وتضع خزاما فى أنفى .

اهرمن : (ضاحكا) تشبيه عبقري .

طوبوز : (هائجا) وتسخر أيضا ؟ سأحطم هذا الخزام وأحرر نفسي"[٩٠]
ويعرض اهرمن عليه شراب خمر حتى يهدئه كالعادة إلا أنه يرفض ويحطّم الكأس ويُرجع اهرمن ثورة طوبوز ضده إلىالمرأة "لا يستطيع أحد أن يتحداني سوى المرأة "[٩١]

ويخلو اهرمن بنفسه وقد رأى أن طوبوز على وشك نقض الاتفاق ويدخل عليه "يلدرم " وهو قائد الجيوش الذي في طوع اهرمن ويتناقشان حول وفد بكسونيا ومندوب طبران وسفير كرمان الذي سيزور بورانيا غدا لتوقيع اتفاق معها ويمنّى اهرمن نفسه أن مساحة حكمه ستزداد في البلاد"سيصبح الجميع أصدقائى وأعوانى ، سيرتفع علم اهرمن المهرج فوق الآفاق"[٩٢] ويأمر اهرمن القائد يلدرم ألا يُظهر أحدا من الشعب أمام الوفود "يجب أن يمنع الشعب من الظهور"[٩٣]
ويطمئنه يلدرم أنه غطى الطرق التى ستمر فيها الوفود" بحوائط عالية على طول الطريق ، حوائط
من الخشب غطيت بالأشجار والزهور"[٩٤]
ثم يدخل طوبوز بملابس أنيقة ويحاول اهرمن فتح حوار معه لكن طوبوز يقول له "لقد صحوت"[٩٥] ويواجهه اهرمن أن مابه من تغير بسبب حبه لثريا ويفاجىء طوبوز اهرمن بأنه قد اختار ثريا لتكون زوجه ، ويأمر طوبوز الخادم بإلقاء زجاجات الخمر في صندوق ، ويخلو" اهرمن " إلىنفسه.
في اللحظة التي تأتى فيها ثريا التي تهيم حبا بطوبوز كما يهيم بها وتتحدث ثريا معه حول إنقاذ الشعب من المجاعة والبطالة والعمل على فتح أسواق العمل والمصانع ويعدها أن يحقق لها أمانيها بأن يرد للناس إنسانيتهم ، ويتضح من الحوار أن ثريا تبصره بالحقائق .
" كلما سرتُ في قرية من القرى أحسست قلبى يتمزق كأن أظافر قاسية تنهشه ، كل شئ حول الناس يحتاج إلىالإصلاح : الطريق ، المنزل ، الطعام ، الملبس، كل

---

[90] محمد فريد أبو حديد : عبد الشيطان ص ١١٠
[91] السابق ص ١١١
[92] محمد فريد أبو حديد : عبد الشيطان ص ١١٥
[93] السابق ص ١١٤
[94] السابق
[95] السابق ص ١١٦

شئ يحتاج إلىدواء : الأجسام والنفوس والعقول " وأنها فى حاجة إليه وستساعده " نستطيع معا أن نساعد هؤلاء التعساء"[٩٦] وأن نعيد لهم الكرامة والإنسانية ، عندما أتصوّر هذا تزيد الحياة في نظري بهجة ، ويمتلئ قلبي يقينا بأن يد الله هي التي قرّبت بيننا . هي يد الله التي قربت بيننا"[٩٧].

ويتجولان في الحديقة بينما يظهر اهرمن وقد أحضر " أمان " لكى يفسد خطة طوبوز فى الزواج ويطلعها على خطة طوبوز وعشقه لثريا وتود أمان أن تنتقم لنفسها ويفاجأ طوبوز حال عودته بصحبة ثريا وأبيها بأمان التى تمثل دور العشيقة أمامهم ويبدو الموقف صعبا وتهرب ثريا وأبوها من جرّاء هذا الموقف وبذلك ينجح اهرمن في إفشال مشروع الزواج ويحاول طوبوز أن يقتلها لكن يتراجع وتغادر القصر بعد أن نجحت خطتها التي رسمها لها اهرمن الذي يدخل على طوبوز الذي يتهمه بتدبير هذه المكيدة ويتسع الخلاف بينهما إلىحد أن طوبوز يعلن أمامه أنه يتبرأ منه ويثور ويهم بالاعتداء عليه بل يخرج مسدسا من جيبه ويصوّبه نحوه ويضربه فيجد أنه لا يصيبه ، ويخلع سواره ويعطيه لاهرمن الذي يحذره أن الناس ستقرأ ما هو مكتوب لكنّ طوبوز يقول إنه سيبحث عن قطعة جلد يغطى بها هذا الخاتم ، ويحذره الشيطان " أنا في صداقتي أجود بكل شئ ، وأخلص للصديق حتى أفنى في شخصه ولكنى في العداوة لا أعرف رحمة "[٩٨]

ويمضى مختفيا ويبدأ طوبوز في مونولوج يقتحمه شبح سادي التي كانت قد قتلت نفسها منذ زمن لكنها تطارده ويطلب من شبحها الغفران لكن سدى " ابحث في نفسك ، افتح القبر وابحث فيه (..) افتح قلبك "[٩٩] ويختفي الشبح ، ويفتح طوبوز خزائنه فيتطاير الذهب على شكل فقاعات ملونة تغيب في الفضاء ، وينظر في نفسه فإذا الخاتم يتسع يملأ كل جسده ، حتى غطى وجهه ، فينادى على اهرمن ولكن لا يجيبه سوى بضحكة جوفاء فيستعطفه " أرجوك ، أتوسل اليك ، أنا صديقك سأفعل ما تريد ، لن أعصيك فى شئ . اهرمن . أنا صديقك ، أنا خادمك

---

96 السابق ص ١٢٦

97 السابق ص ١٢٧

98 محمد فريد أبو حديد : عبد الشيطان ص ١٤٤

99 السابق ص ١٤٦

أنا عبدك "[100] ولا يسمع سوى ضحكة " فيتناول مسدسه محاولا الانتحار لكن يتردد ويدخل الناس أفواجا ليروه فى حالته ويقرأون ما على وجهه . " وتسمع من بعيد ضحكات أهرمن الجوفاء "[101]. وتنتهى المسرحية .

والملاحظ هنا في هذه المسرحية أن محمد فريد أبو حديد وظَّف فكرة فاوست توظيفاً جديدا وربما يكون هذا سر شيوع فاوست في الأدب العربي محاكاة وتوظيفا وقد اتفق واختلف مع فاوست جوتهGoethe وقد رأى الدكتور عز الدين إسماعيل أن فاوست هنا هو محمد محمود خليل ؛ وأن اهرمن هو الاستعمار هذا إذا وضعنا في الاعتبار زمنية التأليف ، وهنالك إشارات دالة على ذلك فالأسماء تبدو غير عربية : طوبوز ، كلدي ، أهرمن ، بورانيا ، يلدرم ، سادي ، نوجور ، هامي ، تروان باشا وهى أسماء تبدو أصولها خليطاً من التركية واليونانية وهى تمثل جانب الشر والخطيئة في المسرحية في مقابل أسماء عربية كقدرى رمز العالِم الذي يودُّ أن يتوصل إلىاختراع يفيد البشرية وثريا التي تمثل الطهر والنصح الصادق وحب الشعب والعمل عل تحقيق إنسانيته وربما كانت ثريا –فيما أرى – رمز مصر .
لكن الملفت للنظر هنا أن الحب هو الذي يهزم الشيطان ، وأن المرأة الصالحة هي التي يطأطئ الشيطان رأسه أمامها ، ويركز أبوحديد على أن ثريا هى نقطة الضوء التى ألقت على طوبوز رؤيته لحقيقة أمره وبداية التفكير فى التخلص مما آل إليه ويبدأ فى التفكير من جديد ؛ وبينما نجد أن المرأة هي مسار التحول عند محمد فريد أبو حديد نجد أن التصوف الذاتي هو نقطة التّحول ومحاولة التخلص من رق الشيطان وعَقْده لدى باكثير ؛ كما أن مرجريت تمثل حجر الزاوية في فسخ العقد بين فاوست والشيطان ، وأن مجيئها إليه أنقذه من براثن الشيطان .
لكن الخلاف الأكبر بينهما في نهاية المسرحية حيث يفاجئنا أبو حديد بضعف فاوست ومناداته للشيطان كى يعود إليه من جديد مقرا بعبوديته له ولكن ماذا سيفعل به الشيطان وقد أضحى عبداً له ، لكن التوبة تصدق عند فاوست باكثير ويهزم الشيطان ، وإذا وضعنا فى الاعتبار أن فاوست رمز للحكم السياسى فى مصر آنذاك فإن محاولة التخلص من الإستعمار لم تكن ذات قيمة لدى الحكام

---

[100] السابق ص ١٤٨

[101] السابق

آنذاك وإنما كانت محاولات يستهدف منها ولاة الأمر كسب تعاطف شعبي ولكن لا يعنيهم الشعب على الإطلاق ، وتسير نهاية مسرحية أبو حديد مع هذا التفسير فالغرب حتى لو رحل عن مصر فإن عُبَّاده باقون بها يسيّرون أمورها نحو خرابها ودمارها فى ذلك الوقت ، ولذلك فلا حاجة للمستعمر أن يحكم بنفسه طالما أن له أعوانا يمتثلون بأمره .

يُعلي أبو حديد من دور المرأة بل يفضلها على الرجال فى المسرحية فليست المرأة رمزاً للشر ولا ينبغى أن تقبع فى البيت بل يشجع أبو حديد المرأة على أن تتبوأ مكانها فى المجتمع فقد تكون أكثر نظراً من الرجل ولذا فلا يضع لها أدواراً محدودة بل يجعل ثريا تفكر فى المشاريع الصناعية العملاقة لخدمة المجتمع ؛ وتعمل على تخليص طوبوز من عبودية الشيطان.كذلك من الخلاف بينه وبين باكثير أن طوبوز (فاوست) " شابٌ عند "أبو حديد " بينما نراه فى خريف العمر عند باكثير إ نجد في مسرحية "أبوحديد" نقداً للكُتَّاب الذين يُشترون ويُباعون [١٠٢] ونجد النقد السياسي[١٠٣] لنظام الحُكم ، ففي تهكم يقول أهرمن ضاحكا :" نحن في عصر الديمقراطية – لقد أصبح الشيطان ديمقراطياً– ولا مانع عنده من الظهور عيانا"[١٠٤] لقد استطاع محمد فريد أبوحديد أن يقدم لنا معالجة مبكرة لفاوست.

٣–١–٢ فاوست توفيق الحكيم :

٣–١–٢–١ الحكيم:"امرأة غلبت الشيطان"[١٠٥]

من خلال ماكتبه توفيق الحكيم حول فاوست أو "فوست" كما يسميه نلحظ أنه لم يهتم كثيراً بفلسفة فاوست فقد كتب مسرحيات تدور حول الفكرة لكن لم تصل إلى كُنهها كما كتب مشاهد مسرحية صغيرة مثل "امرأة غلبت الشيطان" ففاوست تقوم بدوره امرأة عرفت خريف العمر وشتاءه ولم يتبق منها سوى بقايا عمر لم تر فيهسعادة وفي حال ضيقها وقلقها من انقضاء العمر تنشق الجدران ويظهر لها الشيطان الذي تعقد معه اتفاقا أن يمنحها الجمال والحياة والمتعة عشر سنين مقابل أن تمنحه روحها بعد ذلك ليذهب بها إلى الجحيم ، وحررا بدم المرأة الصك

---

102 محمد فريد أبو حديد : عبد الشيطان ص ٩٩

103 السابق ص ٩٧

104 السابق

105 توفيق الحكيم :أرني الله ، قصص فلسفية ، ط. مكتبة الآداب ، مصر ١٩٧٦

المعهود ويحقق لها الشيطان في عشر سنين –إلا قليلا – ماتمنته ؛ بيد أنها قبيل أن تنقضي السنون بشهرين تضيق ذرعاً بهذه المتع وتبحث بذاتها عن متعة الروح ، فزهدت "وارتدت الخشن من ثياب النسك وذهبت وأدت فرائض الحج ، وغرقت في التأملات السامية ، وانقطعت للأعمال الصالحة ..."[١٠٦] وعندما يأتي الشيطان ليسوقها إلى الجحيم يرتعد لمرآها إذ يغلفها نور عميق ، ومع ذلك يأخذها نحو الجحيم لكن الملائكة تخلصها منه بسبب توبتها وتأخذها نحو الجنة.

والحكيم هنا يحاول أسلمة فاوست ولكن الجديد في المسرح العربي هو تأنيث فاوست وربما ظن الحكيم أن المرأة أقرب إلى روح فاوست كما أبقى على صورة الشيطان ولم يجدد فيها ؛ وقد سبقه فيشر Fisher إلى تأنيث فاوست عندما كتب بشكل ساخر الجزء الثالث لفاوست جوته وحوّل فاوست إلى امرأة .

٣-١-٢-٢ الحكيم :"الشيطان في خطر[١٠٧]"

فيلسوف جالس في حجرته بين أكداس الكتب وهذا المشهد يكرر دائماً في معظم المسرحيات الفاوستية والتليفون يدق ويكتشف الفيلسوف أن الشيطان يطلب مقابلته لأمر هام ؛ ويأتي الشيطان في حجرة الفيلسوف طالباً مساعدته لإنقاذ البشرية من كارثة محدقة تتمثل في حرب قادمة بالقنابل الذرية والصاروخية وعندما يستغرب الفيلسوف من هذا يسأل الشيطانَ:

:"وهل أنت شديدالرحمة بالناس؟

الشيطان :شديد الرحمة بنفسي !

الفيلسوف : ومادخلك؟

الشيطان : حياتي مرتبطة بالناس ، حيث يكون الناس أكون أنا ؛ فإذا قامت القيامة ، وجاءت النهاية ، فأنا مع الجميع في المقدمة إلى حيث ألقى مصيري المكتوب ونهايتي المحتومة"[١٠٨]

ويدور نقاش بينهما يتناول الزواج ويدعو الفيلسوف الشيطان للزواج حتى يغدو فيلسوفا "كل زوج قضى في الزوجية عشرة أعوام فما فوق هو فيلسوف"[١٠٩]

---

106 توفيق الحكيم :أرني الله ، قصص فلسفية ص ١٢٩

107 توفيق الحكيم :المسرح المنوع ، ط. مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٧٠

108 توفيق الحكيم :المسرح المنوع ص ٧٥٣

109 توفيق الحكيم :المسرح المنوع ص ٧٥٥

في أثناء ذلك تدخل زوجة الفيلسوف ويدور نقاش حاد بينهما حول مصروفات البيت سرعان ما يتطور إلى شجار عنيف تمسك فيه الزوجة بالمحبرة مهددة إياه بإلقائها عليه مالم يسلم لها الأمور دون قيد أو شرط .

"الفيلسوف : "صائحاً" هذه ...هذه قنبلة ...قنبلة ذرية !

الزوجة "مهددة بالمحبرة" فلتكن ما تكون ! اخضعْ وإلا..."[١١٠]

ويهرب الشيطان بعد أن ألفى الفيلسوف قاصراً عن أن يدفع عن نفسه أذى زوجته قائلاً:

"دعني أنقذ نفسي أولا من هنا ، قبل أن تلقى في الحجرة قنبلتكم الذرية !"[١١١]

والواضح من هنا أن عداوة الحكيم للمرأة أملت عليه هذه الرؤية وأن الشيطان يفر من المرأة ويرى نفسه مخلوقاً ضعيفاً أمام كيدها وشرورها.

٣-١-٢-٣ الحكيم :نحو حياة أفضل[١١٢]:

يبدأ الحكيم مسرحيته بشكل تقليدي في حجرة بسيطة في منزل ريفي والمصلح جالس يقرأ كتاباً تحت ضوء مصباح غازي موضوع فوق مائدة صغيرة ، ويدور حوار بين المصلح وزوجته حول أوضاع المزارعين وفقرهم وأمنية المصلح أن يغيّر أحوالهم نحو حياة أفضل ، وتسأله الزوجة عما كان يقرأ فيرد :

"كنت أقرأ قصة فاوست (...) وأسائل نفسي : ترى لو جاءني الشيطان الليلة ، ماذا أطلب إليه؟

الزوجة : ستطلب إليه بالطبع حياة أفضل

المصلح : نعم ؛ ولكن ليس لنفسي.

الزوجة : للناس !!

المصلح : بالضبط"[١١٣]

وتمضي الزوجة إلى النوم ويظل المصلح مستغرقاً في القراءة ، وفجأة يبدو شبح قرب الباب ، هو الشيطان ؛ ويعرض الشيطان على المصلح أن يقوم بتحقيق أمانيه نحو حياة أفضل للمزارعين الفقراء شريطة أن يكون صادقاً ، ويوافق

---

110 السابق ص ٧٦١

111 توفيق الحكيم :المسرح المنوع ص ٧٦١

112 توفيق الحكيم :المسرح المنوع "نحو حياة أفضل"فصل واحد ١٩٥٥ ط.مكتبة الآداب ، القاهرة ١٩٧٠

113 توفيق الحكيم :المسرح المنوع "نحو حياة أفضل" ص٨١٦-٨١٧

المصلح بعد لأيٍ على هذا الشرط ، ويقلب الشيطان حياة الفلاحين إلى حياة مرفهة فيقلب الأكواخ إلى مبانٍ جميلة تحيط بها حدائق صغيرة ، ويتباهى الشيطان بذلك ، لكن المصلح يكتشف في النهاية بعد حواره مع الفلاحين أنه ينقصهم النفس ،

"النفس ، لأن ثروة المال شيء ، وثروة النفس شيء آخر"

ويواجه المصلحُ الشيطانَ بعد ذلك:"أنت لم تعط قومي إذن الحياة الأفضل ، الحياة الأفضل هي المعنى الأفضل للحياة"[١١٤]

ويرد الشيطان :"ألم أقل لك إنك ستخادعني ، كما خادعني "فاوست" من قبلك؟ إنكم دائماً تخدعونني من هذه الناحية ... النفس ... لعنة الله على النفس ... كل المتاعب لا تأتيني إلا من هذه الكلمة ... وداعاً.

(...) [ينصرف الشيطان ، ويبقى المصلح مكباً على كتابه ، فتدخل عليه زوجته وتوقظه برفق]"[١١٥]

أي لم يك هذا إلا حلما.

أرى أن هذه المسرحية من الممكن أن نعدها نقداً ومحاكمة لثورة يوليو ١٩٥٢ فالحكيم كتبها في ١٩٥٥ ويرى أن همَّ المصلح كان نحو حياة أفضل للمجتمع وهذا ما حاولت الثورة توفيره كالجمعيات التعاونية والماكينات لكنه يرى أنها أخذت النفوس لأنها لم تستطع أن توفر للناس الحياة الكريمة، إننا هنا أمام توظيف سياسي لفاوست فالثورة أتت بإعلامها الذي لم يكن سوى كلمات جوفاء لم تغير الإنسان المصري في داخله ، ويركز الحكيم على دور المصلح الكاتب والمفكر.

٣-١-٢-٤ الحكيم :عهد الشيطان:

صدّر الحكيم عمله هذا بمناداة شيطان الفن "لقد منحتك كلَّ شيء ، كل قطرة من قطرات دمي هي لك ...وكل خلجة من خلجات نفسي هي لك (...)يا شيطان الفن ...لقد أخذتَ منِّي كلَّ شيء .. فماذا أعطيتني أنت ؟"[١١٦]

حاول الحكيم أن يكرر طرحه لفاوست في عهد الشيطان فالراوي عالم بلغ الثمانين عاماً ويقرأ قصة فوست في حيرته يأتي له الشيطان قائلاً "أنا الذي يستطيع أن

---

114 السابق

115 توفيق الحكيم :المسرح المنوع "نحو حياة أفضل" ص ٨٢٩-٨٣٠

116 توفيق الحكيم :عهد الشيطان ص ٧-٨ ط.دار الكتاب اللبناني ، بيروت ،١٩٧٣

يمنحك ما تطلب "[١١٧] ويطلب الشيخ الشباب من الشيطان في مقابل أن يهب نفسه للشيطان وكتبا العهد بدم الشيخ الذي ينقلب شاباً في العشرين "جميل الطلعة ، بسَّام المحيا ، مفعم النفس بالسرور ، متوثب القلب للحب"[١١٨] لكن هذا العالم يريد من الشيطان المعرفة "أعطني نفس فوست التي أخذتها منه ، أريد أن تكون لي نفس فوست أو نفس جوته.

- وماذا تعطيني أنت في مقابل هذا ؟
- كل ما تطلب
- الشباب
- هو لك"[١١٩]

ولا يكتب عقداً بذلك ، وبعد ثلاثة عشر عاماً التهم فيها الكتب التهاما صاح أريد الشباب.

وهي مسرحية ضعيفة و مهلهلة البناء ، والفكرة مكررة عند الحكيم نفسه وغيره.

والحكيم من خلال هذه المسرحيات لم يستوعب فكرة فاوست فلسفياً بل وظَّفها توظيفاً سطحياً لم يصل إلى كُنها الفلسفي ورؤاها وأسئلتها ،ولم يأخذ إلا القشور ، وخلت مسرحياته من دراما حقيقية وفكرة ناضجة.

كما أن الحكيم في تأنيثه "فاوست" ألقى على المرأة أخطاءها وأخطاء الرجال بل انتصارها على الشيطان نفسه ، وهذا لم يجعل المرأة إلا شيطانا يتفوق على الشياطين فتنةً وشراً دون أن يقنع المتلقي برؤيته بل بأحكامه المسبقة.

والأعجب أن الحكيم المفكر يرى أن حياة الفقر والمرض والجهل أنسب إلى عامة الشعب من حياة الغنى والصحة والعلم وهي رؤية ليس لها ما يبررها وتفتقر إلى حب الخير والتغيير .

يعتبر الدكتور مصطفى ماهر أن "حديث مع الله "[١٢٠] للحكيم "معالجة فاوستية جديدة ، ولكننا لا نستطيع تكوين حكم كامل لأن الحديث له بقية أو أكثر من

---

117 توفيق الحكيم :عهد الشيطان ص ١٣

118 توفيق الحكيم :عهد الشيطان ص ١٨

119 السابق ص ٢٠

120 توفيق الحكيم : حديث مع الله ، نُشر بالأهرام ، مارس ١٩٨٣

بقية"[121] وربما كانت معالجات الحكيم لفكرة فاوست في أعماله الأخرى أكثر عمقا وتأثراً.

٣-١-٣ فاوست عناني (١٩٩٨):

قدم محمد عناني لمسرحيته " فاوست " بمقدمة قصيرة موضحا - في عجالة - نشأة الأسطورة وصياغة Goethe جوته لها وترجمة محمد عوض لمسرحية جوته ثم عدّد الترجمات فذكر أن الترجمة الثانية لمسرحية جوته كانت على يد عبد الرحمن بدوى ونشرت في ١٩٨٩ وقد جانبه الصواب فذلك كما أوضحتُ آنفاً.

ثم ترجمة مصطفى ماهر ، وعرض لمسرحية مارلو القصة المأسوية للدكتور فاوستوس ، وتحدث عن تأثر جوته بمسرح شكسبير ثم برر قيامه بكتابة هذا النص إذ أن أحد المخرجين قد طلب منه أن يعد له نصاً عربيا موجزا لهذه المسرحية فكان "انتقائي لأهم ما يمثل في تصوري مأساة فاوست من وجهة نظر المشاهد والقارئ العربي قائما على هذا المفهوم ، ومن ثم أعددت نصا شعريا يتضمن قطعا مختارة من الجزء الأول فقط من ذلك العمل الشعري ، وأسميته " رؤية شعرية عربية[122] "

إذن فالنص مستوحى من مسرحية جوته ، وهو نص شعري حاول عناني أن يستخدم تمكنه العروضي في نظم المسرحية لكن جاءت بعض الحوارات أشبه بقصائد منفصلة عن النص وقد أضرّ ذلك ببناء مسرحيته التي أوجد شخصياتها على النحو التالي : فاوست طبيب في الثمانين ، إبليس كبير الشياطين ثم مرجريت (جريتشن) فتاة في ربيع العمر ، وفالنتين أخو مرجريت ثم روح الأرض وهو عفريت صغير "

وقد جاءت المسرحية في سبعة مشاهد بدأها كالعادة بحيرة فاوست وضجره من العلم والحياة ومجيء الشيطان إليه عارضا خدماته ويبدأ حوار بينهما حول العلم والمرأة ويعرض الشيطان عليه الاتفاق ويوافق فاوست " إن مرت بي لحظة ..

---

[121] مصطفى ماهر (دكتور) :فاوست في الأدب العربي المعاصر ،مقال بمجلة فصول ص ٢٤٧ العدد الرابع ١٩٨٣

[122] محمد عنانى (دكتور) : فاوست ، مسرحية من فصل واحد ، مجلة المسرح ص ٧٨ العدد ١١٢ ، القاهرة مارس ١٩٩٨ .

أشعر فيها أنى كامل .. أو أنسى فيها ذكر الزمن وأرجو أن يتوقف .... فسأصبح ملك يمينك"[١٢٣] ويوقع فاوست على ورقة الاتفاق ..

ويبدأ المشهد الثاني وإبليس يزف لأتباعه من الجن بشرى انضمام عالم لأتباعه من أهل الأرض ويكلف العفاريت بإحضار الفتاة جريتش لفاوست الذي يلقاها وقد غدا شابا وسيما ويغدق عليها من الهدايا التي أعطاه إياها إبليس وتهيم به حبا وتصيح به :

" حبنا حقٌّ إذن ؟

فاوست : في بحار الحب أبحرت بلا زاد سوى قلبي

ورجوت المثل الأعلى على شطَان حسي

ما الذي أبحث عنه يا ترى ؟

أنا ذاتٌ لست أدرى من أنا ؟[١٢٤] "

ويتعانقان.

في المشهد الثالث نرى جريتشن وهى في مونولوج شعري ثم يناجى فاوست محبوبته جريتشن ويظهر له إبليس الذي يحرضه على أن يذهب إليها في كوخها . ويبدأ المشهد الخامس وجريتشن في حالة مناجاة مع الله مستغفرة من خطيئتها مع فاوست : " إننى لم أخطئ سوى في دفعة الحب الأصيلة ؛

أىَّ شر ذاك ما يزهو بأثواب الفضيلة[١٢٥]؟

وفى المشهد السادس نرى فالنتين أخا جريتشن وقد بلغ به الغضب أشده يذهب إلىفاوست محاولا قتله عقابا له على ما اقترفه من خطيئة مع أخته ؛ ويحاول فاوست إقناعه بأنه فعل ذلك من أجل الحب والعلم

فاوست : " في الغد المأمول سوف تكون أحكم وغدا ستسمع ثم تعلم إنى قصدت الحب أنبل خافق في الكون كى أزداد علما ، ما مقصدى إلا اغتراف العلم من نبع الحياة

فالنتين : من نبع أختي ؟

فاوست : من هوى المرأة أم الكون ؟

---

123 السابق ص ٨١–٨٢

124 السابق ص ٨٣

125 السابق ص ٨٤

فالنتين : حملتْ سفاحاً منك ..

أنجبت طفلا حراما

فاوست : تنبت الأرض غراما .. والهوى يغدو نباتا

فالنتين : عجبا تقر بإثمك الدامي ؟ .. خذ هذه الضربة من حد حسامي[١٢٦]

ويهجم بسيفه على فاوست وينهض إبليس للدفاع عنه ويتبارزان فيطعن فاوست وإبليس فالنتين فيسقط قتيلا ، وعندما يراه فاوست قتيلا يبدأ في الصحو وتأتى لحظة التنوير نادما فقد قتل روحا طاهرة وعندها يشعر إبليس أن الأمر كاد أن يفلت من يده "هذه لحظة توبة .. ذاك إنذار خطير "[١٢٧]

لكن عناني يزيد من إيقاع الحدث إذ نرى إبليس يُعْلِمُنا أن جريتشن وقد قتلت طفلها غرقا "حكموا بالإعدام عليها .. ورموها في السجن .. وتشتت عقل جريتشن ... جُنّتْ "[١٢٨]

إذن فذروة المأساة هنا تتجلى في جريتشن التي قتلت الطفل وحُكم عليها بالإعدام وتصاب بالجنون ، ولا يكتفي عناني بذلك بل يخبرنا أن الشيطان قد دسّ سما في شراب أعطاه لفاوست حتى يسقيه لأم جريتشن كمنوّمٍ حتى يخلو لهما الجو ولكن الأم تموت .

وهنا نرى أن جريتشن فى لحظة توبتها تتحول إلى قاتلة وهذا من نقط الضعف فى المسرحية كما أن فاوست يغدو قاتلا لفالنتين وإذا كان قتْل جريتشن لطفلها يودى بها إلىالجنون فإن قتل فاوست لفانتين يجعله يفكر في الأمور بعمق وإن كانا قد وقعا معاً في الخطايا فقد أضفا عليهما روح الشر.

ويذهب فاوست إلىالسجن في المشهد السابع والأخير محاولا تهريب محبوبته جريتشن التى يفاجأ أنها تهذي بأشعار حول طفلها الذي لايصدق أنه مات وعندما يفتح فاوست زنزانتها تظن – فى مشهد مأساوي مؤثر – أنه منفذ حكم الإعدام وتستمهله حتى الصباح وعندما تعتقد أنه لا يرضى تتوسل إليه " أنا ملك يديك الآن ! أنا جاهزة للموت !

لكن أرجوك .. دعني أرضع طفلي قبل رحيلي "[١٢٩]

---

[126] محمد عنانى (دكتور) : فاوست ، مسرحية من فصل واحد ، مجلة المسرح ص ٨٤ –٨٥

[127] السابق ص ٨٥

[128] السابق

ويحاول فاوست إقناعها بأنه الحبيب وتبدأ في الصحو وتنتبه إليه بيد أنها تعود إلحالتها الجنونية ثم تفيق وترفض الفرار معه خارج السجن وتواجهه .

" ماتت أمي .. قد كنت دسست السم لها !

أغرقت رضيعي عند ولادته ..

كان هدية رب الكون إلي .. لك أيضا .. (...) هذى يدك ملطخة بالدم " ...

امسح عنها تلك القطرات الرطبة ! آه ياربى ماذا تفعل ؟ "

وتطلب من فاوست أن يتولى تصريف أمور جنازتها وقبرها حيث أنبأته أنها ميتة عما قريب وتلح عليه أن يدفن الوالدة ويليها الأخ فالنتين

" وأنا بعده

لكن بالقرب من الأخ والأم !

أما طفلي فعلى ثديي الأيمن

لن يرقد شخص آخر في قبرى " [١٣٠]

ويكرر فاوست محاولة إقناعها بالهروب من السجن دون جدوى وتتوسل جريتشن إلىالله " أيها الخلاق غفرانك .. إنني أذنبت فاصفح .. يا قابل التوبة فلتمح الذنوب .. إنني أصبحت أمة من عبيدك "[١٣١] ويتدخل الشيطان آمراً فاوست أن يهرب ويتركها ولكن فاوست يعلن نقض الاتفاق بينهما ويخرج ابليس فى برق ورعد بينما تناجى جريتشن فاوست : ضمنّى قبل الوداع !

قد تلقَّى الله روحي ، (تموت بين يديه) [١٣٢]

ويصرخ فاوست " إنني أحبّ الله القدير .. طالبا عفوه " [١٣٣]

وتنتهي المسرحية وهنا نرى كيف وظّف عناني التراث الشعري والإرث الفاوستي الجوتي في المسرحية فجريتشن البغي أخطأت مع حبيبها ثم تحولت إلى قاتلة ثم تتوب فتتحول إلى ولية من الأولياء حيث يعرف الولي موعد وفاته [١٣٤] قبيل أن تجئ ويحدد توقيتها ، كما أن فاوست في المسرحية رمز الخطأ والخطيئة ، لكن

---

[129] محمد عنانى (دكتور) : فاوست ، مسرحية من فصل واحد ، مجلة المسرح ص ٨٧

[130] محمد عنانى (دكتور) : فاوست ، مسرحية من فصل واحد ، مجلة المسرح ص ٨٧

[131] السابق ٨٨

[132] السابق

[133] السابق

[134] لمزيد من التفاصيل ينظر كتابى حول " أدبيات الكرامة الصوفية" ط.مركز زايد للتراث ، العين ٢٠٠٠

الخطيئة في النهاية فاتحة التوبة كما ذكرت آنفا ويبقى قتل جريتشن لطفلها لغزا لا تحله الأعراف الاجتماعية ولا تبرره التقاليد ، ولكن نهاية المسرحية بالجثث الأربعة تجعلنا نتذكر نهاية المسرح الشكسبيرى وقد تناثرت الجثث على خشبته ولعل تأثير شكسبير على جوته وعناني واضح .

لاينظر عناني إلى العقد بين الشيطان وفاوست إلا من منظار العبودية وهيمنة الشيطان على الأفراد وإغوائهم لكنه يرى التطلع إلىالمعرفة طريقاً أومبرراً لعقد هذا الإتفاق .

إن فاوست عناني لا يختلف كثيرا عن فاوست الآخرين إذ يطرح قضية الخطأ والخطيئة طريقا نحو التوبة ، وفى الوقت نفسه فإنه يحطم أطروحة الإنسان المثال أو الكامل ففاوست وجريتشن مخطئان.

ربما كانت فاوست عناني تلخيصا غير مقنع لفاوست جوته فقد غاب عنها روح جوته أسلوبا وإطناباً وشاعرية ويبقى لعناني جمال التلخيص لمن لم يقرأ النص الأصلي ولمن لم ير في إضافات جوته للمسرحية ما يستحق معاناة التفكير والتمثيل.

٣-١-٤ "الرجل الذي باع رأسه"رواية الدكتور يوسف عزالدين عيسى[١٣٥] :

لاتختلف رواية يوسف عز الدين عن غيرها فرمزي الشاب اليائس يفكر في الانتحار لكن جاره جابر العجباني ينقذه ويشتري رأسه مقابل ألفي جنيه ويوثق العقد وتنتقل حياة رمزي من الفقر إلى الغنى والشهرة كملحن ومطرب وممثل ويتعرف على النساء ويتزوج من أحسنهن جمالا ولكن جابرالعجباني يطارده أينما نزل وينتهي الأمر برمزي إلى الجنون .

وعز الدين عيسى يكاد يسير على خطى جوته وإن قام بتعريب أسماء الشخصيات والأماكن وهذا يحمد له لكن الطرح هنا لا يحمل رؤى جديدة بل يدور في فلك فاوست جوته.

٣-١-٥ "طبول فاوست" لأحمد سويلم [١٣٦]

---

[135] يوسف عزالدين عيسى (دكتور) : الرجل الذي باع رأسه (رواية) ط . دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩

[136] أحمد سويلم : طبول فاوست ، عُرضت على المسرح في مصر في ١٩٩٩

في مسرحية طبول فاوست نجد أحمد سويلم قسم مسرحيته بمقدمة تمهيدية أسماها "اللحظة الكونية من حالة العدم إلى سماع الصمت" وبمشاهد حول العقل ورحلة الجمال والشهوة سباحة داخل الأجساد والنهاية بعد رحلة الشهوة.

وتبدأ المسرحية بترديد أسماء الله الحسنى يرددها المنشدون في الأركان الأربعة ثم حيرة فاوست وقلقه :

"أي روح في هذه الأرض
يمكن أن تنشلني من هذه الحيرة ،
أهناك مخلوق يمكنه أن يفعل ذلك
إنني أمنحه كل ما أعطتني الحياة
لو أزال عني هذا القلق"[١٣٧]

يركز سويلم على الأبعاد الفلسفية لفكرة فاوست ولذلك لم يكن معنياً بقص القصة الفاوستية بل ظل في إطارها الفلسفي وتساؤلاتها القلقة .

فروح الأرض ترد على فاوست الذي ينشدها :

"قوديني إلى المجهول
اكشفي لي عن ذات نفسي
وعما في أعماق قلبي من أسرار وغموض"
كيف يلتهم كل شيء مع الكل
روح الأرض: عليك أن تتأهب
الطريق شاق وعسير"[١٣٨]

فرحلة فاوست سويلم رحلة نحو أدغال الذات ومعرفه المجهول منها لذا يطلب الحقيقة ويدخل سويلم مفيستو والعرافة وكأنه يستشرف القادم وليس الدوران حول الماضي ، إنه لا يأبه بالوجود قدر طرح أسئلة حول ماهية العدم ؛ وفي أثناء بحثه يدرك فاوست أن "أسمى الفضائل تحيط بالعقل لأنه يدرك الحقيقة"[١٣٩]

وفي موضع آخر في أثناء جدله مع مفيستو يتمسك بالعقل:

"أما أنا فلا أتخلى عن عقلي

---

137 أحمد سويلم : طبول فاوست ص ٧

138 أحمد سويلم : طبول فاوست ص ٨

139 السابق ص ١١

فعقلي فاعل"[١٤٠]

(...) "أريد استجلاء حقيقة العقل

إن كل حقيقة قابعة فيه"[١٤١]

، يذكرنا هذا بمقولة المعري :

أيها الغِر إن خُصصتَ بعقلٍ فاتبعه فكلُّ عقلٍ نبي[١٤٢]

ويمضي سويلم في إبراز مشكلة الصراع بين العقل والجمال والشهوة

"لو أني ملأت نفسي بكل ما أعرفه فأي مكان يبقى لكل ما أعرفه"[١٤٣]

ولا ينسى سويلم في إطار بحث فاوست عن نفسه أن يطرح الرؤى الصوفية وينقل مقولة النفري "كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة"[١٤٤]

وينهي مسرحيته بإنشاد أسماء الله الحسنى في جو صوفي ويعود فاوست دون أن يحقق بغيته معترفاً"الأحمق المسكين أنا"[١٤٥]

والجديد في هذا الطرح هو محاولة التخلص من تيمة فاوست جوته وبناء رؤية خاصة لفكرة فاوست تتلامس مع فاوست جوته لكنها لم تكنه ؛ ويبدو من عنوان المسرحية "طبول فاوست" وكأن الطبول إيذان بِمَقْدمه أو بشرى بوصوله إلى حقيقة كُنهه.

٣-١-٦ قصّة " الشيطان والوصايا السبع " للسيد ابراهيم:

في قصّة " الشيطان والوصايا السبع " للسيد ابراهيم يصور مملكة الشر وقد اجتمعت فى حيرة من أمرها حيث فشل الشيطان فشلا ذريعا " ويضرب رأسه العظيم وقرونه العجفاء فى الأرض المليئة بالصخور[١٤٦] ويصرخ فيه رئيس المجلس

---

140 أحمد سويلم : طبول فاوست ص ١٣

141 السابق

142 أبو العلاء المعري : اللزوميات ج٢ ص ٤٣٩

143 أحمد سويلم : طبول فاوست ص ٢٦

144 أحمد سويلم : طبول فاوست ص ٢٧ النفري :المواقف والمخاطبات ؛

145 أحمد سويلم : طبول فاوست ص ٢٨ 145

146 السيد ابراهيم : الشيطان والوصايا السبع " مجموعة قصصية " ص ١٩٩ ، القاهرة ١٩٨٠ .

بصوته الكريه : مدرسة الشر كلهاأصبحت عملا قديما لم تعد تساوى شيئا بجوار ما يأتى به الإنسان ولم نطور نحن شرورنا ، لقد تخلفنا [١٤٧] .

وبعد أن يتشاور المجلس فى هذه النكبة التى حلت عليهم يقترح كبير الحكماء على المجلس أن يُعطى الشيطان فرصة أخيرة فى أن يتعلم من الثعبان الأفلس دروسا فى الشر ويوافق المجلس ويبدأ الثعبان فى شرح حكمه وفلسفته ووصاياه للشيطان حتى يطوي البشر تحت لوائه ويلقنه الوصايا السبع ، تجنب القتل المباشر ، واثبت على الشر ، المرأة هى الشيطان ؛ كن منافقا ، لكنن مزيفا فى صورة براقة ملساء ، زيّن للشباب الشراب والمخدرات ، اشعل النار والحقد دائما .. إلخ ويوسع المجلس الثعبان شكرا وامتنانا على وصاياه العظيمة للشيطان الذي يبدأ من جديد على هدْي نصائحه .

ومن الواضح أن هذه القصة القصيرة تسير على نمط تقليدى لولا بدايتها كما يفشل الشيطان أخيراً أمام هذه التطورات فى التقنية الحديثة .

---

147 السابق ص ٢٠

٤-١ فاوست الجديد لباكثير:

وُلد باكثير في مدينة سورابايا بأندونيسيا عام ١٣١٨هـ=١٩٠٠م من أبوين ينتميان إلى حضرموت التي ذهب إليها في معية والده في ١٩١٠ ثم زار عدن والصومال وأثيوبيا ووصل الحجاز ؛ وفي عام ١٩٣٤ رحل إلى مصر حيث التحق بكلية الآداب وحصل على الليسانس في ١٩٣٩ كما حصل على الجنسية المصرية في ١٩٥٣ وظل بمصر حتى توفي بها في العاشر من نوفمبر ١٩٦٩ وكتب العديد من المسرحيات.[١٤٨]

قسم على أحمد باكثير مسرحيته "فاوست الجديد" إلى أربعة فصول :

ناقش في الفصل الأول حيرة فاوست بعد أن ترهبت محبوبته مرجريت وتطلعه نحو الانتحار ويحاول صديقه بارسيلز إثناءه عن الانتحار وينجح في ذلك لكن الشيطان يتدخل ليخرج فاوست من أزمته الروحية ، ويقنعه بعقد اتفاقٍ معه يُسلم فاوست بمقتضاه روحَه للشيطان الذي يحقق له كل مآربه.

ويأتي الفصل الثاني وقد أوفى كل منهما حقوق الآخر ؛ ففاوست ينغمس في الملذات التي يوفرها له الشيطان ؛ وتتواإلىاكتشافاته مما يولد حقد بارسيلز صديقه عليه ، ويمتلىء الفصل الثاني بالحوارات العقائدية والفكرية.

ويصحو فاوست في الفصل الثالث من شكوكه وحيرته لأنه رأى نور الله ، واستطاع من خلاله إدراك الحقيقة التي لم يستطع الشيطان أن يوفرها له ، ويدرك حقيقة مرجريت وحقيقة بارسيلز ، كل الأشياء تتخلق من جديد أمام عينيه.

فى الفصل الرابع يركز باكثير على تغير علاقة بارسيلز بصديقه القديم فاوست ويحرق فاوست كل الأبحاث التي كتبها بمساعدة الشيطان ويطعن بارسيلز فاوست بخنجر مسموم فيموت فاوست ومن قبله تموت مرجريت لينتحر بارسيلز وتنتهي المسرحية ، وسيأتي تفصيل ذلك عما قريب.

بدأ الفصل الأول بحيرة فاوست وتفكيره في الانتحار بعد تخلى محبوبته مرجريت عنه وانسلاكها في سلك الراهبات بالدير وبينما هو في يأسه يدخل عليه صديقه

---

148 لمزيد من المعلومات حول باكثير يُنظر: وثائق مهرجان باكثير ، ط. دار الحداثة ، بيروت ١٩٨٨

بارسيلز الذي لايأبه بالحياة ومشكلاتها وانما يعيش لحظته مهونا على صديقه فاوست الأمر فالنساء غيرها كثيرات ، وبعد حوار طويل يقتنع فاوست بعدم جدوى الانتحار ويخرج بارسيلز للقاء محبوبته إيمى تاركا فاوست وهمومه وهنا يظهر الشيطان لفاوست في صورة بارسيلز واعداً إياه بمقدرته على إخراجه من أزمته الروحية وإحضار مرجريت له " ولكن ذلك لن يتم إلا بعد عقد اتفاق بينهما يسلم فاوست بمقتضاه روحه للشيطان الذي سيحقق له كل مآربه ومطالبه . وعلى الرغم من أن العقد بين الشيطان وفاوست إلا أن باكثير يخطئ كثيرا عندما يتفق الطرفان في العقد على أن الله هو الشاهد وعندما يسأل فاوست الشيطان عن الشاهد يجيب الشيطان : الله جل جلاله

فاوست : الله

الشيطان : ألا ترضى به شهيدا .

فاوست : لكنه واحد أحد

الشيطان : أقوى من شهادة الألوف ، موافق

فاوست : موافق

الشيطان : " اللهم رب العزة ذا الجلال والإكرام .. أنت الشاهد لاشاهد غيرك ، وكفى بك شاهداً ووكيلا "

هذا التناقض يرجعه باكثير إلىإشكالية الشيطان ذاته فهو أول الموحدين لكنه لم يرض أن يسجد لأنه لا يسجد إلا لله .

ويوافق الشيطان على شروط فاوست ؛ أن يمنحه " المعرفة الشاملة والصحة الكاملة والقوة والشباب والغنى والشهرة "[١٤٩]

وفى موضع آخر يقسم الشيطان برب العزة[١٥٠] ، ويوقع الاتفاق بالدم من إصبع فاوست وأصابع الشيطان وذلك في إشارة قديمة إلىالأهداف في الأدب العربي قبل الإسلام وكيف أن القبائل كانت تغمس أصابعها في قنينة مملوءة دما كنوع من القسم ويُحضر الشيطان مرجريت لفاوست فيقضى منها وطرا .

وينهى باكثير الفصل الأول وما يزال الصراع داخل فاوست يشتد ليبدأ الفصل الثانى وواجنر خادم فاوست يتناجى مع محبوبته أولجا الخادمة ، ثم يتحدث بارسيلز عن

---

149 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٢٢

150 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٣٥

تفوق فاوست ، ولذا فإنه يود عقد إتفاق مع الشيطان أيضا لكن الشيطان لا يأبه به فهو في قبضته ، ويقيم بارسيلز علاقة آثمة مع مرجريت بينما يقيم فاوست علاقة آثمة مع إيمى محبوبة بارسيلز وتتوالى اكتشافات فاوست التي تذهل العالم وتتسابق الدولتان العُظميان من أجل الفوز به ، وينغمس فاوست في الملذات التي يوفرها له الشيطان ، لكن فاوست لا يقنع بذلك بل يود بعلومه أن ينقذ الناس ويحول الصحارى إلجنات خضراء بيد أن الشيطان يرفض ذلك .

ويدور حوار طويل بين فاوست والشيطان ينفث فيه فاوست عن شكوكه العقائدية ولكن الشيطان يأتي له بهيلينا إلهة الجمال عند الإغريق ولكن فاوست يرفض أن يراها فيصم أذنيه ويغمض عينيه فتختفى هلينيا ثم يصيح " الله .. الله .. الله .. الله قد رأيت نور الله " ويسدل الستار على الفصل الثانى ليبدأ الفصل الثالث وبارسيلز في حجرة استقبال في قصر فاوست وفى نجواه عن فاوست وما وصل إليه من مكانة عظيمة ويخرج له الشيطان الذي يدفعه نحو قتل فاوست ، ويدخل بارسيلز على فاوست ويتناقشان ؛ ويتضح من النقاش أن فاوست قد دخل النور إلىقلبه.

" بارسيلز : أنت تطلب المحال يا فاوست

فاوست : كيف يكون محالا وقد رأيته رأْي العين

بارسيلز : ألا يجوز أن يكون ما رأيته وهما في وهم

فاوست : كلا إني أشك في نفسي ولا أشك فيما رأيت "[١٥١]

وينتهي الفصل الثالث وقد استطاع فاوست أن يعرف مرجريت الحقيقية ويدرك خطأ توهماته في مرجريت الفاجرة التي لم تكن إلا بغيا استقدمها الشيطان في مسوح الراهبات ليلهي بها فاوست .

يبدأ الفصل الرابع في حجرة نوم فاوست ويبدو مريضا ، ويدور حوار مع إيمى التي ترهبنت وبارسيلز الذي يعرض عليها الزواج لكنه جاء متأخرا فترفض ذلك ؛ وتتناقل الأخبار تحرك جيشي الدولتين العظميين نحو الاستيلاء على اكتشافاته وأبحاثه ؛ ويعجل فاوست فيبعث بخادمه واجنر إليهما يخبرهما بإحراقه كل اكتشافاته وأبحاثه ؛ ويبدأ فاوست بالفعل في حرق كل أبحاثه أمام عين مرجريت

---

151 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٥٦

وكأنه يود أن يكفِّر عن ذنوبه ، ويأتي بارسيلز محاولا سرقة الأبحاث ويكتشف أن فاوست قد أحرقها فيعاجله بطعنة في صدره من خنجر مسموم كان قد أخفاه بين طيات ملابسه ، ويركض نحو الشيطان ليأخذ مكافأته نظير قتله فاوست لكن الشيطان يهزأ به قائلا " عندي من طرازك هذا مئات الملايين من البشر في كل جيل ، ولكنى أنتظر جيلا بعد جيل وأحقابا بعد أحقاب قبل أن أعثر بينهم على مثل فاوست "

بارسلسز : ماذا أصنع الآن ، إني خائف

الشيطان : اذهب فانتحر "[١٥٢]

ويحذر فاوست بارسيلز من الانتحار بينما يعانى الاحتصار لكن بارسيلز يلقي بنفسه من شرفة القصر فيموت منتحرا ، ويهَب فاوست قصره وممتلكاته لخادمه واجنر ومحبوبته الخادمة أولجا ، وبينما يحتضر فاوست يأتي له الشيطان مرة أخيرة محاولا إغواءه وفتنته ولكن يحسن ختام فاوست فيقاوم الشيطان قائلا " لقد كُشف الغطاء عنى فلا تحاول أن تخدعني "[١٥٣] وتطوف الملائكة من حوله وتصعد روحه نحو بارئها .

يوظف باكثير الجنس في مسرحيته فمرجريت المزيفة تقول لفاوست " في وسعك الآن أن تنتهك عِرضي وعرض أهلي وعرض الدير الذي أنتسب إليه "[١٥٤] وعندما يخاف فاوست الله تحاول ان تغريه " ترقص مرجريت رقصة مثيرة وهى تخلع ثيابها قطعة بعد قطعة وفاوست تارة يغض بصره عنها ، وتارة ينظر إليها بنهم "[١٥٥] وتنتصر الخطيئة " فيحتضنها فيندمجان في عناق عارم "[١٥٦]وفى حوار فاوست مع بارسيلز حول الشاعرة القبرصية سافو يقول

فاوست : " كنت أحفظ أشعارها الغرامية فاشتهيت أن أضمها بين ذراعي

بارسيلز : فكيف وجدتها ؟

فاوست : لا فرق بينها وبين أي راعية من قبرص"[١٥٧]

---

152 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٨٢

153 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٨٧

154 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٢٥

155 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٢٦

156 السابق

157 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٦٠

ثم يمضي موضحا وجهة نظره " الهالات تذوب عند الملامسة فلا يبقى منها شئ "[١٥٨]

والملاحظ هنا أن توظيف باكثير للجنس توظيف ذو دلالة لا يخلو من فنية دون إسفاف أو إثارة ؛ فالغواية من قديم ، وقد ركز باكثير على أن الشر والخير متلازمان بل يوجدان دوما في الشخص ذاته وهذا يخالف بعض المسرحيات الفاوستية التي أظهرت شخصيات الخير المطلق في مقابل شخصيات الشر المطلق.

ويبدو الالتزام الديني واضحاً في مسرحية باكثير وكان هذا ديدنه في مسرحياته بل "الأهم عنده هو الالتزام الفكري الذي ماتخلى عنه أبداً طوال مسيرته الأدبية" على حد قول الدكتور عصام بهي[١٥٩]

عبّر باكثير عن أزمات شخصياته النفسية والعقائدية فالصراع مع الشك في نفس فاوست الذي يخاف الله ، لكنه في اللحظة ذاتها يناجى نفسه " لعلى أخاف من وهم كاذب ...."[١٦٠]

ويقوى الصراع الداخلي ويزداد الشك لدى فاوست في الفصل الثاني في حواره مع الشيطان ويدافع الشيطان عن موقفه لكن فاوست يخاطب في النهاية الشيطان قائلا " إنك زدتني إيمانا بالله وما شهدت الحقيقة الكبرى إلا بعد ما عرفتك "[١٦١]وهذه الرؤية تطرح الكثير من التساؤلات كذلك ؛ فمنذ بداية انشقاق فاوست عن الشيطان وعقده نجد فاوست يجادل الشيطان حول الحقيقة[١٦٢]

وفى بقية الحوار أرى أن باكثير قد تقَنّع بقناع شخصية فاوست وعبر فاوست عما يكنه باكثير في صدره من تساؤلات محيرة ورؤى مستحيلة .كما ورد في الحوار التالي:

"الشيطان : لقد ثبت على كل حال أن الحقيقة غير موجودة

---

158 السابق

159 عصام بهي (دكتور): الشخصية الشريرة في الأدب المسرحي ص ٢٩ ، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦

الشيطان في ثلاث مسرحيات ، مجلة فصول (القاهرة) ١٩٨٣/٤

160 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٢٦

161 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٨٨

162 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٦٨

فاوست : بل هذا يثبت وجود الحقيقة ....."[١٦٣] ويطرح باكثير أسئلة كثيرة حول مفهوم الجنة والنار والعدل فأهل الجنة ليسوا سلبيين وإنما "...كلاّ ..تلك الصورة عن الجنة باطلة ، ليس فيها سأم ولا ملل فلابد أن يمارس أهلها نوعا من الكفاح ، إن يخل من التعب والمشقة والتوتر فليس يخلو من لذة التجدد والتطور "[١٦٤] كما حاول باكثير أن يفلسف وجود الشيطان[١٦٥] كما ناقش باكثير في مسرحيته فكرة الحكم ، فعندما يقترح عليه بارسيلز أن ينضم إلىإحدى الدولتين العظميين "فتكون لها الغلبة على الأخرى فتصبح أنت سيد العالم وحاكمه المطلق . فاوست : ويلك هذا ماكان يريده الشيطان ، والله لا أكون جبارا في الأرض استذل الأفراد والشعوب ولا صنما يعبدني الناس من دون الله"[١٦٦]

إنه يسعى إلىإيجاد الحاكم العادل .ولم يكن باكثير يهتم كثيراً بالمسرح قدر اهتمامه بفكره وقضيته.

---

163 السابق ص ٦٨

164 السابق ص ٧٨

165 السابق ص ٨٨

166 السابق ص ٧٧

٤-١-٢ آراء نقدية حول مسرحية فاوست الجديد لباكثير

أميل إلىأن أهم ما في هذه المسرحية هو محاولة باكثير تصويف فاوست وهنا يكمن الخلاف بين جوته وباكثير ، فالكرامات تتوالىفي نص باكثير ، ورؤيته نحو العلم الباطني (اللّدُني[١٦٧]) الذي لا يأتى من الكتب بل يأتي من الله ، ومناقشاته الطويلة حول موقف إبليس من آدم ومن الإنسان ينطلق من رؤية صوفية نجدها في كتابات الحلاّج والنّفّري وابن عربي وغيرهم من أئمة الصوفية .

ولعل الحوار التالي يوضح لنا مدى تأثر باكثير بأفكار بعض الصوفية:

" فاوست أنت لاتؤمن بالله البته .

الشيطان ليس حقا لاأومن به وأأسفاه ليس فى الوجود من يؤمن بالله أشد من ايمانى به ..

فاوست الآن أعترفت بانك كاذب فالشيطان هو أول الجاحدين الملحدين ..

الشيطان كنت أظنك من الخاصة لا من العامة ..

فاوست ماذا تعنى .

الشيطان أنا عند العامة أول الجاحدين الملحدين ولكنى عند الخاصة أول المؤمنين الموحدين"[١٦٨]

كذلك فإن محاولة باكثير التوفيق بين الرؤيتين الإسلامية والمسيحية لمفهوم الخير والشر تتفق مع البعد الصوفي .

تدور المسرحية في صراع جدلي بين الحقيقة المجردة والحقيقة المزيفة ؛ هذه الثنائية الجدلية تتجلى في صور أخرى ؛ فالرحمن ضد الشيطان ؛ والخير ضد الشر ؛ والوجود ضد العدم ؛ والنور ضد الظلام .. الخ ويمنح فاوست باكثير روحه للشيطان في سبيل الخلود والعلم والمتعة وتبقى سقطة كبيرة في العمل المسرحي لباكثير وهي أن فاوست باكثير لم يرجع إلىالله إلا عندما أخلّ الشيطان

---

167 مشتق من قوله تعالى"وعَلَّمْناهُ من لَدُنَّا عِلْمًا" الكهف/٦٥

168 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ١٧-١٨

بالعقد ولم يمنحه كل الحلول العلمية التي كان يهدف إلى اكتشافها[١٦٩] ، ومعنى ذلك أن فاوست لم يهتد إلى الله من ذاته بل حينما رفض إبليس منحه مفاتيح العلم .

تبدو النزعة الصوفية جلية في أجواء المسرحية حيث الرهبنة ، والكرامات وإبليس الموحّد ، وحقيقة العلم اللدنى وهى رؤية يجب أن تدرس في إطار موقف باكثير الصوفي ونزعته الفلسفية ،

يقول إقبال عن العلم الدنيوي :"إن هذا العلم هو الحجاب الأكبر ، يصنع الأصنام ويبيعها ويعبدها وهو في قيد الظواهر ، لم يستطع الخلاص من حدود الحس . وقد عثر في طريق الحياة ، ووضع حنجرة على حلقه ، إن فيه نارا ولكنها باردة كالشقائق "[١٧٠]

وقد أنهى جوته مسرحيته "فاوست" بمقولة الجوقة الصوفية :

"كلُّ فانٍ هو رمزٌ فحسب

وكل مالا يمكن الوصول إليه سيصير هنا حادثاً ، وما لا يمكن وصفه قد جرى هاهنا فعله ، إن الأنوثة الخالدة تجذبنا إلى أعلى"[١٧١] وتكون نهاية المسرحية بهذه الغنائية الصوفية.

إن الشيطان لديه القدرة على إغواء العلماء المؤمنين بينما يرفض أن ينضم له مَن هم منضمون – طبيعةً – له مثل صديق فاوست (بارسيلز)

وقد استطاع باكثير "أن يستغل التراث الديني الإسلامي – الذي وعاه وعياً كاملاً – في رسم هذه الشخصية الشيطانية "[١٧٢]

---

[169] يذكرنا هذا بما ورد في كتب التراث حول عبدٍ صالح سمع أن شجرة تُعبد من دون الله فأخذ سيفه ومضى لقطعها ، وفي الطريق يعترضه الشيطان محاولاً إثناءه عن ذلك ؛ لكن العبد الصالح يرفض هذا فيتشاجران فيتغلب الرجل الصالح على الشيطان وبعد مناقشات يعرض الشيطان على الرجل أن يترك الشجرة على أن يمنحه كل يوم ديناراً ذهبيا ؛ ويقبل الرجل هذا العرض تحت تأثير حب المال ويصحو الرجل في اليوم التالي ويجد على فراشه ديناراً ذهبيا ويتكرر الأمر في اليوم التالي أيضا وفي اليوم الثالث لا يجد ما وُعد به فيتناول فأسه ويمضي لقطع الشجرة فيعترضه الشيطان ويتصارعان فيهزمه الشيطان هذه المرة ويسأل الرجلُ الشيطانَ : لماذا تغلبت عليَّ هذه المرة فيقول له :عندما خرجتَ لوجه الله تغلبتَ عليَّ ، وعندما خرجتَ من أجل المال تغلبتُ عليك"

[١٧٠] عبد الوهاب عزام (دكتور) : إقبال ص ١٢٤ ط. دار العلم القاهرة ١٩٥٤ .

[171] جيته : فاوست ص ٥٧٧ ترجمة عبدالرحمن بدوي ، ط. دار المدى ، ، دمشق ١٩٩٨

[172] عصام بهي (دكتور): الشخصية الشريرة في الأدب المسرحي ص ١٦١، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٦

وقد حاول باكثير أن يستمد جذور رؤيته الإبداعية من خلال فهمه لدينه "وينحاز إلى الحل الإسلامي[١٧٣]" في معظم أعماله وإن كانت هنالك أخطاء تبدو على نحو ما سنرى.

نهاية المسرحية تبدو قريبة من النهايات الدرامية حيث القتلى ؛ فموت مرجريت وكأنه موت الفضيلة و انتحار بارسيلز وكأنه التكفير عن الخطأ ومقتل فاوست قمة التراجيديا في هذا العمل.
وفي خلال موت الشخصيات الثلاثة الرئيسية تبدأ ثلاث حيوات أخرى :
إيمى تترهبن وتدرك الحقيقة و واجنر يدرك اليقين ويتثبت من شرف أولجا التي تدرك حقيقة الأمور في النهاية ، ومقتل فاوست بداية لمعراجه الروحي.
وفي نهاية فاوست جوته يصيح قبيل موته ""توقفي [أيتها اللحظة] فأنتِ في غاية الجمال"[١٧٤]

من إبداع الشبيه ينفى باكثير وجود الخير والشر في النفس الإنسانية فمرجريت هي رمز الخير الدائم ، وبارسيلز رمز الشر الدائم ؛ وهي مواقف متناقضة في رسم باكثير شخصياته.

يوظف باكثير بعض آيات القرآن الكريم في تناص لفظي وكذلك بعض الأحاديث النبوية . وهذا يلقى الضوء على ثقافة باكثير الدينية من جهة وعلى عدم حرمة ذلك من جهة أخرى .

يبدو الخضر وموسى في المسرحية ولكن بشكل معكوس غير ما وصل إلينا في قصة التقاء موسى والخضر حيث يجمع بينهما فموسى يطلب العلم وفاوست يطلب العلم أيضاً، والخضر يطلب الخلود وفاوست يطلب الخلود ، وموسى يصبر على تصرفات الخضر غير المفهومة ثم يضيق بها ذرعا ، وهذا ما يحدث مع

---

173 عبدالحميد إبراهيم (دكتور): الرواية العربية والبحث عن جذور ص ٦٣ ط. جماعة التأصيل الأدبي والفكري ،د.ت

174 جيته : فاوست ص ٥٦٥ ترجمة عبدالرحمن بدوي ، ط. دار المدى ، ، دمشق ١٩٩٨

فاوست حيث يعقد اتفاقا بينه والشيطان ويصبر على مضض على شروط هذا العقد الذي ينقضه الطرفان في النهاية .

التصوير المسرحي عند باكثير (أربعة مقدمات للفصول الأربعة) ووصف للموت في نهاية المسرحية والألوان تصويرية توحي بتفهم باكثير لأدوات المسرح الحديث وكذلك عنايته بالأنوار وتقنيات المسرح ؛ بيد أنه لا يأبه كثيراً بتقنيات المسرح على حساب عرض أفكاره.

لا أدرى متى كُتبت هذه المسرحية تحديداً – وإن كانت هناك آراء تذهب إلىأنها قد كتبت في ١٩٦٧ على نحو ماذكرتُ آنفاً – والنص يوحي أنه كُتب بعد نيران الحرب العالمية الثانية حيث يحذر باكثير من الحروب التي ألقت بظلالها على الجو المسرحي مما حدا به أن يحذر من صلْي نارها . والآراء السياسية واضحة في المسرحية فباكثير يكتب بوعي وإحساس سياسى ونستطيع أن نرى ذلك جليا في النص .
وقد أُذيعت مسرحية باكثير في البرنامج الثاني بإذاعة القاهرة في ١٩٨٣/١/٣

صّور باكثير بعض المشاهد الجنسية في المسرحية لكن بأسلوب لا يهدف إلىالإثارة – كما أوضحتُ آنفاً– وإنما يهدف إلى نقل مشاهد من الإغواء وهو لا يهدف إلىإلقاء الغواية على المرأة وإنما يدافع عن المرأة دفاعاً كبيرا ، فنساء فاوست باكثير هن رمز الطهر فمرجريت في الدير رمز للصفاء والأخلاق وقوة العقيدة ؛ وحتى شبيهتها البغي هي إنسانة مغلوبة على أمرها لا تملك من نفسها شيئا ، وإيمى تترهبن بعد حياة ماجنة وبعد أن خدعها بارسيلز تتجه إلىالدير مبتعدة عن الحياة ؛ وأولجا رمز للشرف والإخلاص ، فالمرأة ليست مفتاح الغواية والشر بل هي المتدينة الواثقة من أمر الله ، إن فاوست لا يعرف الحقيقة إلا عندما يرفض الإغواء عندما يغمض عينيه عن هيلين أسطورة الجمال فيبصر نور الله ويعرف مرجريت الحقيقة التي جاءت تذكّره بالله .

هل قرأ باكثير النص الألماني ؟ أو أنه قرأه مترجما إلىاللغة الإنجليزية أعتقد أن الاحتمال الأخير أقوى حيث لم يثبت معرفة باكثير للغة الألمانية من جهة وأن هنالك أشياء أخرى تؤكد عدم إلمامه بها من جهة أخرى مثل واجنرWagner وفى الألمانية تنطق W فاءً أو قريبة من الفاء) بينما في الإنجليزية تنطق W = واوا ولذا صار واجنر ولكن أبقى على وحدة النقود بالمارك الألماني (١٠٠ مليون مارك) مما يوحي بأصل النص الألماني ولكنه مترجم إلىاللغة الإنجليزية .

يبدو النص المسرحي عند باكثير متفقا ومختلفا مع النص الألماني لجوته.

تبدو لغة باكثير لغة سهلة حيث لم يستخدم في كل المسرحية سوى لفظتين عاميتين من الممكن ردّهما إلىأصول فصحى بينما جاءت ألفاظه فصيحة وفى أسلوب بليغ لا يعتمد على التعقيد ولم يستخدم الشعر إلا في نهاية المسرحية والأبيات على وزن الرجز المجزوء مصحوبة بموسيقى وملائكة .

"فاوست : هذه الموسيقى العذبة . الموسيقى الملائكية .

(تسمع موسيقى كنائسية جميلة ولكن الزوجين لايسمعان شيئا مما يدور منذ الآن حتى النهاية المسرحية ، إلا الكلمات التي يقولها فاوست .)

(يصحب الموسيقى غناء جماعي فى لحن ديني بديع

بشراك بالتجلةِ وبالرضى والجنةِ
أيتها النفس التي بربها اطمأنتِ
عودي إليه ثانيهْ في غبطة وعافيهْ
مرضيَّة وراضيهْ مهديَّة وهاديهْ"[١٧٥]

وأسدل بها الستار على مسرحيته.

توحي المسرحية بمدى ثقافة باكثير حيث الأساطير الإغريقية واليونانية والرومانية وكذلك آلهات الجمال والشاعرات كالشاعرة الرومانية ومحاولته الجادة لفهم الثقافات المغايرة وتوظيفها مسرحيا مع الإلمام بها جوهرا وليس قشورا .

---

175 الأبيات على مجزوء الرجز ، ص ٩٠

بالمسرحية سقطات فنية حيث لم يقتنعنا باكثير بأن تحول فاوست كان اضطراريا وانما لموقف عارض وهو رهبنة مارجريت وهذا الموقف ليس مقنعاً ؛ فبسبب امرأة ترهبنت يبيع روحه للشيطان وهو بذلك يبحث عن سبب مقنع للمتلقي لكنه أتى بسبب واهٍ غير مقنع ، كذلك فان مرجريت الحقيقية برفضها الإقامة في القصر الممنوح من الشيطان كانت تمثل العدل وتوخى الحلال بينما نجد إن فاوست وهو يحتضر يوصي بالقصر لأولجا وخادمه واجنر ، ويقيم به فاوست بعد نقضه الاتفاق مع الشيطان وإن كان قد أفنى ما حصله من علم بحرقه ؛ وما جمعه من مال بتركه وهجره لكنه ظل بالقصر حتى النهاية دون أ يقنع المتلقي بجدوى ذلك .

وتبقى بالنص سقطات فنية منها أن الشيطان يفي بوعوده وأن معرفة الله تتم من خلال العلم لكن بعض العلم يأتي عن طريق الشيطان !

كذلك فالشخصيات عند باكثير لا تتطور على حين نرى في مسرحية فاوست جوته ""اختلاف وعي الشخصيات لذاتها ونبرتها ودرجة تأملها وخطاياها وتمرسها بمغانمها وعاهاتها"[١٧٦]

أورد باكثير كثيراً من آرائه تجاه قضايا دينية وعلى سبيل المثال :

"الشيطان : أهل النعيم لا يكافحون البتة فهم سلبيون على الأرائك متكئون.

فاوست : كلا تلك صورة عن الجنة باطلة ، فليس فيها ملل فلا بد أن يمارس ا÷لهال نوعاً من الكفاح"[١٧٧]

وهي آراء في حاجة إلى مناقشة وتوقف حيالها.

حاول باكثير التوفيق بين الرؤية الإسلامية والمسيحية لقضايا عديدة مثل الخير والشر ، والوجود والعدم وحاول قدر استطاعته الابتعاد عن المحاذير المختلف والمتجادل حولها وهذا يفسر لنا رؤية باكثير التوفيقية للاختلاف لكنها لاتقنع المتلقي حيث يترك عباءة المسرحي كى يتدثر بعباءة رجل الدين في المسرحية .

بين بداية المسرحية ونهايتها تشابه واختلاف .

---

176 حمد فرحات : ما عرف يوما استراحة الفكر والشعر ، مقال بصحيفة الخليج ٢٠٠/٩/٢٥

177 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص٨٧

البدايـــة	النهـايـــة
فاوست يفكر في الانتحار	فاوست يموت مقتولا
بارسيلز يحدره من الإنتحار	بارسيلز يقتلـه
فاوست / الحيرة	فاوست / الاطمئنان واليقين
فاوست / الملحد	فاوست / المؤمن
عبثية الحيـاة	لاعبثية الحيـاة
انتصـار الشـيطان عليـه فـي لحظـــــــــة ضـــــــــعفه	هزيمة الشيطان / طواف الملائكة حوله
. الشياطين حوله	المكان : قصر
المكان : حجرة	

وهذا التناقض بين البداية والنهاية يوحي لنا بمدى ما بينهما من صراع حتى وصل فاوست إلياليقين .

تبدو المسرحية سائرة في جو الجبر حيث تسليم فاوست بمصيره الذي كان يعلمه ويتنبأ به من قبل وهو أن بارسيلز سيقتله مما جعله يوفد واجنر خادمه إلىالدولتين الكبرتين معلماً إياهما بحرقه كل أبحاثه واكتشافاته وبموته ايضا ، وعندما يبصر بارسيلز قادما نحوه يرحب به ولا يدافع عن نفسه في استسلام قدري غريب وغير مقنع على الإطلاق !

٤-١-٣ "فاوست الجديد" لعلي أحمد باكثير ؛ هل يعد محاولة نحو تصويف فاوست ؟

أود في هذا البحث أن أطرح افتراضية أن باكثير في فاوست الجديد اعتمد اعتماداً كبيراً على التصوف الإسلامي وعلى خلود الولي كما في المفهوم الصوفي إضافة إلى أنه وظف الخضر في فاوست كرمز للخلود فالخضر وصل إلىدرجة عالية من العلم لم يصل إليها موسى الرسول وأنه شرب من ماء الحياة لذا فهو دائم الشباب وهذا ما كان يبحث عنه فاوست إذ أن قلق فاوست يبدأ من طموحه في أن يصل إلىعلم لاينتهي وشباب لا يشيخ .من هنا فإن باكثير لجأ إلىالمنبع الصوفي كي يُخرج فاوست من عهده مع الشيطان بقوة المدد الذي جاء في هيئة النور!

٤-١-٣-١ فاوست متصوفا :

نستطيع أن نقرأ مسرحية فاوست الجديد من منطلق صوفي فإن مقامات أهل التصوف كالحيرة نجدها ممثلة في حيرة فاوست بعد أن باع نفسه للشيطان لكنه لايصل بعقده إلكل ما يصبو إليه ، ويخلط باكثير في فاوست بين الفلسفة وعلم الكلام والمنطق وتبدو الرؤى الفلسفية مقلقة في التعبير عن الوجود والعدم والجنة والنار والحياة والموت ، وعن جدوى الحياة ، وجدوى العلم .

هذه الحيرة التي تصاحب فاوست وجعلته يعقد الاتفاق هي الحيرة ذاتها التي صاحبته بعد الاتفاق وبعد تفكير عميق يقتنع بأن مفهوم العلم البشرى مختلف عن العلم اللدنى الذي يطلبة من لوسيزر فلا يجده لأنه ليس في استطاعته وفى غمرة انهماكه في المعاصي يصل فاوست إلرؤية الله ، وهذا هو حال معظم أقطاب التصوف الذي ينتقلون من حالة الضياع والفوضى والمعصية إلحالة الطاعة عن طريق هاتف خارجي أو داخلى .

ثم إنني عندما أحلل نهاية كل من فاوست ومرجريت فإن الذهن يذهب إلنهاية أولياء الله من الصوفيين الذين يتمنون الموت ويحددون موعده متنبئين بمقدمه وهم في سعادة غامرة لرؤية الله تعالى فمرجريت تتنبأ بموتها وتتمناه وعندما يعرف فاوست أنه ميت عما قريب فلا يدفع الموت بل يرحب به وما يصاحبه من أنوار خضراء وهى أنوار في حكايات المتصوفين في حالة احتضارهم وموتهم ثم الأصوات الملائكية حيث الموسيقى والبشري .

ومن قبل رأينا تركيز باكثير على العبد الرباني الذي يقول للشيء كن فيكون وعندما همّ بالمعصية مع مرجريت خاف الله .

ثم إن باكثير يوظف قصة موسى والخضر في مسرحيته بما عليها من حواش صوفية ؛ فصورة الخضر الشاب الخالد هي الصورة المثلى التي يطمح إليها فاوست

" أريد أن أرجع إلسن العشرين

الشيطان : موافق"[١٧٨]

لكن تبقى إشكاليتان : الأولى : وقوع فاوست في الخطيئة بفض بكارة مرجريت بعد توبته فعلا يفعل ذلك بحب معرفته للتأكد من صدق مرجريت عندما ذكرت له أنها ليست مرجريت البغى التى يعرفها واستقدمها له الشيطان لكن هذا ليس بدعة فعند المتصوفة عندما سئل أحدهم : هل يزنى الولي قال : نعم ؛ ثم تلا قوله تعإلى" وكان أمر الله قدراً مقدورا"

الإشكالية الأخرى : يرى فاوست باكثير أن العلم ضد البشرية وهى رؤية خاطئة فليس هنالك من تناقض وربما كان مبنياً على الاكتشافات التي حدثت آنذاك والصراع بين المعسكرين الشرقي والغربي في ذلك الوقت وتسارعهم في العلم المؤدي إلىهلاك البشرية . ويتناقض ذلك مع موقف فاوست في الفصل الثالث :" أن أعرف (الله) على طريق العلم ليتسنى للناس جميعا أن يعرفوه فيعيشوا في حب وسلام"[١٧٩]

وفى بحث فاوست عن الحقيقة الكبرى يتشابه مع بحث الصوفيين عن اسم الله الأعظم .

" فاوست " لن يهدأ لي بال حتى يكون في مستطاع كل إنسان أن يرى الحقيقة الكبرى في كل حي "[١٨٠]

وفى موضع آخر :

" بارسيلز : أليس في قدرة الرحمن لو أراد إن يكشف لك هذا السر العلمي في لمحة خاطفة

فاوست : بلى لاريب في ذلك .

بارسيلز : كما كشف لك وجهه في لمحة خاطفة

فاوست : أجل"[١٨١]

---

178 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٢٣

179 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٥٧

180 السابق ص ٥٦

181 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٥٨-٥٩

وفى دعاء فاوست : " يا إلهي يارب . إني لأخجل أن أدعوك ، ولكن إلمن أتوسل إلا إليك ، اللهم يئس الطبيب فامنحها شفاء من عندك ، فإن لم يكن بقي من عمرها شئ فامنحها ماتبقى من عمري واقبضنى إليك"[١٨٢]

ونجد إن هذا الدعاء يذكرنا بأدعية الصوفيين لاسيما في نهاية حياتهم عندما يتمنون الموت " نهاية لهم من كل شر " .

وعندما تتمنى مرجريت الموت في نهاية المسرحية وتتنبأ به يتحقق لها مثلما أرادت ؛ وتوصي إيمى "لا تنسي أن تحملي جثماني إلى أهلي ليضعوني بجوار أبى ، .... ثم تموت"[١٨٣]وهذا شبيه بموت الأولياء كما ذكرت آنفاً.وهذا يتحقق عند موت فاوست أيضاً إذ أدرك أنه ميت على يد بارسيلز فبعث واجنر إلىالمعسكرين يخبرهم بموته وهو ما يزال حيا ويتحقق ما تنبأ به .

٥- ١ <u>فاوست : النص المهيمن ؛ لماذا ؟ :</u>

يعد نص فاوست من النصوص المسيطرة ؛ انه النص الذي يستهوى الكتّاب ومن ثمّ يستهوى القراء ، وأظن أن هذا النص قد أخذ ألباب الكتَّاب وجعلهم يسيرون تحت هيمنته ، قليلة هذه النصوص التى تسيطر على الأدباء ، ولكن عندما ننظر إلىهذا النص نجد أن حدوده لم تتوقف عند الأدباء الألمان أو الأوربيين بل تعدت حدود أوربا بحيث وجدنا سعة انتشار هذا النص ومعنى ذلك أن في هذا النص من الأفكار ما يجعله قادرا على تخطي الحدود والحواجز اللغوية والجغرافية ولذا فإنني أري أن عوامل هيمنة هذا النص تعود إلى:

<u>أولا :</u> إن نص فاوست يعتمد على الصراع بين الخير والشر فى ذات الانسان بين المتع الّلا محدودة والمتع المحدودة ؛ أو بمعنى أدق هو التعبير المكتوب عن انشطار الذات ، أو البوح عن معاناة الانسان فى الحياة بين المشروع والممنوع ، بين لحظات القوة والضعف ، بين المرح والملل هذه "البيْنية " – إنْ صح التعبير – نهاية ما يؤرق الإنسان ، نهاية لحظة التأرجح بين العلم المحدود والنهم العلمي اللا محدود ، بين تطلع الإنسان للوصول إلى نهاية العلم بيد أنه يفقد الطريق فلا يهتدي ولذا فانه يقع تحت براثن من يوهمه بامتلاك كنوز العلم .

---

182 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٧٤

183 علي أحمد باكثير : فاوست الجديد (مخطوط) ص ٧٦

ثانيا : يمتلك نص فاوست – إضافة إلىما سبق – تحقيق حلم الإنسان الأزلي فى الخلود ، فى الشباب ، في ارتداد الزمن وتوقفه ، ألم يقل جوته "توقفي [أيتها اللحظة] فأنتِ في غاية الجمال"[١٨٤] ففاوست باحث عن الشباب أى – عن توقف الزمن عند لحظة معينة – من حياة الانسان ، بحيث يسعى الانسان إلىتخليد هذه اللحظة وتوقيفها فلاتتغير مع تغير الليالي ، وكأن الإنسان في صراع أزلي ضد الزمن وهذا الصراع لا يتوقف عند فرد معين في بيئة ما أو في زمن ما بل هو الصراع الدائم في كل وقت ومكان ولذا فإن في نص فاوست ما يغوي الإنسان في تحقيق ما يصبو إليه حلماً في نص إذا كان من المستحيل تحقيق ما يرنو إليه في الحقيقة . إنه لعب بخيال الإنسان المحدود ولذا فلماذا لا يحقق له المستحيل في إطار نصي ، ولا يحقق الخلود فحسب بل يحقق المعرفة والقوة والسيطرة والشباب وكأنه دأب الانسان الدائم فى الخروج من واقعه حتى لو رأينا عند بعض من عالجوا هذا النص من يرضى بالتغير ويعيش فيه سعيدا لكنه سرعان ما يتضح له انه قد وقع في فخ وهمي فيثور ويؤوب تائبا أو يظل في غيه مكتفيا بما يحقق له من أحلام ؛ إننا نجد أن إرادة الإنسان في هذا النص – بشكل عام – إرادة عدمية ، فهو يختار الشيطان – بمحض إرادته في لحظة ضعف ؛ لكن هذه اإرادة تقوى وتتحول إلى إرادة إيجابية للتخلص من الشيطان وبراثينه.أي أن النص يقنع المتلقي بالجبر لكن سرعان ما يقنعه بمحاولة الإنسان فى التخلص من الشيطان أى الإختيار ، وقد تكون محاولة فاشلة ويقبع الانسان (فاوست) فى مرحلة الجبر الأزلي وقد يُكتب لمحاولته – الخلاص – النجاح وعندها يحمل النص الإنسان إلى مرحلة الاختيار ، ومن هنا فإن النص يدور في إشكالية الجبر والاختيار.

ثالثا : تجرّد نص فاوست من أَسْر الأمكنة والأزمنة ولذا فقد وجد فيه الأدباء – باختلاف أزمنتهم وأمكنتهم – فراغا ومتسعا للتعبير عن رؤاهم التى لاتُحَد .

---

[184] جيته : فاوست ص ٥٦٥ ترجمة عبدالرحمن بدوي ، ط. دار المدى ، ، دمشق ١٩٩٨

رابعا : ربما كان اشتغال أدباء كبار مثل Goethe جوته ومارلو وتوماس مان وهاينه وغيرهم ما أغرى بقية الأدباء بمحاكاتهم أو محاولة التفوق عليهم . ولا نغفل سيطرة الأدب الغربي على آداب الشعوب الأخرى .

خامسا : قد تعود هيمنة نص فاوست إلى سعة إمكانية تحميله رؤى معاصرة فاتخذه بعض الأدباء قناعا للتعبير عن ذواتهم – أو عن أوطانهم ومايعتريها من صراع على نحو ما رأينا عند محمد فريد أبوحديد مثلا .

سادسا : حياد نص فاوست تجاه الجنس البشرى فالرجل والمرأة هما مزيج من الخير والشر ، فالمرأة الطاهرة موجودة وكذلك المرأة الفاجرة وكلا المرأتين :المرأة البتول والمرأة المومس تلعبان دورين أساسيين في النص ، أي أن النص لايحمل حقدا تجاه المرأة أوتجاه الرجل ، كما انه يعلى الفضيلة ولكن يقف ضد فكرة الإنسان الكامل أو المثالي فالإنسان لديه عادى يقع في الخطأ بل في الخطيئة ويستمر أو يرعوي لكنه بشر عادى وربما قرّب هذا التناول شخصيات النص من المتلقي – إذ ابصر الشخصيات شخصيات عادية تمثله أو يستطيع أن يكونها فوجد في النص ضالته في التحدث عنه والتعبير عنه وكأن المتلقي ألفى نفسه مشاركا – في صنع النص – لا متلقيا سلبيا .
إن سر نص فاوست هو تجدده وَفق رؤى كاتبه ، إنه أشبه بوعاء قابل أن يُملأ بأي مشروب يوده الشارب ، ومن هنا فإن هذا منحه تجاوز نص فاوست جوته بحيث وَجَدَت فيه كل أمة ضالتها ووجد فيه كل أديب ما يسع رؤيته وفلسفته تجاه الكون والحياة ، هذه القابلية جعلته نصاً لا يأبه بالحدود بل يتجاوزها ولايعيش في بيئة إلا ليعبر عنها تاركاً إياها باحثاً عن بيئة أخرى وأديب جديد يُلبسه جلباباً جديدا.
لذا فإن الفاوستية تحمل في طياتها ما يجعلها نصا مهيمنا قادرا على البقاء والتجدد .

الخضر

في التراث العالمي

١ – تمهيد: المدد:

١–١ مجال البحث وهدفه :

كان أبي – رحمه الله تعالى – إذا ذُكِر الخضر عليه السلام اعتدل في جلسته ؛ وقال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فسألته عندما كنت صغيرا : عمن ترد السلام؟ فقال أبي:على الخضر فما ذُكر في مكان إلا وكان حاضرا به.

يعد الخضر[١٨٥] – وهذا لقبه – وكنيته أبوالعباس من الشخصيات التي اختلط فيها الديني المقدَّس بالأسطوري الشعبي وقد أدى هذا الخلط إلى ديمومة حضور هذه الشخصية في التراث الديني والأدبي والنقدي وفي الفُلكلور الإنساني ولم يكن هذا قاصراً على التراث العربي بل تخطاه نحو آداب الشعوب الإسلامية جمعاء ؛ في التراث الإندونيسي ؛ وفي الفارسي ؛وفي التركي بل في التراث الآسيوي نلمح –Al Khizr أيضا؛ فعند مسلمي الهند وغير المسلمين أيضا "صار مقدساً عند صيادي الهند ، فغدا مرشد البحارة ودليلهم ، ومايزال يُذكر اسمه حتى الآن من قبل البحارة في كل مرة يبحرون بقواربهم في اتجاه الشرق الأوسط والهند الشمالي"[١٨٦] فقد أضحى الخضر مقدسا لدى البحارة في الهند وأضحى "راعي الملاحة في الهند حيث يقال هناك إن "رجا كيدار" هو الحارس ضد أخطار الملاحة"[١٨٧] أي صار رمزا للحماية لدي الهنود وغيرهم في أصقاع المعمورة ؛ كما يُسَمَّى في سريلانكا

---

[١٨٥] ذكر الألوسي أن الجمهور ينطقه "الخَضِر بفتح الخاء وقد تُكسر ، وكسر الضاد وقد تُسكن" الألوسي،أبوالفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ت ١٢٧٠هـ:روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج١٥ص٣١٨ ؛ وأوضح الفيروزأبادي أنه"يقال فيه الخِضر بالكسر أيضا" الفيروزأبادي ،مجدالدين محمد ت ٨١٧هـ:بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ج٢ ص ٥٤٨–٥٤٩ ط. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٥ ؛ بينما ذكر سليمان الجمل أن "الخضر بالتثليث" سليمان الجمل :الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ج٣ ص٣٣ ط.دار الكتب العربية ، القاهرة ، د.ت.؛ وقد نقل ابن القاري أن ا"لخضر بفتح الخاء وكسر الضاد ، ويجوز إسكان الضاد وفتحها" الهروي، الملا علي بن سلطان محمد القاري ت ١٠١٤هـ: الحذر في أمر الخضر ص ٧٤كما أورد ابن الأنباري أنه يجوز في العربية "الخِضْر كما يقال كَبِدٌ وكِبْد ؛ قال الجوهري . وهو أفصح"ابن منظور :لسان العرب ج ٤ ص٢٤٧–٢٤٨ ط.دار صادر ،بيروت.كما أني وجدت كثيرا من الأبيات الشعرية التي ورد فيها اسم الخضر لا يستقيم وزنها مالم تُنطق بتسكين الضاد.

[186] **Omar, Irfan;*Khidr in the Islamic Tradition*, The Muslim World,Vol.LXXXIII, No.3-4 July-October,1993,P.291**

[187] **A. Berriedale Keith,The Mythology of All Races, Vol.VI,p.235**

Kilur, أوKalir أو Halir, كيلُر، كالير أو كالير، أي كلّ المشتقّات من خضر العربيّ وأيضًاHayatun Nabi "النبي الحي" لقد أضحى "الخضر مثل الهواء . عندما يفكّر أحد فيه، فإنه هناك"[١٨٨] وفي التراث الفارسي نجد الخضر أو خِيسير متواترا، ولم يقتصر وجود الخضر عند المسلمين فقط بل تجاوزهم إلى الملل الأخرى لنجده في التراث اليهودي الذي يراه الحَبر يهوشع أو يوشع او إيليا؛ والتراث المسيحي الذي يسميه القديس جورج أو جورجيوس أو ماري جرجس؛ وكأنه إرث يرغب الجميع في ملكيته ؛ كما أن حضوره لم يكن محدوداً بكتب التراث بل تعايشت هذه الشخصية مع العصور لتتجاوزها وتظل حية لدى بعض البيئات والأمم حتى يومنا هذا ، وما مزارات الخضر المنتشرة في سوريا ولبنان وتركيا وغيرها من البلدان إلا صورة من حضور الخضر في المعتقدات الدينية ومحاولة تجسيده في المزارات والإبداع.

فالباحث عن عين الحياة ، والشارب منها يمُنح الخلود ، ويتحول إلى نقطة التقاء بين الأديان مع اختلاف حول اسمه وعصوره ؛ وشبه إجماع على مواصفاته وأدواره؛ وهذا ما جعل توظيفه في الأدب والنقد معينا لا ينضب ورؤى إبداعية لاتُحد ، قد يتغير اسمه وشكله وأوصافه تبعا للبيئات والأزمنة لكن يظل نقطة إبداع ومحور خيال لم يجد من النقدة من يحاول فكّ طلاسمه في إطار الإبداع والنقد.

فالتراث الشفهي يوظّف الخضر ، ويتمثله ويجسّده ويتوسَّل به ويراه قائداً للأولياء ، يقلدهم الولاية ، يجتمع بهم ؛ وفي معظم الملاحم والسِّيَر الشعبية يطل الخضر مُنْجداً أبطالها في لحظات الضيق والمخاطر .

ولم تقف الآداب العالمية بمعزل عن الخضر فوظفه الأدباء في شعرهم ونثرهم ، وهذا مانراه في الأدب التركي والفارسي والألماني والهندي وفي أدبنا العربي على نحو ما سأوضحه لاحقاً.

وقد توقف النقد الأدبي أمام الخضر وحاول النقاد أن يسبروا أغوار هذه الشخصية، وأن ينزعوا عنها ما أحاط بها من غموض وتداخل ، فالخضر في التراث الأدبي تحوَّل إلى معين لقصائد الشعراء يوظفونه في رؤاهم ، فغدا رمز الخلود ، وتلامست شخصيات أخرى مع الخضر في التراث النقدي ، فجلجامش الباحث عن الخلود

---

[188] Asiff ,Hussein :"Kataragama - The land of Khidr", The Sunday Observer (Colombo) of August 31, 2003

يتحول إلى أسطورة تنزاح رؤاها في التراث الإنساني لتتجاوز حدود الشخصية لمناقشة قضايا الإنسان عبر عصور الزمن المختلفة؛ فيتماهى جلجامش في شخصية الخضر ، ويتشابه تموز مع الخضر، وفي عودة أوزيريس الذي "ساعده ملك الخلود" وجعله Thot ينتصر على أعدائه كما ورد في كتاب الموتى ، فتجمع زوجه إيزيس أشلاء جسده الممزق فيعود حياً مرة أخرى؛ ونشاهد التشابه بين الخضر و"نفركاه بتاح" ابن الفرعون الباحث عن الكتاب السحري الذي كتبه الإله توت "ومن يتمكن من الحصول على هذا الكتاب ويقرأ أول حكمة فيه يستطيع أن يسلط سحره على السماء والأرض ...وأما من يتمكن من قراءة حكمته الثانية فإنه يستطيع أن يعود إلى الحياة الدنيا بعد مماته إلا أنه لا يستطيع الإقامة فيها"[١٨٩]، ويترك نفركاه بتاح امرأته وابنه الوحيد بمدينة قفط باحثا عن الخلود فيدركه ؛ نرى ظلال الخضر وملامحه في ديونيسوس – زاغروس في التراث اليوناني ؛ وفي الإمام الغائب نلمح صفات الخضر أيضاً؛ وتتعدد الأسماء لكن للخلود صيغته الوحيدة.

نرى الخلط بين الخضر من جهة وبين إلياس من جهة أخري؛ وبينه وبينGeorge جورجيوس[١٩٠] المقدس الذي ورد ذكره عند ابن الأثير والثعلبي وغيرهما ..كما نرى امتداد الخضر في الربوع الإسلامية وغيرها ؛ ترى ما الذي منح هذه الشخصية التي تلامس فيها الواقعي التاريخي بالمتخيل البقاءَ والتجدد في الذاكرة الإنسانية؟ هل يعود ذلك إلى تداخل الثقافات؟ هذا الخلط جعل حسني حداد يرى أن "بعل – هدد الأوغاريتي يتحول إلى نبي في اليهودية [إيليا] ،وإلى مقدس في المسيحية[جورجيوس] ،وإلى وليّ في الإسلام[الخضر]"[١٩١]

وفي نص عثرت عليه لأبي منصور الثعالبي في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ينبئ عن مدى اشتداد النقاش حول الخضر ؛"قال القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز: أما الخضر فالناس في أمره فريقان: منكر ومكذب، ومقر

---

[١٨٩] إبراهيم، د.نبيلة :أشكال التعبير في الأدب الشعبي ص ١١٨– ١٢٦ط.دار المعارف ، ١٩٨١ والقصة كاملة في:
Tetzner,Lisa:Maerchen, ,Frankfurt 1958,S. 16-27

[١٩٠] القديس جورجيوس "أكثر القديسين شهرة بين جموع المسيحيين ، وقد ذاع صيته وانتشر مذهبه في جميع أصقاع أوربة ، وهذا واضح من خلال شيوع استخدام اسم جورج وإطلاقه على كثير من الكنائس والأديرة والأماكن المكرسة للعبادة والتقديس ، وفي القرن الثاني عشر جعل الصليبيون منه رمزا للفروسية والبسالة(...) فعاش في فلسطين وأنقذ ابنة لملك مسيحي من براثن التنين" حداد، د.حسني : أساطير الخصب القديمة والمعتقدات الشعبية في سورية ص٣٧ ط.الكندي ، حمص ١٩٨٩

[١٩١] حداد، د.حسني : أساطير الخصب القديمة والمعتقدات الشعبية في سورية ص٨٠

ومصدق. ومعظم أهل الشرائع والنبوات يثبت عينه وإن اختلف في نعته، وإنما ينكره خواص من متكلمي الإسلام ومتخصصي الملل؛ فأما عوام ملتنا والسواد الأعظم من أهل الكتابين والمجوس، فهم على افتراق المذاهب بهم في اسمه وصفته، وفي زمانه ومدته، مطبقون على إثبات عبدٍ لله صالحٍ، حي على الدهر، ممدودٍ له في الأجل، جوالٍ في الأرض، مغيب الشخص عن الأبصار.وربما تجاوز جهال هذه الأمم إلى تثبيت أمورٍ هي أبعد من العقول، وأذهب في طريق الاستحالة"[١٩٢]

ولهذا النص أهميتان فهو يلقي الضوء على اشتداد الحوار بل الخلاف بين المصدقين والمنكرين لوجود الخضر في عصر الثعالبي ، ومن جهة أخرى يذكر الثعالبي أن عوام المسلمين و أهل الكتابين والمجوس يتفقون على وجود عبد صالح بينما يختلفون على اسمه وصفاته.

ولعل ما يؤكد مقولة الثعالبي ما كتبه أسيف حسين في مقاله المعنون بـ" كاتارجاما أرض الخضر" يقول فيه"إن القليل من يعرف أن كاتاراجاما، مركز طائفة سكاندا بين الهندوسيّين و البوذيّين، لها مكانة في القلوب المسلمة أيضًا .إذ لحقت القدسيّة بالمكان من قبل المسلمين المحلّيّين حول سكاندا، لكنّ كائنا غامضا يدعى الخضر أو الأخضر الذي يُعْتَقَد وجوده ومأواه هنا رُبِطَ مع خالير ماكام في الحيّ المسلم كاتاراجاما غير البعيد عن مينيك جانجا بالطّبع، بل نجد من يعتقدون أنّه الخضر هو الذي تنسب له مسمىكاتاراجاما"[١٩٣]

لقد طغى الخضر في الشعر العربي والعالمي ، فقد جمعتُ مئات الأبيات التي تناول أصحابها الخضر مستشهدين به معلما وهاديا أو مسقطين عليه رؤى معاصرة في توظيف إبداعي متجدد ؛ نراه عند مجنون ليلى والمتنبي والمعري وابن حجر العسقلاني وابن نباتة المصري والسراج الوراق والشاب الظريف وبهاء زهير

---

[١٩٢] ما يدل على أن المناقشات حول الخضر بدت مبكرا ماورد في مسند أحمد "حدثنا محمد بن عباد المكي حدثنا عبد الله بن ميمون القداح حدثنا جعفر بن محمد الصادق عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال ماراني رجل من بني فزارة في الرجل الذي اتبعه موسى عليه السلام فقلت هو الخضر عليه السلام وقال الفزاري هو رجل آخر فمر بنا أبي بن كعب قال ابن عباس فدعوته فسألته سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الذي تبعه موسى عليه السلام قال نعم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بينما موسى جالس في ملإ من بني إسرائيل فقال له رجل هل أحد أعلم بالله تبارك وتعالى منك قال ما أرى فأوحى الله إليه بلى عبدي الخضر....الخ
والفعل "ماراني"يدل على شدة النقاش والجدل الذي كان بين الناس حول شخصية العبد الصالح ، وانشغال الناس العاديين بهذا الأمر "رجل من بني فزارة" لم يسمه ابن عباس وهذا يدل على شيوع الجدل واحتداده حول الخضر بين عامة الناس.

[193] Asiff ,Hussein :"Kataragama - The land of Khidr", The Sunday Observer (Colombo) of August 31, 2003

والبوصيري و صفي الدين الحلي وخضر القزويني ومحمود سامي البارودي وغيرهم ؛ كما ألفيته حاضرا عند الكتّاب كأبي حيان التوحيدي[١٩٤] وأبي منصور الثعالبي والجاحظ وابن الجوزي وابن الأثير وأبي حاتم السجستاني والعماد الأصفهاني والميداني والنويري وابن خلكان وغيرهم ، وقد رآه إخوان الصفا في رسائلهم "عبدالله مولانا الخضر"وأنه "عليه السلام صاحب سر غَيب وكتمان"

لقد شغل الناس يقظة ومناما ، فالناس يتوقون شوقا لرؤيته ؛ ولكثرة من يحلم بمشاهدته ولو مناما فقد فسر ابن سيرين أنه "من رأى الخضر عليه السلام، دل على ظهور الخصب والسعة بعد الجدوبة، والأمن بعد الخوف" كما فسر ابن شاهين في كتابه الإشارات في علم العبارات أن "من رأى الخضر فإنه يسافر سفراً بعيداً بالسعة والأمان، وقيل من رأى الخضر فإنه يحج ويكون عمره طويلاً"[١٩٥]

وقد تتبعتُ هذا الحضور اللافت في الشعر والمعاجم والقصة والرواية والأدب الشعبي؛كما ألقى الخضر بظلاله على الفن فكم من اللوحات الفنية صورت الخضر ولقاءاته عبر مدارس الفن المختلفة[١٩٦] ، وقد صور الرسام الشعبي "النبيَّ الخضر على هيئة شيخ جليل تشع علامات الإيمان والتقوى من عينيه ووجهه ، في يده مسبحة ، وحوله نوق ، وزرع أخضر"[١٩٧]، وكم من المقامات والمزارات أقيمت شواهد على مروره هنا أو هناك وكم من المدن والقرى والجُزر سميت باسمه لرؤيته مارا بها أو مكتشفا لها، وقد يحدث الخلط كما في مدينة الخضر برام الله التي يروون أنها " دعيت الخضر باسمها هذا نسبة إلى دير أقيم فيها تخليدا للقديس مار جرجس من أمراء القبادون الذي استشهد كما تقول الرواية النصرانية في عام ٣٠٣م وعيده في أواخر شهر نيسان" وكأن هذا الخلط متعمد للتداخل والتعدد.لقد كان المفسرون يبحثون عن شخصية الخضر في الأدب، حتى يفسروا النص القرآني فلماذا لا نحلل أقوال المفسرين في إطارها التحليلي البلاغي والنقدي؟

---

[١٩٤] روى التوحيدي حوار علي بن الحسين والخضر ، التوحيدي، أبوحيان :ج٤ ص ٢٤٢ ، تحقيق د.وداد القاضي ، ط.بيروت ١٩٨٨

[١٩٥]ابن شاهين: الإشارات في علم العبارات ص ١٥ وذكر النابلسي في تعطير الأنام في تفسير الحلام أن رؤية الخضر تدل " تدل رؤيته في ال منام على الرخص بعد الغلاء، والخصب وكثرة النعم، والأمن مما هو فيه من شدة وكآبة. ومن رأى الخضر عليه السلام فيطول عمره ويحج"

[١٩٦] جمعتُ بعض صور الخضر كما تخيله الفنانون وأودعتها في نهاية البحث

[١٩٧]قانصو، د.أكرم :التصوير الشعبي العربي ص ٨١ ط.عالم المعرفة ، الكويت ، نوفمبر ١٩٩٥

١-٢ الافتراضات النظرية وتساؤلات البحث:

يمثل موضوع الخضر إشكالية في عقلية الفكر الإنساني إذ تطور تشكيل هذه الشخصية وقدرتها على الصيرورة والديمومة وتجاوز البيئات والفرق والأزمنة والاختلافات حول وجوده؛ في أي عصر كان؟ أهو كائن دوماً؟ ؛ وهل ما يزال حياً ومتى سيموت إن كان مايزال حيا؟ وما سبب خلوده وبقائه ؟ ومَن حظي بمقابلته ومن تعلّم على يديه ؟ وما درجته ؛ أهو وليٌّ أم نبيٌّ أم رسول أم ملكٌ من الملائكة أم هو شيء لا يعرف كُنهه؟

لم يرد اسم الخضر في القرآن الكريم ؛ فكيف نفسر هذا التتبع والشغف بسيرة حياته منذ مولده وعلاقته مع أبيه وموقفه من النساء ورقّه ، وأوصافه وبقائه أو عدم بقائه؟ "فالجمهور على أنه باق إلى اليوم"على نحو ما سنرى؛ هذا الجمهور هو الذي روى هذه الروايات حول سيرة حياته ، فما أصولها ؟ إنها إنتاج الذاكرة الجمعية للشعوب. ولِم لا يعد الخضر نقطة بحث في الأدب المقارن؟ ففي تركيا نجد سيارات الإسعاف عليها اسم "خزر" كما نجد-Trabzon-Khidr Festival الاحتفال بعيد الخضر في مدينة ترابزون التركية و"لم يكن خزر إلياس التركي ذا شعبية عند الفلاحين فحسب بل في الدوائر الرسمية العثمانية أيضا"[١٩٨] لقد تناوله الأدباء الأتراك في أشعارهم ونثرهم ،وربما يعود لون الرايات الخضراء التي غدت رمزا للدين الإسلامي للخضر بما يوحيه من تجدد واخضرار ونمو وبقاء.وفي لون الخرقة[١٩٩] الأخضر ما يوحي بارتباطها بالخضر ضمنا.

لقد وجدت المخيلة الشعبية الجمعية الباحثة عن الخلود والعلم ضالتها في الخضر وأَلْفَت فيه البديل عن الفناء الذي يزعج الجموع فبحثت من خلاله عن خلودها المنشود المخبوء الذي تُسقط عليه همومها الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والسياسية وغيرها؟ كيف لنا أن نفسر انشغال المفسرين وعلماء الحديث وأصحاب الفِرق وعلماء الكلام والنقاد والشعراء والكتاب والفلاسفة والفنانين بالخضر؟

---

[١٩٨] حداد، د.حسني : أساطير الخصب القديمة والمعتقدات الشعبية في سورية ص ٤٤

[١٩٩] "الخرقة:رمز للطائفة أو الطريقة التي ينتسب إليها الصوفي ، وتعكس حال الفقر الذي يكابده الصوفي، وقد حلت الخرقة محل لباس الصوف الذي كان يلبسه أوائل الصوفية"..."وذهب القطب البكري إلى أن خرقة الطريق لاتلبس إلا بعد صحبة وتأدب"البكري ، الشيخ مصطفى ، فلسفته الصوفية ورسائله ص١٣٧-١٣٨ دراسة وتحقيق د.كرم أمين أبوكرم ، إصدارات المجمع الثقافي،أبوظبي ٢٠٠٢ ويذهب د.كرم أمين أبوكرم إلى أن موضوع الخضر والخرقة"قدصاغه الخيال الصوفي المبدع"السابق ص ١٥٧

كيف تحوَّل الخضر إلى مصدر إلهام للأولياء ؟ ومصدر إبداع وكيف أدخل الخضر عامة الناس في الإبداع فمنهم من يُقسم أنه رآه وأنه صاحَبه ؛ لقد حوَّل الخضر المتلقي من قارئ سلبي إلى متلقٍ مبدع ، وكيف وظفه الأدباء في إبداعهم؟ ما مرجع الخلط بين الخضر وإيليا (إلياس) "عن طريق المقامات والأضرحة المنسوبة لهذا الاسم أو ذاك في الوقت نفسه"[٢٠٠] وما مردّ الخلط بين الخضر وإلياس وجورجيوس "فما يزال مزار الخضر – جاورجيوس قائما على مقربة من البحر عند ميناء السويدية على مصب نهر العاصي"[٢٠١] لقد تحول الخضر عبر البيئات والأزمنة إلى أخضار متعددة.

هذه الآراء والأسئلة آمل أن أجد لها أو لبعضها أجوبة في هذا البحث. ولا يدخل الباحث في شَرَك إثبات بقائه أو موته بل يهدف إلى إثبات حضوره الإبداعي ومن ثم النقدي وأثر هذه الروايات سوسيولوجيا ونقديا.

١-٣ منهج البحث :

سأتبع المنهج التاريخي الذي سيدلني على تطور تكوين هذه الشخصية عبر القرون وصولاً إلى واقعنا المعاصر.

وتبعاً للمادة التي سأعثر عليها فإن المنهج التحليلي سيكون أوفر حظاً من غيره من المناهج النقدية الأخرى في تحليل هذه الظاهرة في التراث الأدبي والإبداع المعاصر.

كما أني سأقفو خطى المفكر السويسري Carl Gustav Jung (1875 – 1961) كارل جوستاف يانج الذي درس الأديان والحضارات وفق نظريته حول "التزامن[٢٠٢]" و"الـ لاشعور الجماعي" من خلال العقل الباطن الذي يفسر الظواهر المتشابهة للبشر من خلال الإرث المعرفي للبشر.

١-٤ الدراسات السابقة:

لقي موضوع الخضر اهتمام المفسرين على نحو ما سأوضحه فيما بعد ، كما لقي اهتمام الفقهاء والمؤلفين ولعلنا عندما ننظر في أسماء الكتب التي وردت في المصادر والمراجع نجد عناوين كتب أُلفت عن الخضر بيد أنها فُقدت أو لـمَّا

---

[٢٠٠] حداد، د.حسني : أساطير الخصب القديمة والمعتقدات الشعبية في سورية ص٤٢

[٢٠١] السابق ص٦٢

[٢٠٢] التزامن:حدوث حدثين منفصلين [متشابهين]لا يرتبطان على أساس سببي أو غائي.

تُكتشف بعد أو لم تحقق ؛ فنظرة في كشف الظنون تنبىء عن وجود ثلاثة عشر كتاباً عن الخضر ؛ كعجالة المنتظر في شرح حال الخضر لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجزي (ت٥٩٧هـ) وكتاب "قصة الخضر عليه السلام" لشمس الدين محمد بن أحمد البساطي (ت ٨٤٣) و"الزهر النضر في أنباء الخضر" لشهاب الدين بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢) و"الوجه النضر في ترجيح نبوة الخضر" لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي (ت٩١١) و"رسالة الأولياء وحياة الخضر وإلياس" لعبدالأحد بن مصلح الدين النوري (ت ١٠٦١)و"القول الدال على حياة الخضر ووجود الأبدال" لنوح بن مصطفى الرومي (ت١٠٧٠) وغيرهم[٢٠٣] كما ذكر الكتاني أن يحيى الشاوي"نظم جواباً في إثبات حياة الخضر في أبيات ٣٦ في درجين"[٢٠٤]والعجيب أن معظم هذه الكتب لم نرها حتى الآن ، بيد أن هذه الكتب والأبواب التي تناثرت في معظم كتب التراث تؤكد مدى حضور الخضر في العقلية العربية والإسلامية وكيف شغل الخواص والعوام ، وكيف احتلت موقعا مميزاً في التراث العربي والإسلامي.

وقد وضع الشعراني كتابه "الميزان الخضرية"[٢٠٥] وقد تحدث فيه عن تجربة شخصية مع الخضر عليه السلام، بعد أن تبحر الشعراني لكن تشعبت المسائل عليه ، وتناقضت الأجوبة "فتوجهتُ إلى الله تعالى ، وسألته أن يجمعني على أحد عنده علم ذلك ، فمن الله تعالى علي ، وتفضل وأجاب على سؤالي ، وجمعني على سيدنا ومولانا أبي العباس الخضر عليه السلام ، وذلك في سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة بسطح جامع الغمري ، حيث كنت ساكنا فيه، فشكوت إليه حالي ، فقلت له: أريد أن تعلمني يا نبي الله ميزاناً أجمع بها بين مذاهب المجتهدين ومقلديهم ، وأردها كلها إلى الشريعة ؛ فقال عليه الصلاة والسلام :ألق سمعك ، وافتح عين قلبك ،فقلتُ له :نعم ، فقال:اعلم..."[٢٠٦] " وبدأ الخضر في تعليم الشعراني ، وحَفِظ ما أملاه وفسّره في كتابه هذا.

---

٢٠٣ ينظر في ذلك حاجي خليفة :كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ؛ اسماعيل باشا البغدادي إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ؛ اسماعيل باشا البغدادي :هدية العارفين ، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ؛ محمد رمضان يوسف :الخضر بين الواقع والتهويل ، ط.دار المصحف ، دمشق ١٩٨٤

٢٠٤ الكتاني، عبدالحي بن عبدالكبير :فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات ج ٢ ص ١١٣٤ ط. دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٩٣

٢٠٥ الشعراني، عبدالوهاب:الميزان الخضرية، تحقيق عبدالرحمن حسن ، القاهرة ١٩٨٩

٢٠٦ الشعراني، عبدالوهاب:الميزان الخضرية ص ٨

وقد ألّف أحمد بن عبدالعزيز الحصين رسالة أسماها"الخضر وآثاره بين الحقيقة والخرافة"[٢٠٧] وقد أوضح هدفه "بيان الخرافات التي يعتقدها العامة وبطلانها وخصوصا في آثار الخضر"[٢٠٨] والكتاب يعتمد على الخطابة والنقل دون النقد والعقل ، إذ حوّل الكتاب إلى سباب واتهامات "للمتربصين بالإسلام وأهله المنتحلين لعقائد أهل الزيغ والفساد الذين استمرؤا[!] حياة الوهم والخرافة أدعياء التصوف الكاذب والكشف المزعوم أبوا إلا أن يجعلوا من شخصية الخضر عليه السلام شخصية أسطورية"[٢٠٩] ومضى"وما يشيعه بعض المتصوفة الجهلة إنما هو هواجس ووساوس"[٢١٠] وقد ذكر أن الشيخ علي القارئ ألف كتابا أسماه"كشف الخدر عن أمر الخضر ؛ وهو مطبوع في روسيا في قازان سابقا"[٢١١] ؛ وربما عني كتاب"الحذَرُ في أمر الخضر"لعلي بن سُلطان محمد القاري الهروي[٢١٢]، وقد نُشر محققا.ويبدو أن الحصين لم يقرأ هذا الكتاب لأنه مبني على الانتصار لحياة الخضر وتفنيد رأي من قال بموته.

وقد ذكر ابن القاري أن من البدع "اجتماع النساء وبعض السفهاء ولو في صورة الفقهاء عند باب الحزورة وقيت صلاة المغرب في أول ليلة سبت من ذي القعدة معتقدين أن أول من يخرج من المسجد الحرام حينئذ هو الخضر عليه السلام"[٢١٣] وقد رد على ابن قيم الجوزية الذي ذهب إلى موته ، وأوضح أنه حي لا خالد "إذ المخلد من لا يموت إلى الأبد ، ولم يقل بهذا في حقه أحد"[٢١٤] كما ردّ على ابن تيمية الذي ذكر "لو كان الخضر حيا لوجب عليه أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ويجاهد بين يديه ويتعلم منه ؛ فقال ابن القاري:"هذا الكلام غريب من شيخ الإسلام"[٢١٥] واستشهد بأويس القرني.وانتهى إلى أنه حي في الخفاء يتشكل كيف يشاء.

---

[٢٠٧] الحصين، أحمد بن عبدالعزيز:الخضر وآثاره بين الحقيقة والخرافة ، ط. مكتبة البخاري ، السعودية ١٩٨٧

[٢٠٨] الحصين، أحمد بن عبدالعزيز:الخضر وآثاره بين الحقيقة والخرافة ص ٦

[٢٠٩] السابق ص١٣

[٢١٠] السابق ص ٢٧

[٢١١] السابق ص ٢٨

[٢١٢] الهروي، الملا علي بن سلطان محمد القاري ت ١٠١٤هـ: الحذر في أمر الخضر، تحقيق محمد خير رمضان يوسف ، ط.دارالقلم، بيروت ١٩٩١

[٢١٣]السابق ص ١٤١

[٢١٤] الهروي، الملا علي بن سلطان محمد القاري ت ١٠١٤هـ: الحذر في أمر الخضر ص ١٥١

[٢١٥] السابق ص ١٥٢

وضع محمد رمضان يوسف كتاباً حول "الخضر بين الواقع والتهويل"[٢١٦] وهو كتاب حاول مؤلفه أن يناقش قضية وجوده حياً أم ميتاً وبعد استقصاء خلص إلى حلٍّ وسط يرضي الطرفين "إن الخضر على ما هو عليه [أي يراه الناس في كل عصر] في عالم المثال لا في عالم الحقيقة والواقع ، ولعل هذا الرأي محاولة منه للتوفيق بين الأقوال"[٢١٧] فمن رآه فقد رآه في عالم المثال لا في الحقيقة.ويبدو أن المؤلف – نفسه – لم يقتنع بما وصل إليه فأردف "أما موته فإن قامت عليه أدلة قطعية ، فكل نفس ذائقة الموت ، ومالم تقم تلك الأدلة فلا مانع عقلاً ولا نقلاً من أن تستمر حياته ، لوجود أصناف من خلق الله كذلك"[٢١٨] والكتاب لايتعرض لتوظيف الخضر في الأدب ولا يقدم رؤية نقدية بل ركز على الوصول إلى أن الناس تراه في عالم المثال ؛ أو على حد قوله "إن الحديث عن الخضر وحده دون غيره من الناس ، وأنه باق إلى الآن ويلتقي بالناس ، ربما كان له أساس من الصحة ، فإن لم يكن حقيقة ففي عالم المثال"[٢١٩]ولكن هذا لا ينفي أني أفدتُ من هذا الكتاب.

وقد ظهر كتاب "كشف البيان عن حال الخضر أبي العباس عليه السلام[٢٢٠]"، جمعه واعتنى به الشيخ خضر العبيدي، قدم له الشيخ محمد عبد الله عيتاني،وقد ادّعى محمد رمضان يوسف أن هذا الكتاب مأخوذ من كتابه[٢٢١] "الخضر بين الواقع والتهويل" ورد الثاني أنه جمَع كما جمَع .

وقد ألف محمود شلبي كتابا وسمه بـ"حياة الخضر"[٢٢٢]تحدث عن الخضر في كتاب الله والأحاديث النبوية ، ولم يدل برأي واكتفى بقوله"إذا تحدث الأكابر فليصمت الأصاغر أمثالي"[٢٢٣] لكنه أورد مسرحية في نهاية كتابه تقرب القصص الديني إلى عقول المعاصرين – على حد قوله– وهي مسرحية تعليمية لا بأس بها.

كما ألف الشيخ محمود علي الرفاعي كتيّبا عن "قطب الأقطاب وعالم الزمان الخضر عليه السلام" دافع فيه عن بقائه وقال"وأعجب لمن يصدق بطول بقاء

---

[٢١٦] محمد رمضان يوسف :الخضر بين الواقع والتهويل ، ط.دار المصحف ، دمشق ١٩٨٤

[٢١٧] محمد رمضان يوسف :الخضر بين الواقع والتهويل ص ٣٥٦

[٢١٨] محمد رمضان يوسف :الخضر بين الواقع والتهويل ص ٣٥٦

[٢١٩] محمد رمضان يوسف :الخضر بين الواقع والتهويل ص٣٣٦

[٢٢٠] العبيدي، خضر: كشف البيان عن حال الخضر أبي العباس عليه السلام، قدم له الداعية المربي الشيخ محمد عبد الله عيتاني، ط. دار العبيدي للتراث: دار ابن حزم،بيروت ١٤٢٢هـ.

[٢٢١] الدعوى والدفاع بالشرق الأوسط ٢٠٠٢/٣/١٣

[٢٢٢] شلبي ، محمود : حياة الخضر، ط.دار الجيل ، بيروت ١٩٨٥

[٢٢٣] السابق ص ١١٥

إبليس وينكر طول بقاء الخضر"[٢٢٤] وجمع بعض الأدعية التي وردت عن الخضر في كتب التراث وبعض معاصريه كالشيخ أحمد رضوان[٢٢٥]

وقد ألف محمود المراكبي كتابه عن "موسى والخضر عليهما السلام ؛ علمي الظاهر والباطن"[٢٢٦] وأوضح في المقدمة أنه صوفي "خضتُ التجربة الصوفية كاملة غير منقوصة ، فقد تلقيتُ الطريق وسلكت مقاماته السبع المعروفة ؛ ثم كُلّفتُ برتبة مشيخة الطريق(...)ثم تلقيتُ الإذن بدعوة الخلق إلى طريق الحق ثم الإذن بترقية السالكين إلى مقام المشيخة"[٢٢٧]ثم حكى أنه يود نقل مشاهداته وعلمه في مسألة الخضر فعقد فصلا عن أسطورة عين الحياة وانتهى إلى أنها "أسطورة لا يقبلها العقل والفطرة السليمة ، وهي من جنس حكايات العجائز عن الغول والشاطر حسن"[٢٢٨] وهو رأي ندر أن نراه من صوفي. ثم تحدث عن لقاءات "مزعومة بين الخضر وإلياس" وأرجع الحكايات عن الخضر إلى الفرق الباطنية ، ونفى حياته وأن "من يدعي صحبة الخضر والاجتماع به في اليقظة إما جاهل أو مبتدع في الدين"[٢٢٩] لكنه وقع في التناقض فهو من ناحية يرفض الروايات ولكنه ينتقي منها ما يشاء بانيا على انتقاءاته أحكاما ، ثم إنه ناصب التصوف العداء ، والتصوف عنده بوتقة واحدة ، يحكم عليها أنه "تبين لي الشطط والغلو في الفكر الصوفي" و"أن مزاعم الفرق الباطنية عن اجتماعهم بالخضر أو أخذهم عنه هي من جنس مزاعم الصوفية ، وكلها من تلبيس إبليس"[٢٣٠]

والظاهر من الكتب التي ألفت أنها تدور في رحى الخلاف على نبوته أو ولايته ؛ وعلى الخلاف حول حياته أو مماته ؛ وهما جوهر الخلاف بين المؤلفين؛لكن لم يتوقف أحدهم – على حد علمي- أمام الظاهرة نقدياً بعيدا عن نقطتيْ الخلاف المذكورتين آنفا ، من هنا فإن الحاجة إلى دراسة هذه القضية من منطلق أدبي نقدي تبدو حاجة ملحة.

---

[٢٢٤] الرفاعي، محمود علي :قطب الأقطاب وعالم الزمان الخضر عليه السلام ص ١٥ ط. دار آل الرفاعي .حجازة ١٩٩٥

[٢٢٥] السابق ص ٥٩

[٢٢٦] المراكبي، محمود :موسى والخضر عليهما السلام ؛ علمي الظاهر والباطن ، القاهرة ١٩٩٦

[٢٢٧] المراكبي، محمود :موسى والخضر عليهما السلام ؛ علمي الظاهر والباطن ص ٤

[٢٢٨] السابق ص٢١

[٢٢٩] السابق ص ٧٤

[٢٣٠] المراكبي، محمود :موسى والخضر عليهما السلام ؛ علمي الظاهر والباطن ص ٧٥

٢- المستشرقون والخضر:

نظر معظم المستشرقين إلى الخضر على أنه أسطورة ، ومن هذا المنطلق تعاملوا معه على اختلاف رؤاهم ومشاربهم.

٢-١ Wensinck .والخضر:

في EIدائرة المعارف الإسلامية الألمانية كتب A.J. Wensinck مقالاً حول الخضر بعنوان:

al-Khadir Sagen und Legenden von al-Khadir knuepfen in erster Linie an die koranische Erzaehlung Sura XVIII (18) 59-81[231]

أوضح أن "الأساطير Legenden und Sagen عن الخضر ترتبط في المقام الأول بالقصص القرآني ؛ و تعود (...) إلى ثلاثة مصادر : ملحمة جلجامش ، رواية الإسكندر وإلى الأسطورة اليهودية حول إلياس و الحَبر يهوشع بن ليفي.

ويتعلق المصدر الأوّل بالثاني أما قصة السمكة فهي غير موجودة في ملحمة جلجامش ولكنها موجودة في رواية الإسكندر.

٢-١-١ جلجامش والخضر:

هناك ربط كبير بين الخضر وجلجامش ، ففي جلجامش : بسبب حزن البطل جلجامش على موت صديقه إنجيدو سافر جلجامش إلى ملتقى نهري Khasisatra und Xisouthros كي يلتقي بجده الأكبر Utnapishtim أُتنابشتيم الذي يسكن هناك والذي مُنح الخلود . يريد أن يسأله جلجامش عن سر النبات الذي يقهر الموت.ويلقاه في العالم السماوي""السماء من فوقه تستند على جبلين ، والعالم السفلي من ورائها يحرسه الإنسان الثعبان ...وأخيرا وصل إلى أُتنابشتيم فقص عليه قصة وصوله إلى الخلود ، إنها قصة إذا كانت قد حدثت مرة فلن تحدث مرة أخرى ...ثم طلب منه أن يظل مستيقظا ستة أيام وست ليالٍ ، وعجز جلجامش عن تنفيذ ذلك ، إذ سرعان ما غلبه النوم، ولم يكن هناك مفر من أن يرجع خائبا...ثم ركب السفينة ، وقد عزّ على زوجة أُتنابشتيم أن يرجع جلجامش هكذا خائبا ، فطلبت من زوجها أن يمنحه شيئا يجعله سعيدا في رحلته

---

[231]Enzyklopaedie des Islam, Band II, Leiden-Leipzig, E.J. Brill 1927, S. 923

، وهنا يوقف سفينته متلهفا سماع كلمة أخرى منه ، ويحكي له أُتنابشتيم قصة الأعشاب ...ويعثر في أثناء سيره على الأعشاب ، وهنا يثق جلجامش كل الثقة أنه قد حقق أمله ، فيلقي الأعشاب جانبا حتى يرجع بها سعيدا إلى أوروك ، وينزل ليستحم في نشوة من السعادة ، وفي لحظة لم تكن في حسبانه يفقد جلجامش الأعشاب وتنهمر الدموع من عينيه خائبا"[٢٣٢] وقد رأى الأفعى تلتهم آخر عشبة من أعشاب الخلود.

بين الخضر وجلجامش أوجه اتفاق واختلاف:

- إن جلجامش يبحث عن الخلود بينما الخضر لا يبحث عنه لكنه وُهِبَه ؛ وشتان بين الباحث والموهوب.
- إن الخلود هبة وليس كسبا.
- انطلاق جلجامش للبحث عن الخلود موقف نابع من تأثره بفقد صديقه إنجيدو وحتى يهب الخلود للمقاتلين معه ؛ بينما الخضر لم يبحث ولم يمنح الخلود لغيره .
- يبدو موقف Utnapishtim أُتنابِشتيم موقفا للمخلّد الذي لا يتكرر والخضر كذلك ، ويلتقيان في الحكمة ، والاختبار والتعليم.
- لم يوهب جلجامش الخلود وقد طلبه بينما أدركه الخضر دونما طلب.

٢-١-٢ رواية الإسكندر:

في رواية الإسكندر: قصة السمكة - وهي التي تعنينا هنا لأن Wensinckاستند عليها كما مر بنا آنفا- التي تصور بحث الإسكندر عن عين الحياة تأتي بالتفصيل في الأدب الآشوري وفي ملحمة الإسكندر التي يرويها لأمه ولأستاذه أرسطو عن سفره في بحر الظلمات باحثا عن عين الحياة التي سمع بها؛ وبينما هم يسافرون في مشقة عبر بلاد الظلام إذ بالطباخ أندرياس يغسل سمكة مملحة في الماء فيفاجأ بأنها تحيا وتسبح بعيدا.فيسبح أندرياس وراءها ويصل بهذه الطريقة إلى الخلود بعدما شرب من النبع ولم يحك للإسكندر عن ذلك حتى رحلوا بعيدا . بعد ذلك يحكي للإسكندر عما حدث ويوقن الإسكندر أنه قد أدرك

[٢٣٢] إبراهيم، د.نبيلة :أشكال التعبير في الأدب الشعبي ص٧٠-٧١ ط.دار المعارف ، ١٩٨١

عين الخلود فيبحث عنها بيد أنه لم يجدها. ويعلق فينسينك على ذلك "هكذا يصل الطباخ المتشائم إلى الخلود وهو لا يستطيع أن ينتفع منه كما سينتفع منه الإسكندر [لو أدركه]"[٢٣٣].

ويحاول الإسكندر أن يقتل الطباخ ولكن هيهات لقد شرب من ماء الخلود. وتقارن نبيلة إبراهيم بين ملحمتي جلجامش والإسكندر وترى أن اتفاقا بينهما في الخطوط العريضة "فالبطل يسعى للحصول على الخلود وبعد تجوال طويل يرجع فاشلا ، في حين يحصل عليه من لا يحلم به ولا يسعى إليه، ولكنه بعد أن يحصل عليه لا يسعد به ، فقد قدر لطاهي الإسكندر أن يعيش في قاع البحر مع الحيوانات المائية إلى الأبد ، كما قدر لأوتنابشتيم أن يعيش حياته منعزلا عن الحياة الإنسانية التي كان يحياها"[٢٣٤] وهذا التقاء بين ملحمتيْ الإسكندر وجلجامش.

بين الخضر ورواية الإسكندر التي لم تترجم إلى العربية أوجه اختلاف أيضا:

- الإسكندر يبحث عن الخلود مثل جلجامش بينما الخضر لا يبحث عنه
- لا يدرك الإسكندر الخلود بينما يدركه طباخه إندرياس
- إن إندرياس لا ينتفع بالخلود بينما ينفع الخضر الناس مرشدا ومنيرا ومنقذا.
- تبدو هذه الرواية قريبة من قصة "الصعب ذي القرنين" رواية وهب بن منبه الذي رفع الحديث إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه – التي وردت في كتاب التيجان في ملوك حمير– حيث يحكي وهب أن ذا القرنين سار إلى بيت المقدس حتى يلقى النبي الخضر حتى يفسر له رؤى رآها لا يعرف تأويلها فالتقاه في بيت المقدس ، والرواية تجعل مسمى الخضر "موسى الخضر" ثم فسر له الخضر رؤاه وأمره بالسير نحو المغرب فسارا معا، وأخذ الخضر ينصحه ويعلّمه ؛حتى وصلا إلى الصخرة ، فدنا منها ذو القرنين "ليرقى عليها ، فانفضت وتقعقعت ، فرجع عنها فسكنت ثم عاد إليها ثانية ، فانفضت وتقعقعت فرجع عنها فسكنت ثم عاد إليها ثالثة ، فانفضت كذلك فرجع فسكنت ، ثم دنا منها الخضر فسكنت فرقى عليها فلم يزل يرقى وذو القرنين ينظر إليه والخضر يطلع إلى السماء حتى غاب عنه فناداه

---

233 Enzyklopaedie des Islam, Band II, Leiden-Leipzig, E.J. Brill 1927, S. 923

٢٣٤ إبراهيم، د.نبيلة :أشكال التعبير في الأدب الشعبي ص٧٣

منادٍ من قِبل السماء :ياموسى [الخضر] امض أمامك واشرب فإنها عين الحياة ، وتطهر فإنك تعيش إلى يوم النفخ في الصور ، ويموت أهل السماء وأهل الأرض فتذوق الموت حتما مقضيا، فمضى حتى انتهى إلى رأس الصخرة فأصاب عينا ينزل فيها ماء من السماء فشرب وتطهر(...) فقيل اشرب وارجع وبلّغ علمك ، قال :فلما رجع الخضر عليه السلام إلى ذي القرنين قال له: يا ذا القرنين :إني شربت من عين الحياة وتطهرت منها وأعطيت الحياة إلى يوم القيامة وأموت حتما مقضيا، ومُنِعْتَ أنت ذلك ، ولك مدة تبلغها ثم تموت فارجع فليس بعد هذا مزيد لإنس ولا جن..."[٢٣٥]

أ.لو أخذنا بالرأي الذي يذهب إلى أن الصعب ذا القرنين[٢٣٦] هو الإسكندر الأكبر فالروايتان عن شخص واحد ، وفي رواية وهب نجد أن ذا القرنين يتسبب في إدراك الخضر عين الحياة بينما في رواية الإسكندر لا نجد الخضر بل نجد الطاهي إلياس.

ب.يبدو خيال وهب ومن روى عنهم في روايته خيالا إبداعيا خصبا يصلح أن يكوّن رواية بمقاييس الرواية العصرية.

ج.يبدو الخضر في رواية وهب نبيا يوحى إليه.

د.ينبئ الخضر ذا القرنين بإدراكه عين الحياة بل يتركه يحاول ثلاث مرات بينما يخفي إندرياس في الرواية عن الإسكندر هذا السر.

---

[٢٣٥] ابن وهب : الصعب ذو القرنين ص ٢٩٢ وما بعدها في مقال

Lidzbarski,Mark:*Zu den arabischen Alexandergeschichten,* in Zeitschrift fuer Assyriologie,8.Band,Berlin,1893,SS.263-313

[٢٣٦] ورد اسم الصعب ذي القرنين في الشعر الجاهلي، مما يؤكد أن هذا الاسم كان معروفا قبيل ظهور الإسلام؛قال طرفة بن العبد:

وَلِلصَعبِ أَسبابٌ تَجُلُّ خُطوبُها أَقامَ زَماناً ثُمَّ بانَت مَطالِبُه

إِذا الصَعبُ ذو القَرنَينِ أَرخى لِواءهُ إِلى مالِكٍ ساماهُ قامَت نَوادِبُه

يَسيرُ بِوَجهِ الحَتفِ وَالعَيشُ جَمعُهُ وَتَمضي عَلى وَجهِ البِلادِ كَتائِبُه

وما قاله الربيع بن ضبع الفزاري (مخضرم):

أَلَم تَعلَموا ما حاوَلَ الصَّعب مدّه وَما صَبح الساعِي وَآل رزاحِ

فَهَل بَعد ذي القَرنَين مَلكٌ مُخَلَّدٌ وَهَل بَعد ذي المَلكَين يَوم فَلاحِ ؛ وقوله أيضاً: والصعب ذو القرنين عمر ملكه ألفين أمسى بعد ذاك رميما ؛ وهذا يؤكد شيوع محاولات الصعب ذي القرنين للوصول إلى الخلود. كما ورد عند قس بن ساعدة: وَالصَعبُ ذو القَرنَينِ أَصبَحَ ثاوِياً بِالحِنوِ بَينَ تَلاعُبِ الأَرواحِ ؛كما نجد قول أمية بن أبي الصلت: قَد كانَ ذو القَرنَينِ قَبلي مُسلِماً مَلِكاً عَلا في الأَرضَ غَيرَ مُعَبَّدُ

الموسوعة الشعرية "الشعر ديوان العرب" إصدار المجمع الثقافي ، أبوظبي. الإمارات العربية المتحدة ، ٢٠٠٣.

هـ. لايتخاصم ذو القرنين والخضر في رواية وهب بل يسيران معا بعد ذلك حتى ينشرا الإيمان بين الأمم، بينما يحاول الإسكندر قتل إندرياس أكثر من مرة.

و.في رواية وهب نجد نهاية ذي القرنين مذكورة "لما نزل ذو القرنين بالحنو حنو قراقر من أرض العراق مرض ثماني ليال ثم مات ثم غاب الخضر فلم يظهر إلى أحد بعده إلا إلى موسى بن عمران عليه السلام، ودُفن ذو القرنين بحنو قراقر"[٢٣٧] وربما كان هذا مناقضاً للتاريخ.

ز.تاريخيا تبدو رواية وهب أقدم من رواية الإسكندر التي لم تكتشف إلا في ١٨٤٦م

٢-١-٣ الخضر والأسطورة اليهودية:

يرى Wensinck فينسينك أن المصدر الثالث للخضر هو الأسطورة اليهودية التي تحكي "كيف سافر الحبر يهوشع بن ليفي مع إلياس . واشترط إلياس عليه أشياء مشابهة لما اشترطها عبدالله[على موسى عليه السلام] في القرآن. يقوم إلياس بأعمال شنيعة [ويأتي]رد فعل يهوشع عليها قريباً من رد فعل موسى في القرآن"[٢٣٨]

- التناقض موجود لديه فهو يذكر أن الأساطير تتصل في المقام الأول بالقص القرآني ثم يرجع هذه القصة إلى مصادر ثلاثية بعيدة عن القرآن لمجرد وقوع تشابه شكلي في بعض أحداثها ولمجرد أنها وقعت في تاريخ قبل نزول القرآن. وترجع نظرية تشابه القرآن مع هذه الأسطورة إلى Zunz[٢٣٩] زونز.
- عندما أدرك Wensinck أن حججه واهية راح يتلمس أشياء مضحكة فيرجع رفيق السفر إلى رواية الإسكندر لأنه غير موجود في ملحمة جلجامش ؛ ويرجع مجمع البحرين إلى مصدر رابع شفهي مجهول له لأن هناك ١١ بحرا ومحيطا في رواية الإسكندر ولا يوجد المثنى في أي من المصادر. ويرجع الصخرة إلى مصدر شفهي مجهول أيضا .أما عبد الله

---

[٢٣٧] ابن وهب : الصعب ذو القرنين ص ٢٩٢ وما بعدها في مقال

Lidzbarski,Mark:*Zu den arabischen Alexandergeschichten*, in Zeitschrift fuer Assyriologie,8.Band,Berlin,1893,SS.263-313

[238] Enzyklopaedie des Islam, Band II, Leiden-Leipzig, E.J. Brill 1927, S. 923

[239] Zunz, Gesammelte Vortraege, X, 130 .

فَيُذكِّره في البداية بـ Utnapishtim–Khasisatra في ملحمة جلجامش. ويرجع اختبار الصبر بشكل مؤكد إلى الأسطورة اليهودية.

- يعترف Wensinckأنه لا توجد ترجمة عربية لرواية الإسكندر إنما توجد قصص مختلفة لأسطورة الإسكندر درسها Friedlaender ومنها نسخ غير محققة.[٢٤٠] وإذا كانت رواية الإسكندر غير مترجمة فكيف أخذها العامة والخاصة وبنوا عليها.

وقد تحول الخضر في الهند تحت الاستعمار البريطاني إلى إله الأنهر تحت اسم خواجا خضر الذي يصوَر وهو جالس على ظهر سمكة ؛ كما لدى بحارة نهر Indus وهو نهر ينبع من جبال الهمالايا ويمر شمال شرق البنجاب (بالهند وباكستان).وفي محاولة فينسينج لتفسير كلمة الخضر يسوق الأحاديث والمقولات التي ترجع أصل الكلمة إلى الاخضرار والإنبات وهناك مقولة "أنت الخضر حيثما تطأ قدماك تخضرّ الأرض" يعلق عليها أنها تكاد تكون مطابقة تماما لجملة غير مشهورة في العهد القديم : زكريا ١٢/٦

" Siehe (es kommt) ein Mann, dessen Name ist Spross; unter ihm wird es sprossen"[241]

وترجمتها كما أوردها انظر: "سيأتي رجل اسمه برعم، سينبت (شيء) من تحته..." إلا أني رجعتُ إلى العهد القديم بالعربية فوجدت النص كالتالي : "هو ذا الرجل الغصن اسمه ومن مكانه ينبت ويبنى هيكل الرب"[٢٤٢] (Faelschung: es statt Tempel) وشتان بين المعنيين ؛ولا أدري لماذا لجأ Wensinck إلى هذا؟

"وفي المنظور الصوفي فإن كل عصر له خضره حيث إن نقيب الأولياء يكون الخضر نفسه."[٢٤٣]

وفي بحث Karl Dyroff بعنوان Wer ist Chadir?[٢٤٤] مَن الخضر؟ يناقش بحث Lidzbarski[٢٤٥] حول Zu den arabischen

---

[240] Ibid
[241] Ibid

[٢٤٢] الكتاب المقدس أي كتب العهد القديم والعهد الجديد ، ٥ سفر زكريا الإصحاح السادس ، ١٢.
طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ١٩٨٨.

[243] EI
[244] Dyroff,Karl: *Wer ist Chadir?* in Zeitschrift fuer Assyriologie,8.Band,Berlin,1892

Alexandergeschichten "نحو قصص الإسكندر العربية" وتساءل لدزبارسكي "لماذا مزج العرب بين الخضر وذي القرنين"؟ ولم يحدث هذا المزج بل التقيا في بعض الروايات على نحو ما سيأتي لاحقا.

كما رأى "أن تشابه الأساطير حول الخضر وإلياس يجعلنا نرى أنهما شخص واحد هو الخضر"[٢٤٦]

والتراث الإسلامي واضح التفريق بينهما فإلياس نبي مرسل ، وأما العبد الصالح فغيره ؛ والخلط بينهما لا أساس له في التراث الإسلامي ، والتقاء الخضر وإلياس كل عام مشهور في التراث مما يؤكد عدم الخلط بينهما.

٢-٢ Julia Gonnella والخضر:

ترى Julia Gonnella يوليا كونيلا في كتابها Islamische Heiligenverehrung im urbanen Kontext am Beispiel von Aleppo (Syrien) "تقديس الأولياء المسلمين في بيئة مدنية ممثلاً في مدينة حلب بسوريا" أن "الارتباط (الخلط) بين الخضر والقديس جورج ربما يعود إلى زمن الحروب الصليبية عندما بلغ تقديس المسيحيين للقديس جورج أَوْجَه وربما نشأت طقوس تقديس الخضر كنوع من التنافس".[٢٤٧] إلا أن هذا الرأي خطأ لعدة أسباب:

(1)إن المفسرين الإسلاميين للقرآن قد ذكروا الخضر بكل إجلال وتقديس في معرض تفسيرهم للقاء موسى مع العبد الصالح كما ورد في سورة الكهف. بل إن كثيرا من الأحاديث النبوية حددت الخضر اسما مما يدل على السبق التاريخي في تقديس الخضر قبل الحروب الصليبية التي لم تبدأ إلا في ١٠٩٦- ٩٩ في عهد البابا أوربان الثاني واستمرت حتى ١٢٩١. بينما كان العكس هو الصحيح إذ إن القديس جورج المتوفى في ٣٠٣ م لم يبدأ نسج الأساطير حوله إلا في القرن الثاني عشر الميلادي أي في أثناء الحروب الصليبية؛ حيث بدأت أسطورة قتل القديس جورج للتنّين وغدا "الحامي المقدس للمحارب وصانع الأسلحة"؛ أي أن

---

[245] Lidzbarski,Mark:*Zu den arabischen Alexandergeschichten*, in Zeitschrift fuer Assyriologie,8.Band,Berlin,1893,SS.263-313

[246] Lidzbarski,Mark, *: Wer ist Chadir? ?* in Zeitschrift fuer Assyriologie,8.Band,Berlin,1892,S107

[247] Gonnella, Julia: Islamische Heiligenverehrung im urbanen Kontext am Beispiel von Aleppo (Syrien)

تقديس جورج هو الذي صاحب الحروب الصليبية التي بحثت عن رمز ديني لإخفاء مطامعها فوجدت في جورج ضالتها.بل إن القديس جورج مختلَف عليه بين الطوائف المسيحية ويرى بعض المسيحيين أنه أسطورة لكنهم لجأوا إليه حتى يكون رمزا حربيا وزراعيا.

لقد وجدتُ أن أقدم نص إسلامي يتحدثُ عن الخضر – خارج الأحاديث النبوية – يعود إلى كعب الأحبار (ت ٣٢هـ = ٦٥٢م)[٢٤٨] أي أن النصوص حول الخضر قبل الحروب الصليبية بخمسة قرون، ولكنه البناء على أساس خطأ.

(2)إنه ينبغي أن يفرق بين الضريح والمقام والمشهد والمزار ؛ فالضريح بناء فوق قبر لميت مقدس ؛ والمقام كذلك حيث يعبر الناس عن موت الولي . تأدباً . بـ : انتقل إلى جوار ربه، اصطفاه الله إليه ،حُجب عن الأنظار ، أقام في جبانة ... ، ومعنى ذلك أنه حي عند ربه قياساً على الشهداء،بينما يعبر عن ظهور الولي في مكانٍ ما بالمزار لأنه زار هذا المكان أو يُزار فيه ، ويعبر العامة في صعيد مصر عن هذا المشهد بأفعال : علَّمَ ؛ نوَّرَ دلالةً على أن هذا الشيخ الميت قد زار هذا المكان ورُؤي نوره فيه.من هنا أود أن أوضح نقطةً لها أهميتها القصوى وهي أن ما يُعد مقامات الخضر هو في الحقيقة مزارات لأن الخضر حسب اعتقاد معظم الناس حي وبداهةً فإن وجود قبر له يقضي على بقائه ومن ثَم فلا داعي لتقديسه.

(3)إن الحضور القوي للخضر لدى الصوفيين يؤكده اتخاذهم الخضر رمزاً وقائداً منذ زمن طويل ويجعل الخضر ذا خصوصية قوية في التراث الصوفي .

(4) من خلال ما تأكد لي من ورود الخضر في الشعر العربي القديم عبر عصوره المختلفة والكتابات النثرية أيضا يستحيل ان يكون الخضر قد نشأ متأخراً في العقلية العربية ولم يظهر إلا إبان الحروب الصليبية.

وفي محاولة Julia Gonnellaلتفسير اسم الخضر ترجعه "لاخضرار جسده"ولا أدري من أين جاءت بهذا الرأي؟[٢٤٩]

---

[٢٤٨] كعب الأحبار "تابعي من أقدم رواة الحديث ، يمني الأصل ، قرّبه معاوية ، توفي في حمص" المنجد

[٢٤٩] هناك رأي للخطابي أنه يقال "إنما سمي الخضر خضرا لحسنه وإشراق وجهه " والحسن ليس لونا وربما حسبته لونا؛ وعند العرب الخضر السمرة.

٢-٣ Goethe جوتـه و Melkonian مِلْكونيـان و Franke فرانكـه و Irfan Omarعرفان عمر والخضر:

احتل الخضر دور المرشد والمعلم ومانح الخلود عند الشاعر الألماني جوتـه Goetheالذي قال في ديوانه الشرقي الغربي"

"هناك، حيث الحب والشرب والغناء

سيعيدك ينبوع الخضر شابا من جديد

إلى هناك حيث الطهر والحق والصفاء

أود أن أقود الأجناس البشرية

حتى أنفذ بها إلى أعماق الأصل السحيق "[٢٥٠]

وربما أخذ جوتـه هذا المعنى من شاعره المفضل جلال الدين الرومي الذي نرى حضور الخضر في مثنوياته وأشعاره حضورا قويا، ففي مثنوياته[٢٥١] يتساءل الرومي عن طول الرحلة وحاجته إلى قائد وهو يعني الخضر المرشد.و قد بنى جوته ديوانه الشرقي الغربي على رؤى روحية استمدها من الأشعار الصوفية التي بهرته وشكَّل منها رؤيته حيال الشرق، ومن يحلل تشكيل فاوست لدى جوته يدرك أن جوته كان متأثراً بقراءاته الإسلامية ولاسيما الخضر الذي وجد فيه ضالته نحو الخلود.

في دائرة المعارف EIالإنجليزية يذكر V. Melkonian تحت al-Khadir "أنه توجد جزيرة تسمى جزيرة الخضر وهذا الاسم أُطلق على جزيرة عبدان من قِبل العرب لأنه يقال إن الخضر ظهر هناك . وحسب الرواية فقد ظهر رجل رث الثياب على شط قناة بهمانشير ؛ وسأل المراكبي أن يعبر به المياه ولكن الرجل رفض.[وعند ذلك] أمر الرجل الغريب القارب أن يأتي إلى المكان الذي يقف عنده [فأتاه] من الماء إلى الشط عاليا ثم اختفى. بنى أهل (مزارعي) المنطقة حول القارب سورا من الصلصال وفي ٩٠٥هـ/ ١٥٠١ رمّمه الأسطى جمعة.وفي

---

[٢٥٠] جوته :الديوان الشرقي الغربي ، والترجمة مأخوذة عن كتاب كاترينا مومزن : جوته والعالم العربي ص ٨٦ ترجمة د.عدنان عباس ، مراجعة د.عبدالغفار مكاوي ط.عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٩٥

[٢٥١] الرومي ، جلال الدين : مثنوي

٩٥٣/١٥٤٦ بُني مقام [تعلوه]قبة وعُلق القارب من الداخل ويزار المقام حتى اليوم."[٢٥٢]

يرى Patrick Franke[٢٥٣] أن الخضر der Grüne ، يشترك مع المقدس جورج في القصة التي تحكى عنهما في سوريا ولبنان أنهما حررا البلاد من تنين شرير كان الناس يقدّمون له كل عام عذراء كقربان وهذا نقلا عن Friedlaender[٢٥٤]

ويستشهد "أن سليمان المرشد طلب من الخضر أن يدعو الله ألا يُدخل العلويين النار"[٢٥٥] أي يقوم بدور الشفيع أمام الله Fürsprecher, ein Patron der Alawiten[٢٥٦] والمرشدية هم أتباع موسى المرشد ثم ابنه ساجي[٢٥٧]، وهي طائفة سورية تغلو في تقديس الخضر غلوا شديدا.

كتب Irfan Omar في مجلة The Muslim World مقالا عن الخضر في التراث الإسلامي عرض فيه لأسطورة الخضر –على حد قوله– ورأى أنه "إذا نظرنا نظرة حديثة إلى التاريخ فإن التاريخ الإسلامي يدور حول أساطير كثيرة ، وأحداث تاريخية لايمكن أن يبرهن على وجودها [علميا]"[٢٥٨] ومضى متحدثا عن الخضر كأسطورة وأنه يدخل "في التصوف الكلاسيكي تحت مصطلح الأبدال"[٢٥٩]وأنه"كائن ماوراء التاريخ بكونه أزليا"[٢٦٠] وأننا إذا أخذنا موقف علم النفس التحليلي فإننا نتكلم عن أنموذج ، يبدو أنه يفقد حقيقته ويصبح جزءاً من الفكر"[٢٦١]وخلص إلى أن قصة الخضر في القرآن "تصور لنا تناقضات الحياة ، وترمز بخاصة إلى التوازن الدقيق بين الصبر والإيمان"[٢٦٢] وأن من تناقضات الحياة "أن الخسارة الظاهرة ربما تكون فائدة حقا ، والظلم الظاهر بإمكانه أن يكون

---

[252] EL

[253] Franke,Patrick,Sulaiman Mursid (1907-1946),SVerlag, Berlin chwarz ,1994,S.18-22.(

[254]Friedlaender,I,Die Chadirlegende und der Alexanderroman,Leipzig 1913

[255]Franke,Patrick,Suleiman Mursid ,S 183

[256] Ibid

[٢٥٧] مايزال ساجي يعيش بسوريا

[258] Omar, Irfan;*Khidr in the Islamic Tradition*, The Muslim World,Vol.LXXXIII, No.3-4 July-October,1993,P.279

[259] Ibid

[260] Ibid ,P.286

[261] Ibid

[262] Ibid

رحمة حقا ، والحكمة الإلهية تفوق كل الحسابات البشرية "[٢٦٣] وهو تحليل جاد وعميق.

٢-٤ الخضر بين Ruckert ريكرت والقزويني ؛ دراسة مقارنة:

من المستشرقين الألمان الذين فُتنوا بالخضر يأتي Goethe جوته وديوانه الشرقي الغربي ، ويأتي الشاعر[٢٦٤] Johann Michael Friedrich Ruckert(1788 - 1866) فريدريش ريكرت في قصيدته الرائعة "[٢٦٥]Chider" التي ترجمتُها إلى العربية ويقول فيها:

خضر Chider

الخضر الشابُ الخالدُ قال:

مررتُ عبر إحدى المدن

كان رجل يقطف الفاكهة في الحديقة

وسألتُ منذ متى توجد هذه المدينة؟

قال وهو ما يزال يقطف الفاكهة:

"هذه المدينة توجد في هذا المكان منذ الأبد

وستبقى إلى الأبد"

ولكنني بعد خمسة قرون

مررتُ بالطريق ذاتها.

فلم أجد أثراً لهذي المدينة.

وكان هناك راع وحيدٌ ينفخُ في المزمار

وكانت الأغنام ترعى العُشبَ والأوراق

---

[263] Ibid,P.290

[٢٦٤] يعد الشاعر Johann Michael Friedrich Ruckert (1788 - 1866) فريدريش ريكرت من كبار الشعراء الألمان ، وقد وُلد بمدينة .Schweinfurt الألمانية ، ودرس القانون والفلسفة بمدينتيْ Würzburg و Heidelberg ثم أتم تعليمه بفيينا Wien ودرس اللغات الشرقية فتخصص في الاستشراق وأصبح أستاذا للآداب الاستشراقية ببرلين Berlin وقد ترجم مقامات الحريري للألمانية شعرا، ينظر : عبدالرؤوف، د.عوني: ريكرت عاشق العربية ، مكتبة الخانجي ،القاهرة ١٩٨٦

[265] Inhalt der Gedichtsammlung و Januar 1999

`

وسألتُه: منذ متى اختفت هذه المدينة

قال وما يزال ينفخ في مزماره:

شيء ينمو بينما يجف شيء آخر

هذا مرعاي الأزلي.

ولكنني بعد خمسة قرون

مررتُ بالطريق ذاتها

فوجدتُ بحراً ترتطم فيه الأمواج

وكان هناك صيادٌ يرمي الشبكة في الماء

وعندما ارتاح من الرمي والشد

سألته: منذ متى يوجد هذا البحر

قال وضحك على كلماتي

منذ أن ترتطم الأمواج

ويصطاد الناس في هذا الخليج

ولكنني بعد خمسة قرون

مررت بالطريق نفسها

وجدت غابةً ذات أشجار

وكان هناك رجل يقطن في الغابة

وكان يقطع الشجرةَ بالفأس

وسألته منذ متى توجد هذه الغابة

قال: هذه الغابة هي الملجأ الأبدي

ومنذ الأزل وأنا أعيش في هذا المكان

وستنمو الأشجار هنا إلى ما لا نهاية

ولكن بعد خمسة قرون

مررتُ بالطريق ذاتها

فوجدتُ مدينةً ذات ضوضاء

ضج السوق بأصوات شعبية عالية

وسألتُ منذ متى بُنيت هذه المدينة؟

أين الغابة والبحر والمزمار

صرخوا ولم يسمعوا كلماتي
هكذا كان الحال دائما في هذا المكان
وسيظل هكذا إلى الأبد
ولكن بعد خمسة قرون
سأمرُّ بالطريق ذاتها!

في قصيدة ريكرت السابقة نلمح تشبع الشاعر بالثقافة الإسلامية ، ومعرفته العميقة بالتراث الإسلامي وهضمه ثم نظمه ، وقد ركز الشاعر على الخضر الخالد وديمومة الحياة في رؤى فلسفية تجاه الوجود المتغير ذي الحقيقة الواحدة.
وقد وجدتُ نصا للقزويني (ت ٦٨٢هـ) في "عجائب المخلوقات"يكاد يكون النص الذي اتكأ عليه Friedrich Ruckert ريكرت في قصيدته السابقة.
قال القزويني :"ولنختم هذا الفصل بحكاية عجيبة وهي ما روي أنه كان من بني إسرائيل شاب عابد وكان الخضر عليه السلام يأتيه، فسمع بذلك ملك زمانه فأحضره بين يديه وقال: إذا جاءك الخضر فائتني به وإلا قتلتك، فقال الشاب : ويحك آتيك بالخضر ؟ قال : نعم وإلا قتلتك، فرجع الشاب إلى مكانه متفكراً في أمره حتى جاءه الخضر عليه السلام فحدثه بحديث الملك فقال امض بي إليه ، فلما دخلا على الملك قال له الملك: أنت الخضر؟ قال نعم قال حدثني بأعجب شيء رأيته ، فقال الخضر عليه السلام:رأيت كثيراً من عجائب الدنيا وأحدثك بما حضرني الآن. كنت في اجتيازي مررت بمدينة كثيرة الأهل والعمارة سألت رجلاً من أهلها : متى بنيت هذه المدينة؟ فقال هذه مدينة عظيمة ما عرفنا مدة بنائها نحن ولا آباؤنا ؛ ثم اجتزت بها بعد خمسائة سنة فلم أر للمدينة أثراً ، ورأيت هناك رجلاً يجمع العشب ، فسألته متى خربت هذه المدينة؟ فقال لم تزل هذه الأرض كذلك ، فقلت أما كانت ها هنا مدينة؟ فقال ما رأينا هنا مدينة ولا سمعنا عن آبائنا. ثم مررت بها بعد خمسمائة عام فوجدت بها بحراً فلقيت هناك جمعا من الصيادين فسألتهم متى صارت هذه الأرضُ بحراً؟ فقالوا مثلك يَسأل عن هذا؟ إنها لم تزل كذلك، قلت أما كان قبل ذلك يبسا؟ قالوا ما رأينا ولا سمعنا به عن آبائنا. ثم اجتزت بعد خمسمائة عام وقد يبست فلقيت بها شخصاً يختلي ؛ فقلت متى صارت هذه الأرض يبساً؟ فقال لم تزل كذلك، فقلت له أما كان بحرا قبل هذا؟ فقال ما

رأيناه ولا سمعنا به قبل هذا. ثم مررت بها بعد خمسمائة عام فوجدتها مدينة كثيرة الأهل والعمارة أحسن مما رأيتُها أولا ، فسألت بعض أهلها : متى بُنيت هذه المدينة؟ فقال إنها عمارة قديمة ما عرفنا مدة بنائها نحن ولا آباؤنا، فقال الملك إني أريد أن أتبعك وأفارق مُلكي. فقال له : إنك لا تقدر على ذلك ؛ ولكن اتبع هذا الشاب فإنه يدلك على الرشاد، والله الموفق للصواب"[٢٦٦].

فالقصيدة والقصة العجيبة يتناصان في سياق واضح ، وقد أرجع النويري (ت ٧٣٣هـ=١٣٣٣م)القصة إلى مدينة دمشق فقد حكى النويري "وقيل: كان زمن معاوية رجل صالح بدمشق، كان الخضر عليه السلام يأتيه في أوقات، فبلغ ذلك معاوية، فجاء إلى الرجل وسأله أن يجمع بينه وبين الخضر، فذكر الرجل ذلك للخضر،فأبى؛ فقال معاوية:قل له: قد قعدنا مع من هو خير منك؛ وحدثناه، وهو محمد صلى الله عليه وسلم لكن اسأله عن ابتداء بناء دمشق كيف كان، فسأله؛ فقال: نعم صرت إليها، فرأيت موضعها..." [٢٦٧] وقد ألفيت القصة كاملة – مع اختلاف بسيط– عند الأبشيهي ٨٥٢هـ=١٤٤٨م) في "المستطرف في كل فن مستظرف[٢٦٨]"

---

[٢٦٦]القزويني ، زكريا :عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ص ١٢٩–١٣٠ تحقيق فاروق سعد ، ط.دار الآفاق الجديدة ،الطبعة الخامسة ، بيروت ، ١٤٠٣هـ=١٩٨٣

[٢٦٧] "...فرأيت موضعها بحراً مستجمعاً فيه المياه، ثم غبت عنها خمسمائة سنة، ثم صرت إليها فرأيتها غيضة، ثم غبت عنها خمسمائة سنة، ثم صرت إليها، فرأيتها بحراً كعادتها الأولى، ثم غبت عنها خمسمائة عام، وصرت إليها فرأيتها قد ابتدئ فيها بالبناء ونفر يسير فيها" النويري :نهاية الأرب في فنون الأدب.

[٢٦٨]قال الأبشيهي في المستطرف ". وقيل سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رآه في الدنيا مع طول سياحته وقطعه للقفار والفلوات، فقال: أعجب شيء رأيته أني مررت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها، فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا متى بنيت، وما زالت كذلك من عهد الطوفان ثم غبت عنها خمسمائة سنة ومررت بها فإذا هي خاوية على عروشها ولم أر أحداً أسأله وإذا رعاة غنم فدنوت منهم فقلت: أين المدينة التي ها هنا. فقالوا: سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان ها هنا مدينة، ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها وإذا موضع تلك المدينة بحر وإذا غواصون يخرجون منه شبه الحلية، فقلت للغواصين منذ كم هذا البحر ها هنا؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا البحر من عهد الطوفان. فغبت خمسمائة سنة وجئت فإذا البحر قد غاض ماؤه وإذا مكانه غيضة صيادون يصيدون فيها السمك في زوارق صغار فقلت لبعضهم، أين البحر الذي كان ها هنا؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا أنه كان ها هنا بحر. فغبت خمسمائة عام ثم جئت إلى ذلك، فإذا هو مدينة على الحالة الأولى، والحصون والقصور والأسواق قائمة، فقلت لبعضهم: أين الغيضة التي كانت ها هنا؟ ومتى بنيت هذه المدينة؟، فقالوا سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان. فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ثم أتيت إليها، فإذا عاليها سافلها وهي تدخن بدخان شديد، فلم أر أحداً أسأله ثم أتيت راعياً فسألته أين المدينة؟ قال سبحان الله لم يذكر آباؤنا ولا أجدادنا إلا أن هذا المكان هكذا منذ كان. فهذا أعجب شيء رأيته في سياحتي. فسبحان مبيد العباد ومفني البلاد ووارث الأرض ومن عليها وباعث من خلق منها بعد رده إليها."

وإذا توقفنا نقديا مقارنين بين هذه المصادر الأربعة وجدنا ترتيبها التاريخي على النحو التالي:القزويني فالنويري فالأبشيهي ثم يأتي حديثا ريكرت؛ ومن الواضح أن الأبشيهي قرأ ما كتبه القزويني لأنه في كتابه المستطرف نقل عنه في أكثر من موضع ، وفي رواية الأبشيهي زيادة ؛ بينما في رواية النويري نقص قياسا إلى رواية القزويني.

بين الروايات اتفاق في الفترة الزمنية التي يزور فيها الخضر المكان نفسه ؛إذ يأتي كل خمسمائة عام ، كما أن بينها اتفاقا آخر في أن الخضر هو الراوي ؛ كما أن الروايات العربية باستثناء رواية الأبشيهي تكاد تجمع على أن الملك هو الذي طلب أن يسمع من الخضر عن أعجب ما رآه في حين لا يذكر ريكرت هذا الملك قط؛ ويلتقي القزويني مع النويري في الشاب العابد أو الرجل الصالح الذي يلتقي الخضر ، لكن النويري يوجه الرواية إلى مدينة دمشق وإلى معاوية الذي يرفض الخضر لقاءه لأسباب لايذكرها النص.

تبدو لغة القزويني ولغة النويري أبلغ من لغة الأبشيهي ، ويبدو أن ريكرت قد اتكأ على رواية الأبشيهي للأسباب التالية:

أولا:بداية ما رآه الخضر مدينة في روايات القزويني والأبشيهي وريكرت؛ في حين أن بداية رواية النويري بحر.

ثانيا: ما يراه الخضر في رواية

القزويني	النويري	الأبشيهي	Ruckert
مدينة لا مدينة (خراب)	بحر غيضة	مدينة أطلال مدينة	مدينة لا أثـــــر للمدينة
بحر يبَس	بحر مدينة دمشق	بحر غيضة[٢٦٩]	بحر غابة

[٢٦٩] "الغَيْضَة: مَغِيضُ ماءٍ يجتمع فَيَنْبت فيه الشجر، وجمعها غِياضٌ وأَغْياضٌ"ابن منظور: لسان العرب.

مدينة عامرة	–	مدينة كالأولى	مدينة عامرة
–	–	أطلال مدينة تدخن	–

ما يراه الخضر في رواية الأبشيهي يكاد يكون مطابقا لما يراه في قصيدة ريكرت ؛ وتنفرد رواية الأبشيهي بنهاية العدم بينما تنتهي الروايات الأخرى بالمدينة العامرة وربما كان مقصد الأبشيهي في العظة والاعتبار دافعا له لاختيار هذه النهاية ؛ ولذا عقب على النهاية بقوله :" فسبحان مُبيد العباد ومُفني البلاد ووارث الأرض ومن عليها وباعث من خلق منها بعد رده إليها."

الفترة الزمنية في سياحة الخضر مختلفة فهي عند القزويني وRuckert ألفا عام وعند النويري ألف وخمسمائة عام بينما امتدت في رواية الأبشيهي إلى ألفين وخمسمائة عام.

حدث اختلاف بين الشخص المسئول من قِبل الخضر عما حدث لكن جميعهم جاهلون بما يحدث من تغير ، وتلك نظرة فلسفية في جهل الإنسان بحقيقة التغير الذي يراه ثباتا وهو ليس كذلك.

وجاء المسئول في الروايات على النحو التالي:

القزويني	النويري	الأبشيهي	Ruckert
رجل بالمدينة	–	بعض أهل المدينة	رجل يقطف الفاكهة
جامع عشب بالطلل	–	راع بالأطلال	راع وحيد يعزف بالمزمار
صياد بالبحر العميق	–	غواص بالبحر العميق	صياد يرمي الشبكة في البحر
رجل يختلي باليبس	–	صيادون بالغيضة	حطاب الغابة يجمع الخشب
بعض سكان المدينة		بعض سكان المدينة. الحال "لا أحد يسمع سؤالي" لكثرة ضوضاء المدينة	

عندما نوازن بين الروايات العربية ونقارنها بقصيدة Ruckert نجد أن رواية النويري حذفت السؤال والمسئول مكتفية بمشاهدات الخضر ، وتفردت قصيدة Ruckert بحركة أفعال الشخوص الذين يسألهم الخضر : يقطف ، يعزف ، يرمي الشبكة ، حطاب يجمع الحطب وهنا ينتصر للحياة وديمومتها ومن أجل ذلك يسقطRuckert في سؤاله الأخير السؤال عن المدينة الخربة التي غدت طللا ، إنه لا يعنى بالعدم ، إنه معني بالوجود؛ بينما ينتصر الأبشيهي للعدم والفناء ؛ والمجيب عن السؤال في القصيدة يبدو غير مهتم بالأسئلة فالرجل يجيب وهو يقطف الفاكهة والراعي يجيب وهو يعزف والصياد يجيب وهو يرمي الشباك والحطاب يجيب وهو يحتطب وأهل المدينة لم يسمعوا السؤال في الأصل بل لا يرغبون في الأسئلة؛ وهذا ما أشار إليه القزويني في موضع واحد عندما سأل الخضر الصيادين عن المدينة ؛ "فقالوا مثلك يَسأل عن هذا؟!" وقد ترك Ruckert السؤال العبثي الأخير دونما إجابة :

"وسألتُ منذ متى بُنيت هذه المدينة؟

أين الغابة والبحر والمزمار

صرخوا ولم يسمعوا كلماتي"

فلا مجيب في الحياة لأسئلة لا يشغل الإنسان بالبحث عن إجابة لها وإذا شُغل بعض الناس بأسئلة من هذا النوع تبدو أسئلة ترف وتبدو غير منطقية لأن منطقها الفلسفي يبدأ بسؤال لا يجاب، ويؤكد Ruckert أن الجميع مشغولون عنه بالحياة ، وأن الحياة تلبس أثوابها المتغيرة لكن كُنهها لا يتغير.

"هكذا كان الحال دائما في هذا المكان

وسيظل هكذا إلى الأبد

ولكن بعد خمسة قرون

سأمرُّ بالطريق ذاتها!"

ويقرر Ruckert على لسان الخضر أنه سيجيء بعد خمسة قرون أخرى ليترك المتلقي يتخيل ما سيراه ، طارحا سؤال زمنية الأبد اللامحدود ، إنه امتداد لا تعرف نهايته ، وإن كانت نهايته محتومة.

وقد أصرّ ريكرت على أن يؤكد أن للأبد وللأزل تعريفات كثيرة :

قال وهو ما يزال يقطف الفاكهة:

"هذه المدينة توجد في هذا المكان منذ الأبد

وستبقى إلى الأبد"

وقال راع وحيد وهو ينفخُ في المزمار والأغنام ترعى العُشبَ والأوراق

شيء ينمو بينما يجف شيء آخر

هذا مرعاي الأزلي.

وأجاب صياد عندما ارتاح من الرمي والشد

منذ أن ترتطم الأمواج

ويصطاد الناس في هذا الخليج

بينما حاول رجل يقطن الغابة أن يفلسف له الإجابة:

قال: هذه الغابة هي الملجأ الأبدي

ومنذ الأزل وأنا أعيش في هذا المكان

وستنمو الأشجار هنا إلى ما لا نهاية

ولم يعثر الخضر على مجيب أسئلته في مدينة مزدحمة بالسكان

صرخوا ولم يسمعوا كلماتي

هكذا كان الحال دائما في هذا المكان

وسيظل هكذا إلى الأبد

وهنا تبدو قصيدة Ruckert قصيدة فلسفية يعتمد فيها على التراث العربي والإسلامي الذي يعرفهRuckert ، حق المعرفة ، فالتأثير والتأثر واضح ؛ وقد لقيت هذه القصيدة شهرة واسعة وعدت من دُرر القصائد الألمانية.

وقد كان لهذه القصيدة دور في انتباه الألمان نحو شخصية الخضر وتوظيفها في الأدب والمسرح الألماني.

٣ – المفسرون والخضر ودور المفسرين في نشأة النقد الأدبي وتطوره:

في نشأة النقد الأدبي نجد للشعراء دوراً لا ينكر وللغويين أيضا بيد أن مؤرخي النقد الأدبي – فيما وصل إلي–لم يعطوا المفسرين حقهم في نشأة النقد الأدبي وتطوره ، فقد انتقلت مصطلحات علم الحديث والفقه والتفسير إلى النقد الأدبي من

خلال موسوعية النقَدة الأوائل وتبحرهم في هذي العلوم ؛ فمصطلحات كالفرض والواجب والحد والعلل والإضمار والمحذوف والضرب والمندوب والعقل والقبض والكف والمجزوء والمرفل والمعاقبة والمقصور والمنهوك والوتد والوقص والتداول والمعنى والمستطرف والإخبار والطبقات والإجماع والترجيح والأخبار المفردة والحديث الحسن والصحيح والموضوع والمقبول والاختلاف والاتفاق والحُجة والخروج عنه والإجازة و"حدثني" و"أخبرني من أثق به " و"روى" وغير ذلك من مصطلحات أرى أنها وُلدت في كنف علوم الفقه والحديث والتفسير ثم خرجت إلى عباءة علوم اللغة و البلاغة والنقد.

فلو أخذنا فقرة من قول ابن سلام الجمحي عن الانتحال مثلا لوضح لنا تأثير هذي العلوم على النقد نشأة وتطورا ، يقول ابن سلام:" وفي الشعر مصنوعٌ مُفتعلٌ كثيرٌ لا خير فيه ، ولا حُجة في عربيّته ولا أدب يستفاد ولا معنى يُستخرج(...)وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوه عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد – إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه – أن يَقبل من صحيفة ، ولا يُروى عن صُحُفي ، وقد اختلف العلماءُ بعدُ في بعض الشعر كما اختلفت في سائر الأشياء ، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه"[٢٧٠] نجد مصطلحات فقهية دخلت إلى مصطلحات النقد الأدبي.

وما عناوين بعض الكتب النقدية التراثية إلا صدي علوم الفقه والحديث والتفسير كطبقات الشعراء ،والموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء، وأخبار... ، والأمالي ، وتجريد الأغاني ، ومفتاح العلوم وجمع الجواهر وديوان المعاني وذيل الأمالي والعقد الفريد والعمدة وعيون الأخبار والكامل والكتاب والمكنون والحكاية والتأويل وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز والأصول والبديع والخصائص وذم الخطأ في الشعر ورسالة الغفران وسر الفصاحة والصّحاح وعيار الشعر ، وأصول الأدب وغير ذلك من عناوين تشي بأصولها في علوم التفسير والحديث والفقه ، وهذه ظاهرة لما تدرس بعد.

لقد خرج النقد الأدبي والبلاغة العربية من تحت عباءة المفسرين وعلماء الحديث والفقه ؛ وما مناهج هؤلاء وأولئك إلا مناهج نقدية في المقام الأول ، وحتى أدلل

---

[٢٧٠] ابن سلام ، محمد بن سلام الجُمحي (١٣٩–٢٣١هـ) ج١ ص ٤ تحقيق محمود محمد شاكر ، ط.المدني ، القاهرة ١٩٧٤

على ذلك نتناول كيف نظر المفسرون وعلماء الحديث إلى الآيات الكريمة بسورة الكهف حيث قص الله تعالى قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح، ولأمر إلهي لم يسمّ الله تعالى ذلك العبد الصالح، فوجد المفسرون طريقا لتجميع الآراء ومن ثم تحليلها نقديا ؛ وتوقف المفسرون كثيرا أمام قوله تعالى :{ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ٦٠ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ٦١ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ٦٢ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ٦٣ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ٦٤ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ٦٥ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ٦٩ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ٧٠ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ٧١ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ٧٢ قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ٧٣ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ٧٤ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا ٧٥ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ٧٦ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ٧٧ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ٧٨ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ٧٩ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ٨٠ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ٨١ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ٨٢}[٢٧١]

[٢٧١] الكهف ١٨/٦٠-٨٢

توقف المفسرون حول شخصية العبد الصالح والفتى[٢٧٢] والملك[٢٧٣] وأحداث القصة ومغزاها وماهية الرحمة والعلم اللدني والغلام المقتول[٢٧٤] والأب الصالح[٢٧٥] والجدار المقام ومجمع البحرين والسفينة ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى من التفسير والتأويل ، والنقل والرواية والرأي والترجيح والاستدلال ، وهذا ما عنيته سابقا بجهودهم في نشأة النقد الأدبي وتطوره.كما ينبغي ألا نغفل القراءات الأخرى .

ومن خلال استقراء النصوص التي تحدثت عن الخضر خارج الأحاديث النبوية وجدت أن أقدم نص يعود إلى كعب الأحبار (ت ٣٢هـ=٦٥٢م) وهو من التابعين ، ثم ابن زوجته نَوْف البِكالي الحميري (ت ٩٥هـ=٧١٤م)؛ وهو" نوف بن فضالة البكالي ،إمام أهل الشام في عصره ، من رجال الحديث ، ورد ذكره في الصحيحين ، وكان راويا للقصص"(...) وهو ابن زوجة كعب الأحبار ، ذكره البخاري في فصل من مات مابين التسعين إلى المئة" [٢٧٦] ثم وهب بن مُنَبِّه (ت١١٤هـ=٧٣٢م) وهو" صاحب الأخبار والقصص ، وكانت له معرفة بأخبار الأوائل ،وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وسير الملوك ، ذكر عنه ابن قتيبة في كتاب المعارف أنه كان يقول"قرأتُ من كتب الله تعالى اثنين وسبعين كتابا"[٢٧٧]"مؤرخ من التابعين ، اشتهر بمعرفته لأخبار الأقدمين والأنبياء ، وُلد ومات بصنعاء ، له التيجان في ملوك حِمْير"[٢٧٨] وما يؤكد ما أذهب إليه من أنه كان أديبا أن ابن خلكان يقول"رأيت له تصنيفا ترجمه بذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم في مجلد واحد؛ وهو من الكتب المفيدة"[٢٧٩] ثم يأتي بعدهم مقاتل بن سليمان (ت١٥٠هـ) وربما تناقل المفسرون ورواة الأخبار هذه الروايات عنهم وزادوا عليها أيضا.

---

[٢٧٢] قيل :"يوشع بن نون" ابن كثير : البداية والنهاية ج٥ ص٢٧٧

[٢٧٣] . قيل :"يزعمون أنه هدد بن بدد" ابن كثير : البداية والنهاية ج٥ ص٢٧٨

[٢٧٤٢٧٤] قيل :"جيسور" ابن كثير : البداية والنهاية ج٥ ص٢٧٨

[٢٧٥] قيل إنه كان الأب السابع وقيل العاشر ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٥ ص٢٧٩

[٢٧٦] الزركلي، خير الدين ج٨ ص ٥٤ ط.دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٧٩

[٢٧٧] ابن خلكان :وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج٦ ص ٣٥ تحقيق د.إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٩

[٢٧٨] المنجد

[٢٧٩] ابن خلكان :وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج٦ ص ٣٥

وقد ذكر معظم المفسرين أن هذه الآيات تحكي قصة موسى بن عمران عليه السلام مع الخضر " عن سعيد بن جبير قال قلت لابن عباس :إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بني إسرائيل فقال ابن عباس كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:إن موسى عليه السلام قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال أنا فعتب الله إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك(...)"

ومن الواضح أن الأمر شغَل الصحابة والتابعين ، ودخل فيه غير المسلمين بآرائهم وأفكارهم مما يوحي أن الخضر كان من شواغل أفكارهم وتساؤلاتهم. ولو قرأنا قصة "الصعب ذي القرنين" رواية وهب بن منبه الذي رفع الحديث إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لرأينا خيالا ينبغي دراسته في حلقات النقد الأدبي ، فوهب يحكي أن ذا القرنين سار إلى بيت المقدس حتى يلقى النبي الخضر بن خضرون بن العموم موصلا نسبه إلى الخليل إبراهيم عليه السلام ، فناداه الخضر يا ذا القرنين ، قال له الصعب :وما هذا الاسم الذي دعوتني به قال له الخضر :"أنت صاحب قرني الشمس وذلك أن أول من سماه ذا القرنين موسى الخضر عليه السلام(...)"[٢٨٠]

٣-١ التحليل النقدي لمصادر رواية الخضر:

إذا حللنا ماروي سنجد مايلي:

أولا : إن جمعا من الناس تناقلوا أخباراً حول الخضر في فترة مبكرة من فترات التاريخ الإسلامي.

ثانيا: وجدتُ أن كعب الأحبار[٢٨١] ونوف البكالي ووهب بن منبه ثم مقاتل بن سليمان وابن هشام فالطبري ربما يكونون أول من تكلم في الخضر بعيدا عما ورد في القرآن الكريم عن العبد الصالح.

---

[٢٨٠] ابن وهب ص ٢٨٤وما بعدها في مقال

Lidzbarski,Mark:*Zu den arabischen Alexandergeschichten,* in Zeitschrift fuer Assyriologie,8.Band,Berlin,1893,SS.263-313

[٢٨١] ذكر السيوطي في بشرى الكئيب بلقاء الحبيب "عن كعب قال: الخضر على منبر من نور بين البحر الأعلى والبحر الأسفل وقد أمرت دواب الأرض أن تسمع له وتطيع، وتعرض عليه الأرواح بكرة وعشية"

ثالثا: وجد هؤلاء ومن سار في فلكهم مندوحة للخروج من التفسير اللفظي للقرآن الكريم إلى التفسير بالروايات والأعجب أن هناك أحاديث نبوية شريفة شرحت الآيات القرآنية بشأن الخضر في سورة الكهف ووردت في صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند الترمذي ومسند أحمد وغير ذلك، لكنهم وجدوا في الخضر موضوعا شدهم إلى الإبداع والتخيل.

رابعا: جمعَ جمْعٌ كبير منهم بين الخضر وإلياس ، وهذا يعود لأن إلياس من الأنبياء لقوله تعالى { وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنْ الْمُرْسَلِينَ "[٢٨٢] وأن بعض المفسرين يرجحون أن إلياس هو إدريس عليه السلام الذي قال فيه تعالى {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧}[٢٨٣]فبنوا على أنه قد رفُع إليه وبذا يكون خالدا كالخضر ؛ ولذا يقول ابن عربي:" إلياس هو إدريس كان نبيا قبل نوح ، ورفعه الله مكانا عليا ، فهو في قلب الأفلاك ساكن وهو فلك الشمس"[٢٨٤]

خامساً لماذا قرن جمعٌ كبير منهم بين الخضر وذي القرنين ؟

ربماَ لأن الحديث عنهما ورد متعاقبا في سورة الكهف فربط المفسرون بينهما للتجاور والتعاقب،أو لأن الرواة وجدوا أن الربط بينهما يمنح الروايات تشويقا وإبداعا، لاسيما أن ذا القرنين أوتي كل شيء حكما وغلبة ؛ وبحَثًا عن الخلود "طلبها ففاتته" في حين أن الخضر أصابها.

إن ذا القرنين نال الحُكم بينما نال الخضر الخلود ، وإن الخلود لا ينال بالبحث ولا علاقة له بالمُلك؛ وإذا كان الخضر قائدا من قوات ذي القرنين فإن التابع يسبق المتبوع وهبا.

وقد ذكرت نبيلة إبراهيم أن ما استرعى نظر القصاص الشعبي في قصة الخضر وموسى هو خلود الخضر ، فلما شاء أن يقابل بين الخلود الذي يحن إليه؛ بل ويشعر أنه جزء من تكوين هذا الكون ، وبين الفناء الذي قدر للإنسان مهما بعد صيته ، ربط بين الخضر والإسكندر الذي لم يضارعه انسان فان في فتوحاته ؛ هذا

---

[٢٨٢] الصافات /١٢٣

[٢٨٣] مريم /٥٦-٥٧

[٢٨٤] ابن عربي :فصوص الحكم ص٥٧ تقديم د.عبدالحميد حمدان ، ط.عالم الكتب ، القاهرة ٢٠٠٠

شيء والشيء الآخر هو أن شخصية الإسكندر الأكبر في الحقيقة لم تستهو خيال القصاصين العرب وحدهم بل استهوت خيال جميع القصاصين في بلاد العالم"[٢٨٥]

سادسا: هَبْ أن هذه الروايات من الإسرائيليات فكيف تنوقلت بهذا الإصرار الواضح والزيادات المطّردة على مر الأزمنة وعلى اختلاف الأمكنة؟

سابعا: في التقاء الشيعة مع جمع من السنة حول قضايا جوهرية في حياة الخضر وبقائه ما يدعم فكرة الإمام الغائب عند الشيعة الإمامية وغيرهم ، وقد نبه ابن خلدون في مقدمته إلى استناد طوائف من الشيعة على قصة الخضر إثباتا لغياب الإمام فقال"ومن هؤلاء الغلاة من يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزه إلى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم، وهؤلاء هم الواقفية. فبعضهم يقول هو حي لم يمت إلا أنه غائب عن أعين الناس، ويستشهدون لذلك بقصة الخضر" وفي موضع آخر في تاريخه يقول" وربما يحتجون لذلك بقصة الخضر والأخرى أيضاً باطلة، والصحيح أن الخضر قد مات"

كما نلمح في بقاء الخضر ما يدعم قضية الخرقة والأبدال والقطبية والغوثية عند الصوفية.

ثامنا: إن كل نصٍّ حديثٍ هو في جوهره نص تراثي ، وإذا أغفلنا تحليل هذه النصوص التراثية نقداً فإننا نغفل جانبا إبداعيا كبيرا قد يكون جنساً أدبيا يلتقي مع القصة والرواية في أعماق من النسج والتصوير والخيال.

ثامنا: لماذا لم يطرح هؤلاء الثقات من الرواة والمفسرين والمتكلمين هذه الروايات من البدء ومعظمهم من الشهود العدل؟ ألأنهم وجدوا فيها ترويحا عن المتلقي ، وأخذه من جد الحديث إلى هزله دفعا للملل وتشويقا للحديث؟ أم لأنهم وجدوا فيها إبداعا؛ يصنع البطل بدءاً من قبيل وفاته وامتدادا به إلى أمد لايعلمه إلا الله ، وألْفوْا حضورا له في جميع الأزمنة .ألا نرى أن حادثة إلقاء أبيه له في مغارة وهو طفل ، تتناص مع أوديب؟فقد ذكر عبدالحسين الشبستري في كتابه أعلام القرآن أن الخضر "كان من أُسرة ملكيّة عريقة، وكان أبوه من مُلوك وقته، ولم يكن لأبيه ولد غيره.ولدته أُمُّه في احدي المغارات وتركته، فكانت تأتيه شاة كُلّ يوم فترضعه، وفى أحد الأيام عثر عليه صاحب الشاة فأخذه وربّاه.ولم يزل الخضر(ع) عند

[٢٨٥] إبراهيم، د.نبيلة :المقومات الجمالية للتعبير الشعبي ص ١٩٤-١٩٥ ، ط. قصور الثقافة ،القاهرة ١٩٩٦

صاحب الشاة حتى شبّ وتعلّم القراءة والكتابة، ومرّة طلب أبوه "ملكان" كاتباً ليكتب له صحف إبراهيم الخليل(ع) وشيث(ع)، فتقدّم جماعة للكتابة بينهم الخضر(ع) وأبوه لايعرفه، فلما تعرّف عليه أبوه فرح به، ونقله إلي البلاط"[٢٨٦]

تاسعا : إن شخصية نوف البكالي التي وردت في البخاري وغيره "كان قاصا بالكوفة" كما أورد السيوطي في الدر المنثور : "أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق آخر، عن سعيد بن جبير قال:إنا لعند ابن عباس في بيته إذ قال : سلوني ، قلت: أي أبا عباس، جعلني الله فداءك ؛ بالكوفة رجلٌ قاص يقال له نوف [البِكاليّ[٢٨٧]]، يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل. قال : كذب عدوّ الله[٢٨٨] حدثني أُبَيّ بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:(...)"[٢٨٩] وذكر الحديث ؛ ألا تدل على أن نوفا البكالي كان قاصا وأن الخضر تحول إلى قصص تُحكى بالكوفة وغيرها؟

ثم إن نوفا هذا كان ابن زوجة كعب الأحبار من جهة ؛ وحميري من جهة أخرى ، وأن رواية ابن هشام المأخوذة عن رواية وهب بن منبه الذي كان مؤرخا جنوبياً قد حول معظم أشخاص قصة ذي القرنين إلى حميريين؛ لذا أقول ألا يمكن لنا من خلال ما سبق أن نتلمس مصدر هذه القصص؟؟

فمصادر رواية الخضر – فيما أرى – جاءت على النحو التالي:

مصادر رواية الخضر		
كعب الأحبار (ت٣٢هـ)		
نوف البِكالي (ت ٩٥هـ)	وهب بن منبِّه (ت ١١٤هـ)	مقاتل بن سليمان (ت١٥٠)

٣-٢ الأحاديث النبوية حول الخضر:

---

[٢٨٦] الشبستري، عبدالحسين :أعلام القرآن ، قم ،١٤١٤

[٢٨٧] هو نوف بن فضالة الحميري البكالي "من بني بكال –ككِتاب أو شدّاد– بطن من حمير ، إمام أهل دمشق في عصره ، من رجال الحديث ؛ ورد ذكره في الصحيحين ،كان راويا للقصص ، وهو ابن زوجة كعب الأحبار.

ذكره البخاري في فصل من مات مابين التسعين إلى المائة" الأعلام للزركلي ج٩ ص ٣١ ، محمد خير :هامش كتاب الهروي:الحذر في أمرالخضر ص ٦٠

[٢٨٨] أوضح المحقق السابق أن ابن عباس قال ذلك في حال غضبه.

[٢٨٩] السيوطي : الدر المنثور ج١٦ ص ٤١١

وردت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ذُكر فيها الخضر ، فقد روى ابن كثير أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :"وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما"[٢٩٠] بينما أنكر البيهقي ماروي عن أنس بن مالك حول مجيء الخضر معزيا في رسول الله صلى الله عليه وسلم"فدخل رجل أشهب اللحية ، جسيم صبيح فتخطى رقابهم فبكى(...) فانصرف فقال بعضهم لبعض أتعرفون الرجل؟ فقال أبوبكر وعمر نعم! هذا أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم الخضر"[٢٩١]

وقد ذهب العراقي إلى إنكار جميع الأحاديث التي وردت حول اجتماع الخضر بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال:"لم يصح في حديث قط اجتماع الخضر بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا عدم اجتماعه ولا حياته ولاموته"[٢٩٢]

وقد روى النسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجَب العاجب ، ولكنه قال { إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا}"[٢٩٣]وقد ذكر مقاتل في تفسيره أن حذيفة قال"لما حان للخضر وموسى أن يفترقا ؛ قال له الخضر : يا موسى ، لو صبرت لأتيت على ألف عجيبة أعجب مما رأيت . فبكى موسى على فراقه"[٢٩٤]

وقد تصدى ابن الجوزي في كتابه عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر للأحاديث الواردة من ذلك " من المرفوعات فبين أنها موضوعات ومن الآثار عن الصحابة والتابعين ممن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد"[٢٩٥]

وقد أخرج الطبراني حديثا طويلا عن النبي صلى الله عليه وسلم في شأن الخضر[٢٩٦]

---

[٢٩٠] ابن كثير : البداية والنهاية ج١ ص ٢٧٧

[٢٩١] ابن كثير : البداية والنهاية ج٥ ص ٢٤٣

[٢٩٢] هامش احياء علوم الدين للغزالي ج١ ص٣٣٦

[٢٩٣] النسائي ، أبو عبدالرحمن أحمد ت ٣٠٣هـ:تفسير النسائي ج٢ ص ٢٢ تحقيق سيد الحليمي وصبري الشافعي ،ط. مكتبة السنة ، القاهرة ١٩٩٠

[٢٩٤] ابن سليمان، مقاتل٨٠-١٥٠هـ:تفسير مقاتل بن سليمان ج ٣ ص ٤٩ تحقبق د.عبدالله شحاته ، ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤

[٢٩٥] ابن كثير البداية والنهاية ج١ ص ٣١١-٣١٢

[٢٩٦] الهروي، الملا علي بن سلطان محمد القاري ت ١٠١٤هـ: الحذر في أمر الخضر ص ١١٢-١١١٥

بينما نجد الثعالبي يقول :"وأما اجتماع الخضر مع النبي صلى الله عليه وسلم وتعزيته لأهل بيته فمروي من طرق صحاح"[٢٩٧] وقد ردّ محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي الأحاديث التي يذكر فيها الخضر وحياته فقال"كلها كذب ولا يصح في حياته حديث واحد ،كحديث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في المسجد فسمع كلاما من ورائه فذهبوا ينظرون فإذا هو الخضر ،وحديث يلتقي الخضر وإلياس كل عام ،وحديث يجتمع بعرفة جبريل وميكائيل والخضر الحديث المفترى الطويل .سئل إبراهيم الحربي عن تعمير الخضر وأنه باق فقال من أحال على غائب لم ينتصف منه وما ألقى هذا بين الناس إلا شيطان ؛ وسئل البخاري عن الخضر وإلياس هل هما أحياء فقال كيف يكون هذا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لا يبقى على رأس مئة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد .وسئل عن ذلك كثير غيرهما من الأئمة فقالوا" وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ""[٢٩٨]

بينما وردت أحاديث في كتب الصحاح تفسر الآيات ومن ذلك ما أورده السيوطي في الدر المنثور : "أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق آخر، عن سعيد بن جبير قال:إنا لعند ابن عباس في بيته إذ قال : سلوني ، قلت: أي أبا عباس، جعلني الله فداءك ؛ بالكوفة رجلٌ قاص يقال له نوف [البِكاليّ[٢٩٩]]، يزعم أنه ليس بموسى بني إسرائيل. قال : كذب عدوّ الله[٣٠٠] حدثني أُبَيّ بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن موسى عليه السلام ذكر الناس يوما، حتى إذا فاضت العيون ورقت القلوب ولّى ، فأدركه رجل فقال: أي رسول الله ، هل في الأرض أحد أعلم منك؟ قال : لا ؛ فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله تعالى:. قيل : بلى ؛ قال : أي رب، فأين؟ فقال بمجمع البحرين. قال : أي رب، اجعل لي علما أعلم به ذلك.

---

[٢٩٧] الثعالبي : تفسير الثعالبي الموسوم بجواهر الحسان في تفسير القرآن ج٢ ص ٣٨٨ ط.الأعلمي ، بيروت ١٩٨٣

[٢٩٨] الزرعي،محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ٦٩١-٧٥١هـ:، المنار المنيف في الصحيح والضعيف ج ١ص ٦٧ تحقيق عبدالفتاح أبوغدة ، ط.حلب ١٩٨٣

[٢٩٩] هو نوف بن فضالة الحميري البكالي "من بني بكال –ككِتاب أو شدّاد– بطن من حمير ، إمام أهل دمشق في عصره ، من رجال الحديث ؛ ورد ذكره في الصحيحين ،كان راويا للقصص ، وهو ابن زوجة كعب الأحبار.

ذكره البخاري في فصل من مات مابين التسعين إلى المائة" الأعلام للزركلي ج٩ ص ٣١ ، محمد خير :هامش كتاب الهروي:الحذر في أمرالخدر ص ٦٠

[٣٠٠] أوضح المحقق السابق أن ابن عباس قال ذلك في حال غضبه.

قال خذ حوتا ميتا حيث ينفخ فيه الروح، فأخذ حوتا فجعله في مِكْتل، فقال : لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت. قال: ما كلفت كثيرا قال: فبينا هو في ظل صخرة في مكان سريان أن تضرب الحوت وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظه . حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره ، وتضرب الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كان أثره في حجر، قال موسى (لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) قال: قد قطع الله عنك النصب، فرجعا فوجدا خضرا على طِنفِسة خضراء على كبد البحر، مسجَّى بثوبه قد جعل طرفه تحت رجليه وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى فكشف عن وجهه وقال: هل بأرض من سلام..!؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال : موسى نبي إسرائيل؟ قال : نعم قال: فما شأنك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشدا قال: أما يكفيك أن التوراة بيديك، وأن الوحي يأتيك يا موسى؟ إن لي علما لا ينبغي أن تعلَمَه ، وإن لك علما لا ينبغي لي أن أعلَمَه . فأخذ طائر بمنقاره من البحر فقال : والله ما علمي وعلمك في جنب الله إلاكما أخذ الطير منقاره من البحر ، حتى إذا ركبا في السفينة وجد معابر صغارا تحمل أهل الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر، فعرفوه فقالوا: عبد الله الصالح لا نحمله بأجر، فخرقها ووتد فيها وتدا. قال موسى (أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا) كانت الأولى نسيانا والوسطى والثالثة عمدا (قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله) ووجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاما كافرا ظريفا فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، فقال: (أقتلت نفسا زكية) لم تعمل الحنث، قال ابن عباس قرأها (زكية) زاكية مسلمة، كقولك: غلاما زكيا فانطلقا فوجدا (جدارا يريد أن ينقض فأقامه) قال : بيده هكذا ، ورفع يده فاستقام (وقال لو شئت لاتخذت عليه أجرا) قال: أجرا تأكله (وكان وراءهم ملك) قرأها ابن عباس، وكان أمامهم ملك، يزعمون مدد بن ندد، والغلام المقتول اسمه يزعمون جيسور (ملك يأخذ كل سفينة) صالحة (غصبا) فأردت إذا هي مرت به أن يدعها لعيبها فإذا جاوزا أصلحوها فانتفعوا بها، ومنهم من يقول سدوها بالقار (فكان أبواه مؤمنين) وكان كافرا (فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) أي يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه (فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة واقرب رحما) هما به أرحم منهما بالأول الذي قتله خضر، وزعم غير سعيد أنهما أبدلا جارية"

وقد تصدى الصنعاني للذين يروون الأحاديث النبوية عن الخضر فقال" وأحاديث رتن الهندي المنقول عنه من جنس الأحاديث التي تنسب إلى الترمذي بزعمهم أنه سمعه من أبي العباس الخضر، عليه السلام. وكل هذا ليس له أصل يعتمد ولا قاعدة تقعد، بل ينقلها الفقراء في زواياهم وستكون الرواية من دراياتهم، ودين الإسلام أشرف من أن يؤخذ من كل جاهل عامي، أو يثبت بقول كل غافل غبي"[٣٠١]

وقد قبل الجمهور الأحاديث التي وردت بالبخاري ومسلم حول لقبه ولم يرد حديث صحيح يدل على بقائه حيا.

٣-٣ ابن تيمية والخضر:

لابن تيمية موقفان متناقضان من الخضر في بقائه أو موته ، وقد ركز الفقهاء التيميون على فتوى رأى أنه ليس من الأحياء وتناسوا عمداً أو جهلا الفتوى الثانية ، وهما موجودتان في مجموع فتاوى ابن تيمية ، وهذه القضية لفتت انتباهي إلى قضية خطيرة في فكر الخطاب الديني السائد القائم على الانتقاء والتغييب ، من انتقاء أئمة وطمس آخرين أو انتقاء فتوى لإمام وتغييب فتاواه الأخرى ؛ ومن عجب أن تصبح الفتوى المنتقاة هي الأصل الذي تبنى عليه المواقف.

فقدَ سُئلَ ـ رَحمَهُ اللَّهُ ـ عن الخضر وإلياس، هل هما معمران؟ بينوا لنا ـ رحمكم اللّه تعالى.

فأجاب:إنهما ليسا في الأحياء، ولا معمران، وقد سأل إبراهيم الحربي أحمد بن حنبل عن تعمير الخضر وإلياس، وأنهما باقيان يرويان ويروى عنهما، فقال الإمام أحمد: من أحال على غائب لم ينصف منه، وما ألقى هذا إلا شيطان.وسئل البخاري عن الخضر وإلياس: هل هما في الأحياء؟ فقال: كيف يكون هذا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو على وجه الأرض أحد)وقال أبو الفرج ابن الجوزي: قوله تعالى:{ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ }[٣٠٢] وليس هما في الأحياء. واللّه أعلم"[٣٠٣]

---

[٣٠١] الصنعاني: موضوعات الصنعاني ص٢

[٣٠٢] القرآن الكريم ، سورة الأنبياء ، الآية ٣٤

[٣٠٣] ابن تيمية :مجموع فتاوى ابن تيمية ، المجلد الرابع ، ٧٦من ٦٤٥ جمع عبدالرحمن بن محمد قاسم.

بينما وجدتُ فتوى أخرى مناقضة لفتواه الأولى عندما "سُئلَ الشَّيْخُ ـ رَحمَـهُ اللَّـهُ:هل كان الخضر ـ عليـه السلام ـ نبيًا أو وليًا ؟ وهل هو حـي إلـى الآن؟ وإن كـان حيًا فمـا تقولـون فيمـا روى عن النبـي صلـى الله عليـه وسلم أنـه قـال: (لـو كـان حيًا لزارني) هل هذا الحديث صحيح أم لا؟

فأجاب "...وأمـا حياتـه: فهو حـي. والحديث المـذكور لا أصل لـه، ولا يعرف لـه إسناد، بل المروي في مسند الشافعي وغيره: أنـه اجتمـع بالنبي صلى الله عليـه وسلم، ومن قال: إنه لم يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد قال ما لا علم لـه به، فإنه من العلم الذي لا يحاط به.

ومن احتج على وفاته بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أرأيتكم ليلتكم هذه، فإنـه على رأس مائة سنة لا يبقى على وجه الأرض ممن هو عليها اليوم أحد) فلا حجة فيه، فإنه يمكن أن يكون الخضر إذ ذاك على وجه الأرض.

ولأن الدجال ـ وكذلك الجساسة ـ الصحيح أنـه كان حيا موجودا /على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وهو باق إلى اليوم لم يخرج، وكان في جزيرة من جزائر البحر"

فما كان من الجواب عنه كان هو الجواب عن الخضر، وهو أن يكون لفظ الأرض لم يدخل في هذا الخبر، أو يكون أراد صلى الله عليه وسلم الآدميين المعروفين، وأما من خرج عن العادة فلم يدخل في العموم، كما لم تدخل الجن، وإن كان لفظًا ينتظم الجن والإنس. وتخصيص مثل هذا من مثل هذا العموم كثير معتاد. واللّه أعلم"[٣٠٤]

والاختلاف واضح بيّن في حاجة إلى وقفة ، فلماذا عندما قرن الخضر مع إلياس رأى أنهما ميتان" إنهما ليسا في الأحياء" ولماذا حين سئل عن حياته" وأما حياته: فهو حي."ألا يحتاج الأمر إلى تفسير؟

٣-٤ الخضر بين الولاية والنبوّة :

رأى الفخر الرازي أن "كل من علّمه الله لا بواسطة البشر وجب أن يكون نبيا"[٣٠٥]

وقال عبد العزيز الدباغ في كتابه الإبريز :"إن سيدنا موسى أكبر منه قدراً بلا نزاع

---

[٣٠٤] السابق

[٣٠٥] الفخر الرازي : التفسير الكبير ج٢١ ص١٤٨-١٤٩ ط.دار الكتب العلمية ، طهران ١٩٩٣

لأنه رسول الله وكليمه وصفيه ،فقلت :وهل سيدنا الخضر نبي كما ذهب بعض العلماء حتى قال الحافظ ابن حجر في شرح البخاري : ينبغي اعتقاد نبوته لئلا يكون غير النبي أعلم من النبي ؟ فقال رضي الله عنه :ليس بنبي ، وإنما هو عبد أكرمه الله بمعرفته وأمده بالتصرف في رعيته ، وأعطاه من تمام التصرف وكمال المعرفة ما يعطى للغوث من هذه الأمة المحمدية ، فأدرك ذلك الخضر بلا شيخ ولا سلوك بل أمده الله تعالى بذلك ابتداءً فهذه درجته ، وهي لا تبلغ النبوة ولا الرسالة."[٣٠٦]

يميل الألوسي إلى أن الخضر نبي و"إن التعلم من نبي ، ولا غضاضة في تعلم نبي من نبي"[٣٠٧] لكنه يميل إلى أنه اليسع، ويرجع مقاتل بن سليمان تسميته باليسع "لأن علمه وسع ست سموات وست أرضين"[٣٠٨]"والخضر لقبه ، ولقب به كما أخرج البخاري وغيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "لأنه جلس على فروة فإذا هي تهتز من خلفه خضراء"[٣٠٩]، وأخرج ابن عساكر وجماعة عن مجاهد أنه لُقب بذلك لأنه إذا صلى اخضر ما حوله (...) وكانت ثيابه خضرا ، وكنيته أبوالعباس واسمه بَلْيَا"[٣١٠] "بليا بن مَلْكا"[٣١١]

٣-٥ العبد الصالح :

يكاد يذهب جميع المفسرين إلى أن ذلك العبد هو الخضر ، وهذا ما ذهب إليه الغرناطي[٣١٢] والقرطبي الذي نص أن"العبد هو الخضر عليه السلام في قول الجمهور ، وبمقتضى الأحاديث الثابتة ، وخالف من لا يعتد بقوله"[٣١٣] وإلى هذا

---

[٣٠٦] الإبريز الذي تلقاه نجم العرفان الحافظ سيدي أحمد بن المبارك عن قطب الواصلين سيدي عبد العزيز الدباغ ص ٣٠٧ط . محمد علي صبيح ، القاهرة ،د.ت.

[٣٠٧] الألوسي،أبوالفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ت ١٢٧٠هـ:روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج١٥ ص ٣١٠

[٣٠٨] ابن سليمان، مقاتل٨٠-١٥٠هـ:تفسير مقاتل بن سليمان ج ٢ص٥٩٤

[٣٠٩] البخاري : صحيح البخاري رقم ٣١٥٠ (ترقيم العالمية) وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ج٢ ص ٣١٢ ؛ وفي سنن الترمذي ٣١٥١ وابن حيان في صحيحه ٦١٨٩

[٣١٠] الألوسي،أبوالفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ت ١٢٧٠هـ:روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج١٥ص٣١٨-٣١٩

[٣١١] الهروي، الملا علي بن سلطان محمد القاري ت ١٠١٤هـ: الحذر في أمر الخضرص ٧٤

[٣١٢] الغرناطي ،أبوجعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير ٦٢٧-٧٠٨هـ: السفر الثاني ص٦٥٢-٦٥٤ تحقيق د.محمد كامل ، بيروت ١٩٨٥

[٣١٣] القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج١١ص١٦

ذهب الفخر الرازي[٣١٤] والبيضاوي[٣١٥] والخازن البغدادي[٣١٦] ،وقد ذكر السيوطي أنه"الخضر كما في الصحيح وغيره"[٣١٧] وقد ذهب النويري إلى ذلك أيضا ، ولم يسمه سيد قطب في ظلال القرآن، وتوقفوا حيال أنه أوتي الرحمة أي الوحي والنبوة على اختلاف بين المفسرين.

فالخضر من الأسماء التي ندر أن يخلو منها تفسير للقرآن الكريم ولاسيما في تفسيرهم لسورة الكهف وقد تنوعت رؤاهم لهذه الشخصية ، كما سنرى ،وقد أفرد المفسرون صفحات للخضر ولم تُدرس جهود المفسرين في نشأة النقد الأدبي وتطوره فوددتُ أن يكون هذا منطلقا لذلك .

ويفسر الزمخشري العبد الصالح بأنه الخضر وهو نبي عنده وفي تفسيره لقوله تعالى{رحمة من عندنا}هي الوحي والنبوة وأنه"لا غضاضة بالنبي في أخذ العلم من نبي مثله وإنما يغض منه أن يأخذ ممن دونه"[٣١٨]وقد ذهب النويري إلى أنه كان ولياً "لم يكن الخضر نبيا بل كان وليا"[٣١٩] بينما ذهب القرطبي إلى أن الخضر "نبي عند الجمهور"[٣٢٠] ويفسر النسفي قوله تعالى{رحمة من عندنا}"هي الوحي والنبوة أو العلم أو طول الحياة"[٣٢١]

الزمخشري : الذي عنده علم من الكتاب "عن ابن لهيعة : بلغني أنه الخضر عليه السلام علم من الكتاب المنزل وهو علم الوحي والشرائع"[٣٢٢]

---

[٣١٤] الفخر الرازي : التفسير الكبير ج٢١ ص١٤٨

[٣١٥] البيضاوي، ناصر الدين أبوسعيد عبدالله الشيرازي:أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي ج٢ ص٢٣١ ط،بيروت د.ت.

[٣١٦] الخازن،علاء الدين علي البغدادي:لباب التأويل في معاني التنزيل ج٣ ص٢٠٤ ، بيروت ١٩٨٤

[٣١٧]السيوطي ، جلال الدين (٨٤٩-٩١١هـ): مفحمات الأقران في مُبهمات القرآن ص ٩٨ تحقيق محمد إبراهيم ، القاهرة ١٩٨٧

[٣١٨]الزمخشري(أبوالقاسم جارالله محمود بن عمر الخوارزمي ٤٦٧-٥٣٨هـ):الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل جـ٢ ص٤٩٢ ط.دار المعرفة ، بيروت،١٩٨٨.

[٣١٩] النويري : الإلمام ج٥ ص ٢١٦

[٣٢٠] القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج١١ ص ١٦

[٣٢١] النسفي، أبوالبركات عبدالله بن أحمد :مدارك التنزيل وحقائق التأويل ص٢٠٥ على هامش الخازن،علاء الدين علي البغدادي:لباب التأويل في معاني التنزيل

[٣٢٢]الزمخشري(أبوالقاسم جارالله محمود بن عمر الخوارزمي ٤٦٧-٥٣٨هـ):الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ج٣ ص١٤٨-١٤٩ ، ط.دار العرفة، بيروت ،١٩٨٨. ويرى عبدالمقصود محمد سالم في تفسيره سورة الكهف أن العلم "كان علما خاصا يتعلق ببواطن الأمور ولايعلم إلا من طريق الوحي والنبوة" عبدالمقصود محمد سالم : سورة الكهف وتفسيرها ص١١، ط. الشمرلي ، القاهرة ١٩٩٥

يقف الشيعة مع وجود الخضر وبقائه حيا ، يقول الشيخ أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمى المتوفى سنه ٣٨١ "إن أكثر المخالفين يسلمون لنا حديث الخضر عليه السلام ويعتقدون فيه أنه غائب عن الأبصار، وأنه حيث ذكر حضر، ولا ينكرون طول حياته، ولا يحملون حديثه على عقولهم ويدفعون كون القائم عليه السلام وطول حياته في غيبته، وعندهم أن قدرة الله عز وجل تتناول إبقاءه إلى يوم النفخ في الصور، وإبقاء إبليس مع لعنته إلى يوم الوقت المعلوم في غيبته، وأنها لا تتناول إبقاء حجة الله على عباده مدة طويلة في غيبته مع ورود الأخبار الصحيحة بالنص عليه بعينه واسمه ونسبه عن الله تبارك وتعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن الأئمة عليهم السلام"[٣٢٣]

يسوق صاحب الاحتجاج قصة قدوم رجل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه سائلا إياه مسائل حول الروح والأولاد وغير ذلك فأمر علي ابنه الحسن عليه السلام أن يجيبه فأجابه فشهد له ولمن سيأتي من بعده من الأئمة " ثم قام فمضى. فقال أمير المؤمنين للحسن: يا أبا محمد اتبعه فانظر أين يقصد. فخرج في أثره فقال: فما كان إلا أن وضع رجله خارج المسجد فما دريت أين أخذ من أرض الله، فرجعت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأعلمته. فقال عليه السلام: يا أبا محمد أتعرفه؟ قلت، الله ورسوله وأمير المؤمنين أعلم. قال: هو الخضر عليه السلام"[٣٢٤]

والشيعة في هذا يسوقون أخباراً عن لقاء أئمتهم بالخضر وكيف شهد لهم، أو علمهم أدعية أو حذرهم من قادم ، وهم بذلك لا يختلفون عن رؤية جانب كبير من أصحاب السنة والمتصوفة.

وقال الزمخشري في ربيع الأبرار ونصوص الأخبار قال الخضر لموسى عليهما السلام: يا موسى، تعلم العلم لتعمل به ولا تعلمه لتعلمه، فيكون عليك وزره ولغيرك نوره. ثم اختفى الخضر وبقي موسى يبكي."

٣-٦ لقب الخضر:

---

[٣٢٣] القمي،أبوجعفر محمد بن على بن الحسين بن بابويه القمى المتوفى سنه ٣٨١ :كمال الدين وتمام النعمة ص ٣٩٣ ، تحقيق على اكبر الغفارى ، قم ، إيران

[٣٢٤] الطبرسين أبومنصور أحمد بن على بن ابى طالب الطبرسى :الاحتجاج١ ص ٣٩٩ تحقيق محمد باقر الخراسان

روى البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء"[٣٢٥]وروى ابن كثير سبب تسميته الخضر "لأنه إذا صلى في مكان اخضر ما حوله"[٣٢٦] أو كما قال ابن الجوزي " لأنه إذا جلس اخضر ما حوله"[٣٢٧]

"وزاد عكرمة : وكانت ثيابه خُضرا"[٣٢٨] وقد ارتبط الخضر بالخُضرة والنبات ، وهذا يفسر لنا كثرة مسميات المدن والجُزُر والأودية بلقبه دون اسمه أو كنيته.

وقد وردت لفظة الأخضر في شعر العرب مرتبطة بلون السمرة؛ ومنه:

أنا الأخضر من يعرفني أخضر الجلدة في بيت العرب

يقول: أنا خالص لأن لون العرب السمرة.ويقال"شاب مختضر : مات فتيا"[٣٢٩]

٣-٧ عين الحياة :

شغلت عين الحياة أذهان العامة والخاصة ، وكل باحث عنها لعله يظفر بها ، فقد حكى ابن خلكان أن "باجروان اسم لقرية من بلاد البليخ من أعمال الرقة،واسم المدينة بنواحي أرمينية من أعمال شروان عندها - فيما قيل - عين الحياة التي وجدها الخضر عليه السلام، وغالب ظني أن أبا عبيدة من هذه المدينة. وقيل إن باجروان

اسم للقرية التي استطعم أهلها موسى والخضر عليهما السلام" فهناك آراء كثيرة جعلت هذه العين تُتَخيل نقاء وجمالا وأن من شربها خلد..

ويروي الترمذي " طلب ذو القرنين عين الحياة ، ففاتته وأصابها الخضر ، في قصة لها طول"[٣٣٠]

ويذكر الثعالبي "أن الخضر شرب من عين الحياة فهو حي إلى أن يخرج الدجال ، وأنه الرجل الذي يقتله الدجال"[٣٣١]بينما يسوق ابن القاري رأيا آخر "قيل ماء الحياة كناية عن العلم"[٣٣٢]

---

[٣٢٥]. ابن كثير : البداية والنهاية ج١ ص ٣٠٥

[٣٢٦] . ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٨٤

[٣٢٧] ابن الجوزي ، أبوالفرج جمال الدين القرشي البغدادي ٥٠٨-٥٩٧هـ:زاد المسير في علم التفسير ج ٥ ص ١٦٢ ط.المكتب الإسلامي ، بيروت/دمشق ١٩٨٤

[٣٢٨] الهروي، الملا علي بن سلطان محمد القاري ت ١٠١٤هـ: الحذر في أمر الخضر ص ٧٩

[٣٢٩] ابن منظور:لسان العرب ج٤ ص٢٤٤

[٣٣٠]الترمذي :(أبوعبدالله محمد بن علي بن الحسن بن بشر):كتاب سيرة الأولياء ص ٥٧-٥٨ تحقيق **Bernd Radtke** ط. بيروت ١٤١٢هـ=١٩٩٢م.

روى ابن الأثير أن الخضر "بلغ مع ذي القرنين نهر الحياة فشرب من مائه ولا يعلم ذو القرنين ومن معه ، فخلّد وهو حي عندهم إلى الآن"[٣٣٣]

وفي الرواية التي يرويها النويري في نهاية الأرب نجد العجائبية في وصف هذي العين والحوار الذي دار بين الخضر وذي القرنين عندما سلكا طريق الظلام . فقال الخضر: أيها الملك، إنا نسلك ظلمة لا ندري كم المسير فيها ولا يبصر بعضنا بعضاً، فكيف نصنع إذا ضللنا! فدفع إلى الخضر خرزة حمراء وقال: حيث يصيبكم الضلال فاطرح هذه في الأرض فإذا صاحت فليرجع إليها أهل الضلال أين صاحت. فسار الخضر بين يديه، يرتحل الخضر وينزل ذو القرنين، فبينما الخضر يسير إذ عرض له واد فظن أن العين فيه وألقى ذلك في قلبه، فقام على شفير الوادي وقال لأصحابه: قفوا لا تبرحوا، ورمى بالخرزة في الوادي ومكث طويلاً حتى أجابته الخرزة، فطلب صوتها فانتهى إليها فإذا هي إلى جانب العين. فنزع الخضر ثيابه ثم دخل العين، فإذا ماؤها أشد بياضاً من اللبن وأحلى من الشهد، فشرب واغتسل وتوضأ ولبس ثيابه، ثم رمى الخرزة نحو أصحابه، فوقعت الخرزة وصاحت، فرجع إلى صوتها حتى انتهى إلى أصحابه، فركب وقال: سيروا على اسم الله. ومرّ ذو القرنين فأخطأ الوادي فسلكوا تلك الظلمة أربعين يوماً وليلة"

فماء العين أشد بياضا من اللبن وأحلى من الشهد ، والطريق إليها طريق مظلم مهلك ولولا أن ذا القرنين عقد للخضر جيشا بألفي مقاتل وعقد لنفسه جيشا بأربعة آلاف مقاتل لكن من هذي الآلاف المؤلفة لم يذق من هذي العين جرعة سوى الخضر.

وقد وجد هؤلاء في عين الخلود ما شحذ خيالهم وجعلهم يتخيلون أشياء يبدعونها وجعلتهم يدخلون في باب الأساطير متخيلين طرقا مظلمة وخرزة دالة ، ومارواية وهب بن منبه ببعيدة عن أذهاننا.

٣-٨ أوصاف الخضر :

مع كثرة من يدعون رؤية الخضر كثرت صفاته ، وقد أبدع الراؤون والمتشوقون لرؤيته أوصافا وكرامات تتفق مع تغير صوره وأشكاله ، وإن ظلت بعض صفاته

---

[٣٣١] الثعالبي : تفسير الثعالبي الموسوم بجواهر الحسان في تفسير القرآن ج٢ ص ٣٨٨ ط.الأعلمي ، بيروت ١٩٨٣

[٣٣٢] الهروي، الملا علي بن سلطان محمد القاري ت ١٠١٤هـ: الحذر في أمر الخضر ص ٩١

[٣٣٣] ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١ ص١٦٠

العلمية ثابتة ، وقد استغل بعض الشحاذين تغير صوره في العقول للزعم بأنه الخضر فيخشى الناس نهره فيأخذ منهم ما يود ، وقد ناقش النويري شهادات من يراه وأرجعها إلى أنه"كما يسمع صوت الهاتف عند صفاء القلب. ويشاهد أيضاً بالبصر صورة الخضر عليه السلام فإنه يخيل لأرباب القلوب بصور مختلفة، وفي مثل هذه الأحوال من الصفاء يقع الاطلاع على ضمائر القلوب، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالى ".قال: فحاصل الوجد يرجع إلى مكاشفات وإلى حالات"

وإن كان أبو منصور الثعالبي في "ثمار القلوب"يرى عكس ذلك، " رُب سفيهٍ ماجنٍ، وخليعٍ ماردٍ، قد استغوى ضعفة قومٍ فأعد لهم أثراً في صخرةٍ، أوموطئ قدمٍ على صفحة أرضٍ؛ فادعى أنه رأى رجلاً حسن الهيئة والشارة، جميل الرواء ، والسحنة، عطر الثوب والبزة، قد ظهر في موضع كذا، أو صلى على جبل كذا، ثم أراهم ذلك الأثر؛ فلم يشك القوم أن الخضر ظهر له، وأن نعمةً من الله أهديت إليه. وكرامةً من كراماته أفيضت عليه، فاتخذوا ذلك الماجن إماماً، وتلك البقعة مشهداً ومثاباً" فهو يناقش الأمر مناقشة عقلية ، ويحاول أن يرد مايراه من آثار لموطئ قدم ، وهذا يؤكد شيوع ظاهرة آثار الخضر في العصور والأماكن التي نسبت إليه..

وقد أخذ الخضر صفات خارقة فهو يتكلم جميع اللغات ويستطيع أن يتشكل في صور متعددة بل يجعل نفسه غير مرئيٍّ حسب رغبته ، يعيش في جزيرة وسط البحر أو يعيش طائراً على سجادة خضراء فوق ماء البحار.

وقد تنافست المدن والبلدان حول مأوى الخضر إذ يقال إنه يتواجد " في سَمَندج بتركيا ويقال سمرقند بأوزبكستان وجزيرة باكار في باكستان"[٣٣٤]

يضع الترمذي الخضر في مرتبة عليا ، فلا يكون الولي وليا حتى يحادثه "من علامات الأولياء في الظاهر "محادثة الخضر الذي يطأ الأرض ؛ برها وبحرها وسهلها وجبلها ، في طلب مثله شوقاً إليه ، وللخضر قصة عجيبة في شأنهم ، قد كان عاين شأنهم في البدء في وقت المقادير، فأحب أن يدركهم فأُعطي الحياة حتى بلغ من شأنه أنه يُحشر مع هذه الأمة في زمرتهم ليكون لمحمد صلى الله

---

[334] Asiff ,Hussein :"Kataragama - The land of Khidr", The Sunday Observer (Colombo) of August 31, 2003

عليه وسلم تبعاً ، وهو رجل من قرن إبراهيم خليل الله وذي القرنين ، وكان في مقدمة جنده حيث طلب ذو القرنين عين الحياة ، ففاتته وأصابها الخضر ، في قصة لها طول"[٣٣٥]

وقد نسبه ابن القاري إلى آدم فقال "الخضر بن آدم لصلبه ونسئ له في أجله حتى يكذب الدجال"[٣٣٦]

وقيل إن الخضر ملك من الملائكة:"وأما كونه ملكا من الملائكة فقول غريب جداً"[٣٣٧] وقيل "أغرب جدا من قال هو ابن فرعون ، وقيل ابن ضحاك الذي ملك الدنيا ألف سنة ، قال ابن جرير والذي عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان في زمن أفريدون ، ويقال إنه كان على مقدمة ذي القرنين (...) وزعموا أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى الآن"[٣٣٨]

وقد توقف النويري أمام الآيات وذكر أنه قيل "لما قال موسى للخضر{ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا}يعني في إقامة الجدار ، وقف بين موسى والخضر ظبي وكانا جائعيْن ؛ فأما الجانب الذي يلي موسى فغير مشوي ، والجانب الذي يلي الخضر مشوي"[٣٣٩] ولا يخفى الجانب الإبداعي في هذه الروايات المنقولة وأثر الخيال فيها.

ويذكر الشعراني طعامه "فتارة يكتفي بالتسبيح وذكر الله عز وجل وتارة يتغذى بنسيم الأسحار وتارة يأكل كآحاد الناس"[٣٤٠]

٣-٩ مجمع البحرين

وجد أصحاب التأويل في مجمع البحرين متنفسا واسعا لتأويلاتهم المتعددة خلافا لأصحاب الظاهر ؛ فالظاهريون يرون أن مجمع البحرين كما روى ابن كثير أنه "بحر فارس وبحر الروم ومما يلي المغرب بحر الروم ومما يلي المشرق بحر فارس"ويرى سليمان الجمل أن "مجمع البحرين من أرض الشامات وفلسطين والقرية هي الناصرة ، وفي بعضها أن الأرض هي أذربيجان"[٣٤١]

---

[٣٣٥] الترمذي :(أبوعبدالله محمد بن علي بن الحسن بن بشر):كتاب سيرة الأولياء ص ٥٧-٥٨ تحقيق Bernd Radtke ط. بيروت ١٤١٢هـ=١٩٩٢م.

[٣٣٦] الهروي، الملا علي بن سلطان محمد القاري ت ١٠١٤هـ: الحذر في أمر الخضرص ٧٦

[٣٣٧] عبد اللطيف السيد سالم : التوسل بالأولياء ص١٦١ ط.دار الدعوة ، الإسكندرية ، ١٤١٢هـ=١٩٩٢م.

[٣٣٨] ابن كثير :البداية والنهاية ج ١ص ٢٧٩

[٣٣٩] النويري : الإلمام ج٦ ص ١٨٩

[٣٤٠] الشعراني، عبدالوهاب:الميزان الخضرية ص١٧

[٣٤١]. سليمان الجمل :الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ج١٣ ص٣٨١ ط.دار الكتب العربية الكبرى ، القاهرة

بينما ذكر مقاتل أن البحرين "يقال لأحدهما الرش وللآخر الكر فيجتمعان فيصيران نهراً واحدا ثم يقع في البحر من وراء أذربيجان"[٣٤٢] وقد ذكر الزمخشري أن "من بدع التفاسير أن البحرين موسى والخضر لأنهما كانا بحرين في العلم"[٣٤٣]

ويرى ابن عربي أن مجمع البحرين "ملتقى العالمين : عالم الروح وعالم الجسم وهما العذب والأجاج في صورة الإنسانية ومقام القلب"[٣٤٤]

فالبحران يحتملان التأويل.

٣-١٠ الكَنز:

حول الكنز دارت تفسيرات متعددة ؛ فقد ذكر الثعالبي أن الكنز "كان لوحا من ذهب قد كُتب فيه:عجبا للموقن بالرزق كيف يتعب وعجبا للموقن بالحساب كيف يغفل وعجبا للموقن بالموت كيف يفرح ، وقال الداودي :وكان تحته كنز لهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذهب وفضة انتهى فإن صح هذا الحديث فلا نظر لأحد معه"[٣٤٥] وقد فسّره سليمان الجمل أنه "كان لوحاً مكتوبا فيه كلمات."[٣٤٦] وكان ابن عباس يقول "ماكان الكنز إلا علماً."[٣٤٧] وبهذا قال مجاهد كان "صحفا فيها علم"[٣٤٨] وروى مقاتل عن ابن عباس أن الكنز "كان لوحا من ذهب مكتوب فيه(...)"[٣٤٩]وذكر ابن الجوزي أنه "كان ذهبا وفضة"[٣٥٠]

وقال ابن عربي "الكنز : كنز المعرفة التي لا تحصل إلا بهما في مقام القلب لإمكان اجتماع جمبع الكليات والجزئيات فيه بالفعل وقت الكمال ، وهو حال بلوغ

---

[٣٤٢] ابن سليمان، مقاتل٨٠-١٥٠هـ:تفسير مقاتل بن سليمان ج ٢ ص ٥٩٢ تحقيق د.عبدالله شحاته ، ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤

[٣٤٣]الزمخشري(أبوالقاسم جارالله محمود بن عمر الخوارزمي ٤٦٧-٥٣٨هـ):الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ج٢ص٤٩٠، ط.دار المعرفة ، بيروت ،١٩٨٨.

[٣٤٤] ابن عربي، محيي الدين ت٦٣٨هـ : تفسير القرآن الكريم ج١ ص ٧٦٦ تحقيق د.مصطفى غالب ، ط.الأندلس ، بيروت ١٩٩٣

[٣٤٥] الثعالبي : تفسير الثعالبي الموسوم بجواهر الحسان في تفسير القرآن ج٢ ص ٣٩٢ ط.الأعلمي ، بيروت ١٩٨٣

[٣٤٦] سليمان الجمل :الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ج١٣ ص٣٨٥ ط.دار الكتب العربية الكبرى ، القاهرة ؟

[٣٤٧] ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ١١٦٠-١٢٣٤): الكامل في التاريخ جـ ١ ص١٦٣ ط. دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩.

[٣٤٨] مجاهد، أبوالحجاج المكي المخزومي: تفسير مجاهد ج١ ص ٣٧٩ تحقيق عبدالرحمن الطاهر السورتي ، ط.إسلام أباد ، باكستان ١٩٧٨

[٣٤٩] ابن سليمان، مقاتل٨٠-١٥٠هـ:تفسير مقاتل بن سليمان ج ٣ص٥١

[٣٥٠] ابن الجوزي ، أبوالفرج جمال الدين القرشي البغدادي ٥٠٨-٥٩٧هـ:زاد المسير في علم التفسير ج ٥ ص ١٨١ ط.المكتب الإسلامي ، بيروت/دمشق ١٩٨٤

الأشدّ واستخراج ذلك الكنز، وقال بعض أهل الظاهر من المفسرين : كان الكنز صحفا فيها علم"[٣٥١]

٣-١١ أهو حيٌّ أم ميت؟:

في معجم العين ينص الخليل بن أحمد أن الخَضِر "نبيٌّ مُعَمَّر ، محجوب عن الأبصار"[٣٥٢] ونقل عنه ابن منظور هذه الجملة[٣٥٣]؛ فبين خلوده ووفاته مساحة شاسعة من الاختلاف بين الفقهاء والمفسرين والأدباء والنقاد ، وقد مال نفر منهم إلى القول ببقائه ؛ من الذين رأوا حياته الممتدة ابن الصلاح والنووي الذي قال:" الأكثرون من العلماء على أنه حي موجود بين أظهرنا ، وذلك متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح"[٣٥٤]

وأشار الثعالبي إلى أن قوله تعالى{وما فعلته عن أمري} يقضي أنه نبي"[٣٥٥]ومضى قائلا "وسئل البخاري عنه وعن إلياس عليهما السلام هل هما حيان؟ فقال :كيف يكون هذا؟"[٣٥٦] ومضى قائلا :"سئل عنه الإمام ابن تيمية فقال : لو كان الخضر حيا لوجب عليه أن يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويجاهد بين يديه ويتعلم منه"[٣٥٧] ويقول الطباطبائي العلامة محمد حسين في " الميزان في تفسير القرآن" :"قيل إن القصة أسطورة تخييلية صورت لغاية أن كمال المعرفة يورد الإنسان مشرعة عين الحياة و يسقيه ماءها و هو الحياة الخالدة التي لا موت بعدها أبدا و السعادة السرمدية التي لا سعادة فوقها قط.

و فيه أنه تقدير من غير دليل و ظاهر الكتاب العزيز يدفعه و لا خبر في القصة التي يقصها القرآن عن عين الحياة هذه إلا ما ورد في أقاويل بعض المفسرين و

---

[٣٥١] ابن عربي ، محيي الدين ت٦٣٨هـ: تفسير القرآن الكريم ج١ ص ٧٧٣ تحقيق د. مصطفى غالب ، ط.دار الأندلس ، بيروت ١٩٩٣

[٣٥٢] الفراهيدي ، الخليل بن أحمد ت ١٧٥هـ:كتاب العين ج ١ ص ٤٩٦ تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي ، انتشارات اسوه ، باقري – قم ١٤١٤ هـ.ق

[٣٥٣] ابن منظور :لسان العرب ج٤ ص٢٤٧

[٣٥٤] الهروي، الملا علي بن سلطان محمد القاري ت ١٠١٤هـ: الحذر في أمر الخضر ص ١٠٦

[٣٥٥] الثعالبي :تفسير ٣٢٩

[٣٥٦] الألوسي،أبوالفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ت ١٢٧٠هـ:روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ج١٥ص٣٢٠

[٣٥٧] السابق

القصاصين من أهل التاريخ من غير أصل قرآني يستند إليه أو وجدان حسي لعين هذه صفتها في صقع من أصقاع الأرض.

و الفتى الذي ذكره الله و أضافه إلى موسى قيل هو يوشع بن نون وصيه، و به وردت الرواية قيل: سمي فتى لأنه كان يلازمه سفرا و حضرا أو لأنه كان يخدمه.

و العالم الذي لقيه موسى و وصفه الله وصفا جميلا بقوله: «عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا و علمناه من لدنا علما» و لم يسمه ، ورد في الروايات أن اسمه الخضر وكان نبيا من الأنبياء معاصر لموسى عليه السلام و في بعضها أن الله رزقه طول الحياة فهو حي لم يمت بعد، و هذا المقدار لا بأس به إذ لم يرد عقل أو نقل قطعي بخلافه و قد طال البحث عن شخصية الخضر بين القوم كما في مطولات التفاسير و تكاثرت القصص و الحكايات في رؤيته و مع ذلك لا تخلو الأخبار و القصص عن أساطير موضوعة أو مدسوسة"[٣٥٨].

وقد رويت "في شأن حياة الخضر ووجوده إلى عُصُرنا هذه وحتى يوم القيامة أحاديث كثيرة ؛ كلها ضعيفة جداً لا تقوم بها حجة في الأحكام الإعتقادية."[٣٥٩]

وكان الشعراني يروي عن أبي الحسن الشاذلي قوله "أكره من الفقهاء خصلتين :قولهم بموت الخضر ، وقولهم بكفر الحلاج"[٣٦٠]

وذكر أبوحاتم السجستاني (ت ٢٤٨هـ=٨٦٢م) :المعمرون والوصايا"قال الشيخ أبو حاتم سهل بن عثمان السجستاني ذكر أبو عبيدة، وأبو اليقظان، ومحمد بن سلام الجمحي، وغيرهم أن أطول بني آدم عمرا الخضر، واسمه خضرون بن قابيل بن آدم عليه السلام.وقال ابن إسحاق، حدثنا أصحابنا، أن آدم عليه السلام لما حضرته الوفاة جمع بنيه، وقال لهم: يا بنيّ، إن الله منزّل على أهل الأرض عذابا، فليكن جسدي معكم بالمغارة،حتى إذا هبطتم فابعثوا بي، وادفنوني بأرض الشام. فكان جسده معهم.فلما بعث الله تعالى نوحا عليه السلام ضمّ ذلك الجسد، وأرسل الله تعالى الطوفان على الأرض، زمانا فجاء نوح عليه السلام، حتى نزل ببابل، وأوصى بنيه الثلاثة، وهم سام،ويافث، وحام، أن يذهبوا بجسده إلى المكان الذي أمرهم أن يدفنوه فيه.فقالوا: الأرض وحشة، ولا أنيس بها، ولا نهتدي الطريق،

---

[٣٥٨] الطباطبائي ، العلامة محمد حسين : الميزان في تفسير القرآن

[٣٥٩] عبد اللطيف السيد سالم : التوسل بالأولياء ص١٦١ ط.دار الدعوة ، الإسكندرية ، ١٤١٢هـ=١٩٩٢م.

[٣٦٠] الشعراني، عبدالوهاب:الميزان الخضرية ص١٥

ولكن نكفّ حتى يأمن الناس،ويكثروا، وتأنس البلاد، وتجفّ.وقال لهم نوح عليه السلام: إن آدم قد دعا الله أن يطيل عمر الذي يدفنه إلى يوم القيامة؛فلم يزل جسد آدم حتى كان الخضر هو الذي دفنه، وأنجز الله له ما وعده، فهو يحيا إلى ما شاء الله أن يحيا."

وقد نقل النويري أنه حي باق إلى أن يلقى الدجال ، فقد روى النويري في نهاية الأرب في فنون الأدب في حديثه عن الدجال قال " يأتي ومعه قوم من السحرة يقلبون الجبال خبزاً والأنهار شراباً، ولا يطعم ولا يسقى إلا من آمن به. ومعه صاحب لوائه من قريته ينادي بأعلى صوته: هذا ربكم فاعرفوه. فإذا سار الدجال سارت معه جبال طعامه وأنهار شرابه، وإذا وقف وقفت. يطوف الأرض شرقها وغربها حتى يدخل أرض بابل فيلقاه الخضر، فيقول له الدجال: أنا رب العالمين. فيقول له الخضر: كذبت يا دجال! إن رب العالمين رب السموات والأرضين. فيقتله الدجال ويقول: لو كان لهذا إله كما يزعم لأحياه.فيحيي الله الخضر من ساعته فيقوم ويقول: ها أنا يا دجال، قد أحياني الله ربي. ثم يقبل الخضر على أصحابه ويقول: ويلكم! لا يفتننكم هذا الكافر. ويقال: إنه يقتل الخضر ثلاث مرات ثم يحييه الله تعالى"[٣٦١] أي أنه سيظل حيا حتى يموت قبيل انتهاء الحياة .

كما أوردت من قبل رأيا لابن تيمية يرى أنه ميت ورأي آخر مناقض لرأيه الأول يرى أنه حي ويرد على من قال بموته ؛ وهذا يؤكد أن الأمر قد شغل حيزاً كبيرا في بنية العقل العربي والإسلامي ، وأن هذه المناقشات كانت ردا على أسئلة طرحها الجمهور على الفقهاء وهي صدى أسئلة مطروحة في الساحة الشعبية مما نقل الخلاف حولها إلى ساحة العلماء الذين اختلفوا فيما بينهم بل اختلف الفقيه مع نفسه بين مصدق ومكذب على نحو ما أسلفت آنفا، لكني –كما ذكرت منذ البداية – لست معنيا بإثبات موته أو حياته لأن ذلك ليس من شواغل البحث وأهدافه إلا فيما يتعلق بإثبات حضوره في دائرة العقل والنقل في التراث والواقع العربي وأثر ذلك في الأدب والنقد.

٤-١ الصوفيون والخضر:

---

[٣٦١] النويري :نهاية الأرب في فنون الأدب ،ينظر : الموسوعة الشعرية "الشعر ديوان العرب" إصدار المجمع الثقافي ، أبوظبي . الإمارات العربية المتحدة ، ٢٠٠٣.

هناك روايات كثيرة حول لقاء الأولياء بالخضر ومن قبل لقاؤه مع بعض الصحابة والتابعين كالإمام علي كرم الله وجهه ورضي عنه فقد روى الحافظ ابن عساكر عن الثوري عن علي بن أبي طالب"أنه رآه متعلقا بأستار الكعبة يدعو"وعقب ابن كثير على ذلك قائلا"وهذا ضعيف"[٣٦٢]كما رويت حكايات عن لقائه مع عمر بن عبدالعزيز وغيره ؛ فوجد الصوفيون في ذلك مدخلا للتحدث عن لقائهم به فأسهبوا في ذلك كثيرا ؛ إلى حد أن الثعالبي يقول"وحكايات من رأى الخضر من الأولياء لا تحصى كثرة فلا نطيل بسردها"[٣٦٣]

ويبدو أن مقولة احتفاظ الخضر باسم الله الأعظم الذي إن دُعي به استجاب جعلت الأولياء يتمنون رؤيته يقظةً ومناما.

يركز كل الصوفيين على الخضر ويرون أنه واسطة العقد والمرشد والدليل في وقت الحاجة ، فالغزالي يتخذ من موقف الخضر مع موسى عليه السلام وسيلة لتهذيب المريد مع شيخه منهجا لسلوك الطريق[٣٦٤] ؛ وينقل الكثير من الأدعية التي وردت عن الخضر[٣٦٥] ويسوق الكثير من قصص التقاء الصوفيين بالخضر فهاهو بشر الحافي يقول"أقلقني الشوق إلى الخضر عليه السلام"[٣٦٦]

وقد عدد الشعراني من لقيه منهم ، وذكر أن أهل الكشف قاطبة "أجمعوا على حياة الخضر عليه الصلاة والسلام إلى وقت اجتماعنا به وممن أخبرنا أنه اجتمع به وصافحه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ... ومنهم ذو النون المصري الذي اجتمع به مرات وعلمه اسم الله الأعظم ، ومنهم أبوعبدالله البشري وعبدالرزاق وإبراهيم الخواص وأبويزيد البسطامي وإبراهيم بن أدهم والشيخ محيي الدين بن العربي وأبو عبدالله القرشي وأبوالحسن الشاذلي وأبوالعباس المرسي وياقوت العرش وعلي الضرير النبتيتي وعلي الخواص وغيرهم[٣٦٧]

ويصرح الشعراني "لكل ولي خضر"[٣٦٨]

---

[٣٦٢] ابن كثير : البداية والنهاية ج ١ ص٣١٠

[٣٦٣] الثعالبي : تفسير الثعالبي الموسوم بجواهر الحسان في تفسير القرآن ج٢ ص ٣٩٣

[٣٦٤] الغزالي : إحياء علوم الدين ص ٦٨

[٣٦٥] الغزالي : إحياء علوم الدين ص ٤٠٧ وغيرها

[٣٦٦] الغزالي : إحياء علوم الدين ص ١٩٨٢

[٣٦٧] الشعراني، عبدالوهاب:الميزان الخضرية ص١٤-١٥

[٣٦٨] علي شودكيفيتس : الولاية والنبوة عند الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي ص ١٣٢ ترجمة د.أحمد الطيب ،ط. دار القبة الزرقاء ، المغرب ١٩٩٩

وقد تحدث الغزالي عمن تحدثوا مع الخضر ودلهم على الطريق وأفتى لهم فتاوى ،فروى أنه "كان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون فيها سماع. قال: وكان أبو الخير العسقلاني الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع، وصنف فيه كتاباً ورد فيه على منكريه. وحكي عن بعض الشيوخ أنه قال: رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام، فقلت: ما تقول في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابنا؟ قال: هو الصفا الزلال الذي لا تثبت عليه إلا أقدام العلماء".

ويرجع عبدالرحمن عبدالخالق ربط المتصوفة بالخضر إلى الترمزي[٣٦٩] الذي " يبدو أن أول من افترى القصة الصوفية للخضر هو محمد بن علي بن الحسن الترمذي المسمى بالحكيم والمتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري . فالترمذي هذا يقول في كتابه ختم الولاية. (وهذا الكتاب بنظري هو أخطر كتاب صوفي على الإطلاق) يقول في جوابه عن علامات الأولياء: "وللخضر . عليه السلام . قصة عجيبة في شأنهم وقد عاين شأنهم في البدء ومن وقت المقادير فأحب أن يدركهم، فأعطى الحياة حتى بلغ من شأنه أنه يحشر مع هذه الأمة وفي زمرتهم، حتى يكون تبعًا لمحمد . صلى الله عليه وسلم . وهو رجل من قرن إبراهيم الخليل، وذي القرنين، وكان على مقدمة جنده، حيث طلب ذو القرنين عين الحياة ففاتته وأصابها الخضر، في قصة طويلة" ومضى عبدالرحمن عبدالخالق قائلا في حدة لا تخلو من تعصب وبعد عن المنهجية العلمية ""لقد لفق الترمذي من هذه القصص الخرقاء قصته عن الخضر التي تلقفها الصوفية فيم بعد وزادوا عليها ما شاؤوا. والمهم هنا أنه زعم كل هذه المزاعم وأن الخضر حي أبدًا وأنه قاتل مع ذي القرنين.. ولسنا ندري أين كان ما دام أنه حي يرزق إلى آخر الحياة. أين كان عن شهود غزوة بدر وأحد والخندق والمواقع، ولماذا لم يشارك في فتح القادسية واليرموك، ولماذا لم يلتق بأبي بكر وعمر، ولم يتشرف قبل ذلك برؤيا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ما دام أنه حي أبدًا واطلع على جميع الأولياء منذ البدء.. بل ولماذا لم ينزل ولم يلتق إلا بالكذابين الضالين أمثال هذا الترمذي"٣٧٠ويبدو أن عبدالرحمن عبدالخالق لم يطلع على ما كتبه المفسرون قبل الترمزي عن الخضر ولا ما كتبه الشيعة قبل ذلك لكن آفة الرأي التعصب دون بينة ، والهوى دون تفكر ، فالقضية أسبق من

---

[٣٦٩] الترمزي :ختم الأولياء ، تحقيق اسماعيل يحيى ، بيروت ١٩٦٥

[٣٧٠] عبدالخالق ، عبدالرحمن :الفكر الصوفي

التِّرمِزي ، وكيف لباحث أن يقول إن الترمزي لفق هذه القصص الخرقاء ، فكيف وقد ثبت وجودها قبل الترمزي ، فماذا يقول عبدالرحمن في ذلك؟

وربما يعود هذا إلى موقف ابن تيمية ، وقوله في رسالة الباطن والظاهر:" وقَدْ يحتج بعضهم بقصة موسى والخضر ويظنون أن الخضر خرج عن الشريعة ، فيجوز لغيره من الأولياء ما يجوز له من الخروج عن الشريعة وهم في هذا ضالون من وجهين : أحدهما أن الخضر لم يخرج عن الشريعة ؛ بل الذي فعله كان جائزا في شريعة موسى ، ولهذا لما بيّن له الأسباب أقرّه على ذلك (...) والثاني :أن الخضر لم يكن من أمة موسى ، ولا كان يجب عليه متابعته بل قال له: إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَهُ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ(...)

ومن هؤلاء من يفضل بعض الأولياء على الأنبياء ، وقد يجعلون الخضر من هؤلاء ، وهذا خلاف ما أجمع عليه مشايخ الطريق المقتدى بهم (...)؛بل لما تكلم الحكيم الترمزي في كتاب " خَتْمِ الْأَوْلِيَاءِ " بِكَلَامِ ذكر أَنَّهُ يكون فِي آخر الْأَوْلِيَاءِ مِنْ هوَ أَفْضلُ من الصَّحَابةِ وربَّما لَوَّحَ بِشَيءٍ من ذكرِ الْأَنْبِيَاءِ – قام عَليهِ الْمُسْلِمُونَ وأنكرُوا ذلكَ عليهِ ونَفَوهُ من البلد بِسَبَبِ ذَلِكَ ولا ريبَ أَنَّهُ تكلّم فِي ذلكَ بكَلَامِ فاسدٍ باطلٍ لا ريبَ فِيهِ . ومنْ هنَاك ضلّ منْ اتَّبَعَهُ في ذلك حتَّى صارَ جَماعاتٌ يدّعي كُلُّ واحدٍ أَنَهُ خاتَمُ الْأَوْلياء كَابْنِ عربي صاحبِ " الْفُصُوصِ " وَسَعْدِ الدِّينِ بْنِ حَمّويْهِ وغيرهمَا[٣٧١]

رأى أبواسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور من كورة بلخ " في البادية رجلاً علمه اسم الله الأعظم

فدعا به بعده ، فرأى الخضر عليه السلام وقال : إنما علمك أخي داود اسم الله الأعظم"[٣٧٢]

ويحكي عبد الصمد زين الدين الأحمدي في كتابه الجواهر السنية في الكرامات الأحمدية أن ابن دقيق العيد ذهب إلى طنطا موفداً من الظاهر بيبرس للوقوف على اعتقاد السيد البدوي فأخطأ في حقه فألفى نفسه في جزيرة واسعة ولم يعلم لها

---

[٣٧١] ابن تيمية :رسالة في الباطن والظاهر

[٣٧٢] القشيري(أبوالقاسم عبد الكريم بن هوازن ٣٧٦ـ ٤٦٥هـ):الرسالة القشيرية في علم التصوف ص ١٣ ط.محمد علي صبيح، القاهرة،١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.

طولاً ولا عرضا فأخذ يبكي "فظهر له الخضر عليه السلام فأخبره ابن دقيق العيد بما حدث له مع السيد البدوي ، فقال له الخضر : وقعت في أمر عظيم ؛ أتدري كم بينك وبين القاهرة ؟ قال : لا والله . قال : بينك وبينها ستون سنة ١ فقال له أرشدني يرحمك الله، فأخذ الخضر بيده وأراه قبة كبيرة ، وقال له : أترى هذه القبة ؟ اذهب إليها واجلس فيها فإن سيدي أحمد البدوي يصلي فيها...."[٣٧٣]وقد حدث ما حكاه الخضر وأرجعه البدوي إلى بيته في مصر ، وتهدف هذه الكرامة إلى إثبات أن مكانة البدوي تفوق منزلة الخضر ولعل لفظ "سيدي" توضح ذلك بلا شك.

بلال الخواص يقول:"كنت في تيه بني إسرائيل فإذا رجل يماشيني ،فتعجبت منه ،ثم ألهمت أنه الخضر عليه السلام ،فقلت بحق الحق من أنت؟ فقال أخوك الخضر، فقلت له أريد أن أسألك فقال سل ، فقلت:ما تقول في الشافعي رحمه الله؟ فقال [هو] من الأوتاد .فقلت ما تقول في أحمد بن حنبل رضي الله عنه؟ قال رجل صديق.قلت فما تقول في بشر بن الحارث الحافي؟ فقال لم يخلق بعده مثله. فقلت بأي وسيلة رأيتك؟ فقال ببرك لأمك."[٣٧٤]

وقد روى ابن كثير أن"سلمة بن شبيب قال " كنا عند أحمد بن حنبل وجاءه شيخ ومعه عكازه فسلم وجلس فقال : من منكم أحمد بن حنبل؟ فقال أحمد : أنا ما حاجتك؟،فقال : ضربتُ إليك من أربعمائة فرسخ ، أريت الخضر في المنام فقال لي : سر إلى أحمد بن حنبل وسل عنه ، وقل له :إ، ساكن العرش والملائكة راضون بما صبرت عن نفسك لله عز وجل"[٣٧٥]

لكن أجمل ما روي في هذا المجال ما رواه القشيري " أن بعضهم قيل له: ما أعجب ما لقيت في سياحتك؟ فقال : لقيني الخضر ، فطلب مني الصحبة ، فخشيت أن يفسد عليّ توكّلي."[٣٧٦]وواضح من هذه الكرامة التي ربما كانت وحيدةً في بابها أن مبدعها المجهول ودّ أن ينفرد بنص إبداعي جديد مخالف لكل النصوص السابقة التي جعلت رؤية الخضر أمنيةً ، ومصاحبته للتعلم منه درجةً تُعدّ من أرفع الدرجات؛ فإذا كان موسى يقول في أدب . وهو رسول . :{هل اتبعك

---

[٣٧٣]عبد الصمد زين الدين الأحمدي في كتابه الجواهرالسنية في الكرامات الأحمدية ص ٣٩

[٣٧٤]القشيري:الرسالة القشيرية ص ١٩

[٣٧٥] ابن كثير، أبوالفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ت ٧٧٤هـ:البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٥٧ تحقيق د.أحمد أبو ملحم وآخرين، ط.دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥

[٣٧٦]القشيري: الرسالة القشيرية ص ٨٧

على أن تعلمني مما عُلمت رشدا}[٣٧٧] إلا أن هذا الولي هو الذي يرجوه الخضر أن يقبل صحبته لكنه يأبى !

ومن الحكايا القريبة مما أوردته آنفا ما يحكيه المقري التلمساني في نفح الطيب عن الشيخ أبي محمد عبد الله المغاور، الذي "تزوج رحمه الله تعالى بنساء حدثن عنه بكرامات، ومنهنّ أم القطب القسطلاني، وحكت أنها خرجت عنه يوماً لحاجتها، ثم عادت فسمعت عنده في طبقته حسّ رجل، فتوقفت وافتقدت الباب فوجدته

مغلقاً، فلمّا انقطع الكلام دخلت إليه، فإذا هو وحده كما تركته، فسألته عن ذلك، فقال: هو الخضر دخل علي وفي يده حية فقال: هذه جئتك بها من أرض نجد، وفيها شفاء مرضك[الجذام] فقلت: لا أريد، اذهب أنت وحيتك لا حاجة لي بها"

والروايتان تسيران في نسق واحد؛ وقد يجيء الخضر ليفض نزاعاً بين وليين ؛ "قال أبوالحديد : سمعت المظفر الجصاص يقول:كنت أنا ونصر الخراط في موضع فتذاكرنا شيئا من العلم؛ فقال الخراط:إن الذاكر لله تعالى فائدته في أول ذكره أن يعلم أن الله تعالى ذكره فبذكر الله ذكره ؛ قال فخالفته ؛ فقال: لو كان الخضر عليه السلام ههنا لشهد بصحته. قال فإذا نحن بشيء يجيء بين السماء والأرض حتى بلغ إلينا وسلم ؛وقال: صدق ، الذاكر لله تعالى بفضل ذكر الله تعالى له ذكره ، فعلمنا أنه الخضر عليه السلام "[٣٧٨] وفي هذه الكرامة نلمح رؤية جديدة لماهية الخضر فهو شيء ناطق يجيئ بين السماء والأرض ؛ وهذه الشيئية المبهمة هي التي تحفز ذهن المتلقي على التخيل ومن ثَمّ على المشاركة في الإبداع الروائي ناهيك عن مجيء هذا الشيء بين السماء والأرض في امتداد لانهائي .

كما أن هذه الكرامة ربما تكون منبعاً للمعتقد الشعبي الذي يؤمن أن مجرد ذِكر الخضر في أي مجلس حتى لو كان بينك ونفسك فهذا دليل على مرور الخضر في التوّ واللحظة ، ولذلك يقف المتصوفون لحظة ذكره إجلالاً وتقديراً له ملوحين له بأيديهم ورادّين عليه السلام:وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وقد سلك هذا السبيل بعض الصوفية، "فزعموا أن الخضر وإلياس حيّان إلى اليوم وادعى بعضهم أنه يلقى إلياس في الفلوات ، والخضر في المروج والرياض ، وأنه

---

[٣٧٧] القرآن الكريم

[٣٧٨] القشيري :الرسالة القشيرية ص ٢٩٨

متى ذُكر الخضر حضر على ذكراه ، فإن ذكر في شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها ، وفي ألف موضع في دقيقة واحدة كيف يصنع ؟ وقد لقينا من يذهب إلى هذا خلقاً ، وكلمناهم ، منهم المعروف بابن شق الليل المحدث بطلبيرة ، وهو مع ذلك من أهل العناية وسعة الرواية ؛ ومنهم محمد بن عبد الله الكاتب ، وأخبرني أنه جالس الخضر وكلمه مراراً ، وغيره كثير ."[٣٧٩]

وقد أورد السبتي حكايا كثيرة عمن قابلوا الخضر[٣٨٠] وممن لقي الخضر عليه السلام أبومحمد خميس بن زَرج الرجراجي الأسود [٣٨١]وأبوالقاسم الطهطاوي الذي اعتزل الناس شهوراً لا يأكل إلا من عشب الأرض " وذات يوم حينما فرغ من صلاته وجد شخصاً واقفاً خلفه ، ومعه طعام فقدمه له ، وقال له : كل وارجع إلى بلدك فقد أذن لك في الأكل ، وحان وقتك ، فقال له : من أنت؟ فقال : أنا أخوك الخضر"[٣٨٢]

وأبوالحسن الشاذلي يحكي أنه التقى بالخضر واستبدل له بعض الدراهم التي ردها إليه بائع الخبز مما جعله يرهن ملابسه وقال له :"أنا أحمد الخضر ، كنت بالصين فقيل لي : أدرك علياً بتونس فقمت مبادراً إليك ."[٣٨٣]

وذكر أبوالعباس المرسي أن "الخضر عليه السلام حي ، وقد صافحته بكفي هذه ، وأخبرني أن كل من قال كل صباح : اللهم اغفر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم أصلح أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، اللهم تجاوز عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم ،اللهم اجعلنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، صار من الأبدال ، فعرض بعض الفقراء ذلك على الشيخ أبي الحسن الشاذلي فقال : صدق أبوالعباس."[٣٨٤] وأضاف المرسي "وقد دخل عليّ الخضر عليه السلام مرةً وعرفني بنفسه ، واكتسبت منه معرفة أرواح المؤمنين بالغيب هل هي معذبة أو منعمة ؟

---

[٣٧٩]عبد اللطيف السيد سالم : التوسل بالأولياء ص ١٦٣يجدر أن أشير إلى ورود أحاديث منسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم عن لقاء الخضر وإلياس ضعّفها جمهور العلماء ؛ منها أنهما "يصومان شهر رمضان ببيت المقدس ويحجان في كل سنة ويشربان من ماء زمزم شربه واحدة تكفيهما إلى مثلها من قابل" و""إن الخضر وإلياس لايزالان حيين في الأرض..."وغير ذلك

[٣٨٠] السبتي ص ص٥٦-٥٨ ص٧٧

[٣٨١]ابن الزيات :التشوف إلى رجال التصوف ص ١١٣

[٣٨٢]محمد عبده الحجاجي : شخصيات صوفية في صعيد مصر في العصر الإسلامي ص ١٤٥ ط.الأقصر ١٩٩٠

[٣٨٣]أحمد حامد عبد الكريم : أبوالحسن الشاذلي ص١٢-١٣ ط.مكتبة جمهورية مصر ، القاهرة ١٩٧٧.

[٣٨٤]النبهاني (يوسف بن اسماعيل ١٢٦٥-١٣٥٠هـ):جامع كرامات الأولياء جـ ١ ص ٥٢١ تحقيق إبراهيم عطوة ، الطبعة الثالثة ،ط. الحلبي ، القاهرة ١٤٠٤هـ=١٩٨٤م.

فلو جاءني الآن ألف فقيه يجادلونني في ذلك ويقولون بموت الخضر مارجعت إليهم."[٣٨٥]

ويروي الشيخ الصاوي أن "المسبعات العشر تروى عن الخضر – عليه السلام– فإنه أهداها إلى أبي موسى إبراهيم بن زيد التيمي ووصاه أن يقولها قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وقال أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم (...)وأن التيمي رأى النبي صلى الله عليه وسلم وسأله عن ذلك فقال صدق الخضر."[٣٨٦] وقد لحظت أنهم يسألون النبي عن صدق أقوال الخضر وهو شيء غريب!

وأبومحمد عبد الحق بن الخير الذي يحكي :" خدمت بمكة شيخاً من المجاورين مدة فقال لي يوماً: أتريد أن ترى الخضر عليه السلام ؟ فقلت له من لي بهذا ؟ فقال : هو رجل طوال ، من صفته كذا وكذا ، فقلت له :أرنيه. فقال لي :لا يمكنني ذلك ولكن ارقب هذه الصفة عند الطواف ، فإذا رأيت رجلاً على هذه الصفة فهو كذلك. فبقيت طول الليل أتوسم الوجوه. فلما كان وقت السحر رأيت رجلاً على الصفة التي وصف لي .فدنا مني حتى تأملته . فلم أقدر أن أكلمه فقمت أدنو منه وهو يمشي القهقرى ، وأنا أدنو منه وهو يبعد عني ، وأهاب أن أكلمه ،ولم أطق أن ألحقه حتى خرج من باب إبراهيم عليه السلام، فخرجت في أثره . فنظرت يميناً وشمالاً فلم أره . فعدت إلى الشيخ وقلت له : رأيت رجلاً من صفته كذا وكذا . فقال لي : هو ذاك"[٣٨٧]

"وأخبرني بعض الثقة قال حضرت مجلس أبي عمران[٣٨٨]ليلة، فوعظنا ، ثم قال : إن الخضر أخبرني أن الله قد غفر لأهل هذا المجلس إلا من كان في قلبه شك."[٣٨٩] ؛ وحدث أبوزيد عبد الرحمن قال : حدثني أبو عبد الله العمراني[٣٩٠] قال:"بتّ ليلة في رابطة مقفرة على ساحل البحر ، فكنت أصلي بها الليل إلى أن رأيت بالمسجد نوراً عظيماً ظهر منه جميع ما كان في المسجد. فإذا أنا بشخص قد دخل الرابطة ، فاستقبل القبلة وكبر للصلاة ، فأقبل كل منا على تهجده إلى

---

[٣٨٥]النبهاني (يوسف بن اسماعيل ١٢٦٥-١٣٥٠هـ):جامع كرامات الأولياء جـ١ص٥٢١

[٣٨٦]الصاوي (أحمد) : الأسرار الربانية والفيوضات الرحمانية على الصلوات الدرديرية ص٤ط.صُبيح ، القاهرة ، د.ت

[٣٨٧]ابن الزيات :التشوف إلى رجال التصوف ص ٢٢٩

[٣٨٨]موسى ابن وجادير الدكالي.

[٣٨٩]ابن الزيات :التشوف إلى رجال التصوف ص ٤٣٨

[٣٩٠]أبو عبد الله محمد ابن علي العمراني.

السحر. ثم قعدنا نتحدث ؛ فقلت له : من يكون ذلك ؟ فقال لي : هو الخضر عليه السلام.[٣٩١] ؛ وقد أخذ الشيخ عبد العزيز الدباغ الأوراد عن رجل لم يعرفه ولكن الشيخ عمر بن محمد الهواري قال له "عند خروج روحه وانتقاله إلى الآخرة :أتدري من الرجل الذي لقنك الذكر عند السدرة المحررة ؟ فقلت :لا يا سيدي . فقال : هو الخضر عليه السلام" [٣٩٢]

وقد بنى الشيخ عز العرب الهواري ساحة ومسجدا ومدرسة ومستشفى في مكان كان مُلقى القمامة وقد أوضح في مقابلة معه أجرتها المستشرقة الأمريكية Valerie Hoffmanسبب بنائه كل ذلك " أن رجلاً وقف فوق القمامة وأخذ يؤذّن ؛ ثم طرق بابي فخرجت إليه ودعوته للدخول ثم قدمت له الطعام ، وأمرني ببناء مسجد ؛ وعندما أبصرته زوجتي قالت إنها رأته البارحة في المنام ؛ وهو الخضر ، ولذلك يعتقد أن الأمر من الله عن طريق الخضر .[٣٩٣] وحول اسم الله الأعظم ومعرفة الخضر به ينقل السلمي عن إبراهيم بن أدهم أنه "قص أنه لقي الخضر ، وتعلم منه اسم الله الأعظم .[٣٩٤] ومن الأدعية المتواترة عن الخضر : قال الزمخشري :إن اسم الله الأعظم : يا حي يا قيوم ، وقيل : يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت ، وقيل : يا ذا الجلال والإكرام ، وعن الحسن رضي الله عنه : الله والرحمن"[٣٩٥]

واسم الله الأعظم الذي يرى الصوفيون أن الخضر عارفه أعطى الخضر منزلة ومهابة تفرد بها؛ وهذا جعل الخيال الشعبي يشكّله على صورة العارف الأوحد الذي أُلهم الأسرار دون سواه.

وقال أبو طالب المكي :"روينا عن عطاء عن ابن عباس قال : يلتقي الخضر وإلياس[٣٩٦] في كل موسم ،فيفترقان عن هذه الكلمات:بسم الله ،لا قوة إلا بالله ، ماشاء الله ،كل نعمة من الله ما شاء الله ، الخير كله بيد الله ، عز وجل ما شاء

---

[٣٩١]ابن الزيات :التشوف إلى رجال التصوف ص٤٤٦-٤٤٧

[٣٩٢]الإبريز الذي تلقاه نجم العرفان الحافظ سيدي أحمد بن المبارك عن قطب الواصلين سيدي عبد العزيز الدباغ ص ٨.

[393] **Hoffman, Valerie :Sufism, Mystics and Saints in Modern Egypt, the University of South Carolina .USA 1995,P177**

[٣٩٤]السُّلَمي :(أبوعبد الرحمن ٣٣٠؟-٤١٢هـ):طبقات الصوفية ص ١٢ تحقيق أحمد الشرباصي ، ط. الشعب ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ.

[٣٩٥]الزمخشري(أبوالقاسم جارالله محمود بن عمر الخوارزمي ٤٦٧-٥٣٨هـ):الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ج ٢ص٤٩٠

[٣٩٦] ابن كثير : قصص الأنبياء ص٤٦٢

الله ،لا يصرف السوء إلا الله ما شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . فمن قالها إذا أصبح ثلاث مرات أمِن من الحرق والغرق والسَّرق.

ويقال :إن هذا من استغفار الخضر :اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبتُ إليك منه ثم عدتُ فيه...(...)[٣٩٧]الخ

وقد حكى الدرقاوي "أن نفسي قالت لي :سيستند على ذلك العود سيدنا الخضر عليه السلام ، وإذا برجل مستند عليه كما قالت لي نفسي ، وهو ينظر إلي نظراً جميلاً فاستعظمته ، وحصلت لي منه هيبة عظيمة ، وترجح لي أنه هو –عليه السلام– فانصرف عني ، ثم قمت وراءه فلم نجده."[٣٩٨]

ويستمد الخضر سلطانه من خلال العلم اللدني الذي أوتيه و"العلم اللدني: علم الصوفية ، وهو سريان الإلهام ، ويكون لأهل النبوة والولاية كما حصل لموسى عليه السلام مع العبد الصالح"[٣٩٩] ويعرف ابن القاري العلم اللدني بأنه"علم الباطن إلهاما"[٤٠٠] كما أن استئثاره بمعرفة اسم الله الأعظم الذي إن دُعي به أجاب جعل الصوفيين يتوقون شوقا لرؤياه ومصاحبته والتوسل بدعائه والإفادة بإرشاده وتعليمه .

وفي قصص لقاءات الخضر تكاد تكون النهاية واحدة وهي اختفاء الخضر دون أن يترك أثرا، ليظهر من جديد في مكان آخر مُلبيا من يحتاج إلى مساعدته أو مُنصّبا وليا جديدا، أو رادّا على من يشكك في أحد من أولياء الله أو من يشكك في بقائه هو ، بحيث يتوقع المتلقي حين قراءته الأحداث أن مُخلّصا سيظهر على الساحة لينهي المشكلة بطريقة سريعة خارقة للعادات ، والأحداث في هذي الحكايا ممسرحة لاتهتم إلا بما يخدم النص ويلقي الضوء على الحدث الرئيس في الحكاية ، فالأمكنة تُذكر إذا كانت مرتبطة بالمشكلة ، والأزمنة تُحدّد وقتما تكون مساعدة لا يمكن الاستغناء عنها وإلا فقد الحدث دهشته وفجاءته.

---

[٣٩٧]أبوطالب المكي : قوت القلوب ص٣١.

[٣٩٨] الدرقاوي الحسني(مولاي العربي ت ١٢٣٩هـ): مجموعة رسائل ص ٣٣٦تحقيق بسام محمد بارود، ط. المجمع الثقافي ،أبوظبي ١٩٩٩

[٣٩٩]د. عبد الستار عز الدين الراوى : التصوف والبارسايكولوجى ، مقدمة أولى فى الكرامات الصوفية والظواهر النفسية الفائقة ص٣٧،ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٩٤.

[٤٠٠] الهروي، الملا علي بن سلطان محمد القاري ت ١٠١٤هـ: الحذر في أمر الخضر ص ٨٣

ولم يقتصر لقاء الخضر بالصوفيين فقط بل تعداه لذوي الحاجات في سائر العالم الذين يحكون ما رأوه من مساعدة " يحكي أحد الأتراك عما حدث معه في أثناء الحرب الكوريّة ، قال "عندما كنت أخدم في الفرقة التّركيّة في كوريا [مرشدنا تذكّر]، كان معي جنديّ تركيّ من قريتي وُوجِهَ من قِبل أربعة جنود صينيّين، أمروه أن يلقي أسلحته بعيداً أو سيقتلونه . صاح الشّابّ، يا هيزير !و هيزير [يا خضر] فجأة بدا كأنه ١٠٠ جنديّ فيى عيون الجنود الصينيّين الأربعة. كانوا مرعوبين جدًّا لدرجة أن التّركيّ كان قادرًا على أن يأخذهم جميعا اسرى . كافأه الأمريكيّون على شجاعته في ذلك اليوم، ومُنح إجازة ومنح ٤٠,٠٠٠ ليرةً وسافر إلى قرية إيزيس بفضل هيزير . وقد بُني كوبري كبير هناك بالقرية بهذا المال"[٤٠١]

وقد ساعدت كثرة هذه القصص على تواترها عبر الأزمنة ، كما أن الخلاف حول تصديقها مشتد أيضا.

٤-٢ ابن عربي والخضر :

وجد ابن عربي في الخضر مدخلا للتأويل فغدا الخضر عنده منظومة من المعاني وألفى في القرآن الكريم ما أكد به وجهة نظره في تقسيمه للعلوم الظاهرية والباطنية ؛ فاتجه أولا لتفسير الآيات القرآنية حول لقاء موسى والخضر، ففسرها عدة تفسيرات؛ تفسير ظاهري وآخر باطني وثالث جمع بينهما.

فالخضر عنده خضر الظاهر وخضر الباطن ، ويبدو أن زمنية تأليف هذه التفسيرات والتأويلات جاءت متباينة تابعة لأحوال ابن عربي ومقاماته ومشاهداته؛ في تفسير ابن عربي للآيات القرآنية ينحو منحى باطنيا معتمداً على التأويل الذي يتقنه ويكاد يتفرد به دون أقرانه ، وأدوات ابن عربي النقدية تعينه على إبداع ما يراه دون رجوع إلى مصدر نقلي ، وقد وجد في تصرفات الخضر ما شجعه على استبطان المعاني التي تؤول النص تأويلا قابلا للاختلاف أو الاتفاق.

سآخذ هنا ابن عربي أنموذجا لتأويل الآيات، والخروج إلى فضاء الرمز والتخيل والإبداع مع إضفاء القداسة على ما يقول، وقد وقف ابن عربي موقف المفتخر

401 Warren S. Walker and Ahmet E. Uysal:*An Ancient God in Modern Turkey:Some Aspects of the Cult of Hizir*,Journal of American Folklore,By Texas Tech University, Lubbock, Texas, 86 (1973)

بما وصل إليه ، يقول: "وإذ قال موسى لفتاه"، ظاهره على ما ذكر في القصص، ولا سبيل إلى إنكار المعجزات، وأما باطنه فإن يقال: وإذ قال موسى القلب لفتى النفس، وقت التعلق بالبدن: لا أبرح، أي، لا أنفك عن السير والمسافرة ، أو لا أزال أسير "حتى أبغ مجمع البحرين" أي، ملتقى العالمين: عالم الروح، وعالم الجسم، وهما العذب والأجاج في صورة الإنسانية ، ومقام القلب " أو أمضي حقبا، أي أسير مدة طويلة"[٤٠٢]

وابن عربي هنا يؤول الآيات تأويلا يخرجها من سياق الظاهر إلى سر الباطن الذي يراه ويصرح أنه متفرد به فالبحران هما عالما الروح والجسد ؛ ويبدأ ابن عربي في تخيل رموز الحوت والصخرة والغداء ...الخ ويتكئ ابن عربي على مخزونه الإبداعي ليولد رموزا جديدة قد لا يتطلبها السياق.

ويمضي ابن عربي في استبطان المعنى وفق رؤيته""فانطلقا حتى إذا ركبا" في سفينة البدن البالغ إلى حد الرياضة الصالح للعبودية، إلى العالم القدسي في بحر الهيولى للسير إلى الله "خرقها"، أي، نقصها بالرياضة وتقليل الطعام، وأضعف أحكامها، وأوقع الخلل في نظامها وأوهنها "قال أخرقتها لتغرق أهلها" أي، أكسرتها لتغرق القوى الحيوانية، والنباتية التي فيها في بحر الهيولى فتهلك "لقد جئت شيئا

---

[٤٠٢] ابن عربي، محيي الدين ت٦٣٨هـ : تفسير القرآن الكريم ج١ ص ٧٦٦-٧٦٧ تحقيق د.مصطفى غالب ، ط.الأندلس ، بيروت ١٩٩٣ ويستطرد ابن عربي قائلا:" "فلما بلغا مجمع بينهما"، في الصورة الحاضرة الجامعة "نسيا حوتهما" هو الحوت الذي ابتلع ذا النون عليه السلام بالنوع لا بالشخص، لأن غذاءهما كان قبل الوصول إلى هذه الصورة في الخارج من ذلك الحوت، الذي أمر بتزوده في السفر وقت العزيمة، فاتخذ سبيله، في بحر الجسد حيا، كما كان أولا "سربا"، نقبا واسعا، كما قيل: بقي طريقه في البحر منفرجا لم ينضم عليه البحر "فلما جاوزا" مكان مفارقة الحوت، وألقي على موسى النصب والجوع، ولم ينصب في السفر، ولا جاع قبل ذلك، على ما حكي، تذكر الحوت والإغتذاء منه، وطلب الغداء من فتاه، وإنما قال: "آتنا غداءنا"، لأن حاله ذلك نهاراً بالنسبة إلى ما قبله في الرحم، "لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا"، هو نصب الولادة ومشقتها "قال أرأيت" ما عراني، إذ أوينا إلى الصخرة، أي النحر للإرتضاع ، فإني نسيت الحوت، لاستغنائنا عنه ، "وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره"، أي، وما أنساني أن أذكره إلا الشيطان، على أبدال أن أذكره من الضمير، وذلك موسى كان راقدا حين اتخذ الحوت سبيله في البحر على ما قيل، وفتى النفس يقظان، فأنسى شيطان الوهم الذي زين الشجرة لآدم ذكر النفس الحوت لموسى، لكون الحال حال ذهول، والسبيل المتعجب منه هو السرب المذكور ، قال ذلك" أي ، تملص الحوت، واتخاذه سبيله، الذي كان عليه في جبلته "ما كنا" نطلبه، لأن هناك مجمع البحرين الذي وعد موسى عنده بوجود من هو أعلم منه، إذ الترقي إلى الكمال بمتابعة العقل القدسي لا يكون إلا في هذا المقام" فارتدا على آثارهما" في الترقي إلى مقام الفطرة الأولى كما كانا أولا يقصان "قصصا" أي ، يتبعان آثارهما عند الهبوط في الترقي إلى الكمال حتى وجدا العقل القدسي، وهو عبد من عباد الله مخصوص بمزية عناية ورحمة "آتيناه رحمة من عندنا" أي، كمالا معنويا بالتجرد عن المواد، والتقدس عن الجهات، والنورية المحضة، التي هي آثار القرب والعندية"وعلمناه من لدنا علما، من المعارف القدسية، والحقائق الكلية اللدنية، بلا واسطة تعليم بشري.

وقوله: "هل اتبعك" هو ظهور إرادة السلوك، والترقي إلى الكمال "إنك لن تستطيع معي صبرا" لكونك غير مطلع على الأمور الغيبية، والحقائق المعنوية لعدم تجردك، واحتجابك بالبدن وغواشيه، فلا تطيق مرافقتي، وهذا معنى قوله :"وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا قال ستجدني إن شاء الله صابرا"، لقوة استعدادي، وثباتي على الطلب، "ولا أعصي لك أمرا"، لتوجهي نحوك، وقبولي أمرك لصفائي، وصدق إرادتي، والمقاولات كلها بلسان الحال " فإن اتبعتني" في سلوك طريق الكمال،"فلا تسألني عن شيء"، أي، عليك بالاقتداء والمتابعة في السير بالأعمال والرياضات، والأخلاق، والمجاهدات، ولا تطلب الحقائق والمعاني "حتى" يأتي وقته فـ "أحدث لك منه" أي، من ذلك العلم" ذكرا" وأخبرك بالحقائق الغيبية عند تجردك بالمعاملات القالبية، والقلبية."السابق

إمرا" وهذا الإنكار عبارة عن ظهور النفس بصفاتها، وميل القلب إليها، والتضجر عن حرمان الحظوظ في الرياضة، وعدم القناعة بالحقوق."قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا، تنبيه روحي، وتحريص قدسي على أن العزيمة في السلوك يجب أن تكون أقوى من ذلك "قال لا تؤاخذني بما نسيت" إلى آخره. اعتذار في مقام النفس اللوامة"[٤٠٣].

وهنا ينحو ابن عربي نحو الإغراق في التصوير والترميز والانزياح ، وقد يتعارض كما نرى مع ما رآه أهل الظاهر إلا أنه لا يأبه بذلك فهو يرى مالا يرونه.

ويستطرد قائلاً"فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما" هو النفس التي تظهر بصفاتها فتحجب القلب، فتكون أمّارة بالسوء. وقتله بإماتة الغضب والشهوة، وسائر الصفات "أقتلت نفسا زكية"، اعتراض لتحنن القلب على النفس و "ألم اقل لك" ، تذكير، وتعبير روحي و"إن سألتك عن شئ " إلى آخره، اعتذار، وإقرار بالذنب، واعتراف، وكلها من التلوينات عند كون النفس لوّامة.

"فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية"، هم القوى البدنية، واستطعامهما منهم، هو طلب الغذاء الروحاني منهم، أي ، بواسطتهم كانتزاع المعاني الكلية من مدركاتها الجزئية، وإنما أبوا أن يضيفوهما، وإن أطعموهما قبل ذلك، لأن غذاءهما حينئذ كان من فوقهم من الأنوار القدسية، والتجليات الجمالية والجلالية، والمعارف الإلهية، والمعاني الغيبية، لا من تحت أرجلهم كما كان قبل خرق السفينة، وقتل الغلام بالرياضة، والقوى والحواس مانعة من ذلك لا ممدة، بل لا تتهيأ إلا بعد نعاسهم وهدوئهم ، كما قال موسى لأهله: "أمكثوا"

والجدار الذي "يريد أن ينقض" هو النفس المطمئنة ، وإنما عبر عنها بالجدار لأنها حدثت بعد قتل النفس الأمارة وموتها بالرياضة، فصارت كالجماد غير متحركة بنفسها وإرادتها، ولشدة ضعفها كادت تهلك ، فعبر عن حالها بإرادة الانقضاض وإقامته إياها، تعديلها بالكمالات الخلقية، والفضائل الجميلة بنور القوة النطقية، حتى قامت الفضائل مقام صفاتها من الرذائل.

وقول موسى عليه السلام: لو شئت لاتخذت عليه أجرا"، تلوين قلبي، لا نفسي، وهو طلب الأجر والثواب، باكتساب الفضائل واستعمال الرياضة، ولهذا أجابه

---

[٤٠٣] ابن عربي، محيي الدين ت٦٣٨هـ : تفسير القرآن الكريم ج١ ص ٧٦٨-٧٦٩

بقوله: "هذا فراق بيني وبينك" أي، هذا هو مفارقة مقامي ومقامك ومباينتهما ، والفرق بين حالي وحالك، فإن عمارة النفس بالرياضة، والتخلق بالأخلاق الحميدة ليست لتوقع الثواب والأجر، وإلا فليست فضائل ولا كمالات، لأن الفضيلة هي التخلق بالأخلاق الإلهية، بحيث تصدر عن صاحبها الأفعال المقصودة لذاتها لا لغرض، وما كان لغرض فهو حجاب ورذيلة لا فضيلة، والمقصود هو طرح الحجاب، وانكشاف غطاء صفات النفس، والبروز إلى عالم النور، لتلقي المعاني الغيبية، بل الاتصاف بالصفات الإلهية، بل التحقق بالله بعد الفناء فيه، لا الثواب كما زعمت"[٤٠٤]

ويمضي ابن عربي في تأويل التأويل الذي ساقه وتبدو المهمة صعبة لكنها ليست مستحيلة لدى إبداع ابن عربي ""سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا"، أي ، لما اطمأنت النفس، واستقرت القوى، أمكنك قبول المعاني، وتلقي الغيب الذي نهيتك عن السؤال عنه، حتى أحدث لك منه ذكرا، فأذكر لك، وأنبئك بتأويل هذه الأمور إذا استعددت لقبول المعاني، والمعارف.

"أما السفينة فكانت لمساكين" في بحر الهيولى، أي القوى البدنية من الحواس الظاهرة،والقوى الطبيعية النباتية، وإنما سماها مساكين لدوام سكونها، وملازمتها لتراب البدن، وضعفها عن ممانعة القلب في السلوك والاستيلاء عليه كسائر القوى الحيوانية، وحكي: أنهم كانوا عشرة إخوة، خمسة منهم زمني، وخمسة يعملون في البحر، وذلك إشارة إلى الحواس الظاهرة والباطنة "فأردت أن أعيبها" بالرياضة لئلا يأخذها ملك النفس الأمارة غصبا، وهو الملك الذي كان وراءهم ، أي، قدامهم "يأخذ كل سفينة غصبا" بالاستيلاء عليها، واستعمالها في أهوائه، ومطالبه.

"وأما الغلام فكان أبواه" اللذان هما: الروح، والطبيعة الجسمانية "مؤمنين" مقرين بالتوحيد لانقيادهما في سلك طاعة الله، وامتثالهما لأمر الله، وإذعانهما لما أراد الله منهما، "فخشينا أن يرهقهما" أي، يغشيهما "طغيانا" عليهما، بظهوره بالإنائية عند شهود الروح، "وكفرا"، لنعمتهما بعقوقه، وسوء صنيعه، أو كفرا بالحجاب فيفسد عليهما أمرهما ودينهما، ويبطل عبوديتهما لله "فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة"، كما بدلهما بالنفس المطمئنة ، التي هي خير منه زكاة، أي ، طهارة

---

[٤٠٤] السابق

ونقاء وأقرب رحما، تعطفا ورحمة، لكونها أعطف على الروح والبدن، وأنفع لهما، وأكثر شفقة ، ويجوز أن يكون المراد بالأبوين: الجد والأب فكان كناية عن الروح والقلب، وكونه أقرب رحما، أنسب لهما وأشد تعطفا.(...)"وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة، أي العاقلتين : النظرية، والعملية ، المنقطعتين عن أبيهما الذي هو روح القدس، لاحتجابهما عنه بالغواشي البدنية، أو القلب الذي مات أو قتل قبل الكمال باستيلاء النفس في مدينة البدن" وكان تحته كنز لهما" أي ، كنز المعرفة التي لا تحصل إلا بهما في مقام القلب، لإمكان اجتماع جميع الكليات والجزئيات فيه بالفعل وقت الكمال، وهو حال بلوغ الأشد، واستخراج ذلك الكنز ، وقال بعض أهل الظاهر من المفسرين: كان الكنز صحفا فيها علم " وكان أبوهما " على كلا التأويلين "صالحا" وقيل: كان أبًا أعلى لهما، حفظهما الله له. فعلى هذا لا يكون إلا روح القدس"[٤٠٥]

وهنا يخرج ابن عربي على سياق الظاهر الذي رأى في الرمز قناعا يخفي وراءه أحواله وإبداعه ، وكما ذكرت فإن الخضر أغوى ابن عربي في إظهار باطن أسراره ، والخضر متعدد الزوايا والرؤى عند ابن عربي ، وقد منحه التأويل فرصة لشرح ما ودّ أن يشرحه مرتديا قناع الخضر ، ومتخذا من التناقض الظاهري الذي بدا في موقفيْ موسى والخضر ما ساعده على تقمص دور المبدع والشارح والعارف.

وفي موقف آخر يتحدث ابن عربي عن الخضر من زاوية أخرى "أراه الخضر قتل الغلام فأنكر عليه قتله ولم يتذكر قتله القبطي ، فقال له الخضر {ما فعلته عن أمري}ينبهه على مرتبته قبل أنه كان معصوم الحركة في نفس الأمر وإن لم يشعر بذلك ، وأراه أيضا خرق السفينة التي ظاهرها هلاك وباطنها نجاة من يد الغاصب ، جعل له ذلك في مقابلة التابوت له الذي كان في اليم مطبقاً عليه ، (...) فأراه الخضر إقامة الجدار من غير أجر فعتبه على ذلك ، فذكره سقايته من غير أجر"[٤٠٦]

في معرض حديث ابن عربي عن موسى عليه السلام والعبد الصالح يؤكد ابن عربي أكثر من مرة أن العبد الصالح المورود ذكره في الآيات القرآنية هو الخضر

---

[٤٠٥] ابن عربي، محيي الدين ت٦٣٨هـ : تفسير القرآن الكريم ج١ ص ٧٦٦-٧٧٣ تحقيق د.مصطفى غالب ، ط.الأندلس ، بيروت ١٩٩٣

[٤٠٦] ابن عربي :فصوص الحكم ص٦٦-٦٧

"حينئذ يمنحه الله تعالى ويعطيه العلم به والأسرار الإلهية والمعارف الربانية التي أثنى الله سبحانه بها على عبده خضر فقال {عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما}[٤٠٧]

يسوق لنا ابن عربي عدة حكايات[٤٠٨] عن لقائه بالخضر ومحادثته له بل إن الخضر يقوم بدور المعلّم كما قام بالدور نفسه ـ من قبل ـ موسى عليه السلام ، وقد عقد ابن عربي باباً عن الخضر يحكي فيه عن "معرفة وتد مخصوص معمر وأسرار الأقطاب المختصين بأربعة أصناف من العلوم وسر المنزل والمنازل ومن دخله من العالم" ويقول ابن عربي :إن الأمور لها حد ومطلع من بعد ظهر وبطن فيه تجتمع

إعلم – أيها الولي الحميم، أيدك الله ! أن هذا الوتد هو خضر، صاحب موسى عليه السلام، أطال الله عمره الآن. وقد رأينا من رآه. واتفق لنا في شأنه أمر عجيب . وذلك أن شيخنا أبا العباس العريبي – رحمه الله تعالى – جرت بيني وبينه مسألة في حق شخص ، كان قد بشر بظهوره رسول الله صلى الله عليه وسلم – فقال لي: هو فلان بن فلان، وسمى لي شخصا أعرفه باسمه. وما رأيته ولكن رأيت ابن عمته. فربما توقفت فيه . ولم آخذ بالقبول – أعنى قوله (= قول شيخه العريبي) فيه – لكوني على بصيرة في أمره. ولاشك أن الشيخ رجع سهمه عليه. فتأذى في باطنه، ولم أشعر بذلك ، فإني كنت في بداية أمري (في الطريق).

فانصرفت عنه إلى منزلي. فكنت في الطريق، فلقيني شخص لا أعرفه. فسلم على ابتداءً سلام محب مشفق ، وقال لي: يا محمد ! صدق الشيخ أبو العباس فيما ذكر لك عن فلان، وسمى لنا الشخص الذي ذكره أبو العباس العريبي فقلت له: نعم ! وعلمت ما أراد ورجعت من حيني، إلى الشيخ لأعرفه بما جرى. فعندما دخلت عليه، قال لي: يا أبا عبد الله أحتاج معك، إذا ذكرت لك مسألة يقف خاطري عن قبولها، إلى الخضر يتعرض إليك ، يقول لك: " صدق فلانا فيما ذكره لك؟ ومن أين يتفق لك هذا، في كل مسألة تسمعها مني فتتوقف؟ فقلت: إن باب التوبة

---

[٤٠٧] ابن عربي : الفتوحات المكية السفر الأول ص ١٣٨

[٤٠٨] ابن عربي : (الفتوحات المكية ، السفر الثالث ص ١٨٠-١٨٧) .

مفتوح ! فقال : وقبول التوبة واقع . فعلمت أن ذلك الرجل كان الخضر. ولا شك أني استفهمت الشيخ عنه : أهو هو ؟ قال : نعم ! هو الخضر"[٤٠٩]

فابن عربي يحكي عن بداية معرفته بالخضر الذي يأتي تثبيتا للشيخ العريبي وتعليما لابن عربي وهو في بداية أمره بالطريق ، ويضيف ابن عربي:

"ثم اتفق لي ، مرة أخرى، أني كنت بمرسى تونس، بالحفرة، في مركب في البحر . فأخذني وجع في بطني ، وأهل المركب قد ناموا فقمت إلى جانب السفينة ، وتطلعت إلى البحر. فرأيت شخصا على بعد، في ضوء القمر، وكانت ليلة البدر. وهو يأتي على وجه الماء، حتى وصل إلى فوقف معي. ورفع قدمه الواحدة، واعتمد على الأخرى. فرأيت باطنها وما أصابها بلل، ثم اعتمد عليها، ورفع الأخرى، فكانت كذلك. ثم تكلم معي بكلام كان عنده. ثم سلم وانصرف، يطلب "المنارة" محرسا على شاطئ البحر. على تل، بيننا وبينه مسافة تزيد على ميلين. فقطع تلك المسافة في خطوتين أو ثلاثة فسمعت صوته – وهو على ظهر "المنارة" يسبح الله تعالى وربما مشى إلى شيخنا جراح بن خميس الكناني، وكان من سادات القوم، مرابطا بـ"مرسي عيدون" وكنت جئت عنده، بالأمس، من ليلتي تلك فلما جئت المدينة، لقيت رجلا صالحا ، فقال لي: "كيف كانت ليلتك البارحة، في المركب، مع الخضر؟ ما قال لك وما قلت له؟

فلما كان بعد ذلك التاريخ، خرجت إلى السياحة بساحل البحر المحيط . ومعي رجل ينكر خرق العوائد للصالحين . فدخلت مسجدا ، خرابا منقطعا ، لأصلي فيه، أنا وصاحبي، صلاة الظهرة . فإذا في ذلك المسجد. وفيهم ذلك الرجل الذي كلمني على البحر، الذي قيل لي: إنه الخضر. وفيهم رجل كبير القدر، أكبر منه منزلة . وكان بيني وبين ذلك الرجل اجتماع، قبل ذلك، ومودة . فقمت فسلمت عليه. فسلم على وفرح بي. وتقدم بنا يصلي . فلما فرغنا الصلاة ، خرج الإمام وخرجت خلفه، وهو يريد باب المسجد. وكان الباب في الجانب الغربي، يشرف على البحر المحيط ، بموضع يسمى "بكة" فقمت أتحدث معه على باب المسجد . وإذا بذلك الرجل، الذي قلت إنه الخضر، قد أخذ حصيرا كان في محراب المسجد، فبسطه في الهواء على قدر علو سبعة أذرع من الأرض، ووقف على الحصير، في الهواء، يتنفل .

---

[٤٠٩] السابق

قلت لصاحبي: "أما تنظر إلى هذا وما فعل؟" فقال لي : سر إليه وسله، فتركت صاحبي واقفا، وجئت إليه. فلما فرغ من صلاته، سلمت عليه وأنشدته لنفسي:

شغل المحب عن الهواء بسره في حب من خلق الهواء وسخره

العارفون عقولهم معقولة عن كل كون ترتضيه مطهرة

فهم لديه مكرمون وفي الورى أحوالهم مجهولة ومستترة

فقال لي: يا فلان ، ما فعلت ما رأيت إلا في حق هذا المنكِر – وأشار إلى صاحبي الذي كان ينكر خرق العوائد ، وهو قاعد في صحن المسجد ينظر إليه – ليعلم أن الله يفعل ما يشاء مع من يشاء.

فرددت وجهي إلى المنكِر وقلت له "ماتقول؟" فقال : ما بعد العين ما يقال!" ثم رجعت إلى صاحبي وهو ينتظرني بباب المسجد. فتحدثتُ معه ساعة، قلت له: من هذا الرجل الذي صلى في الهواء؟ وما ذكرت له ما اتفق لي معه قبل ذلك فقال لي"هذا الخضر" فسكت وانصرفت الجماعة. وانصرفنا نريد "روطة، موضع مقصود، يقصده الصلحاء من المنقطعين . وهو بمقربة من "بشكنصار" ، على ساحل البحر المحيط.

فهذا ما جرى لنا مع هذا الوتد، نفعنا الله برؤيته!– وله من العلم اللدني ومن الرحمة بالعالم، ما يليق بمن هو على رتبته. وقد أثنى الله عليه"[٤١٠].

إن دور الوتد الخضر مع ابن عربي هو تثبيت لما ذكره أستاذه الشيخ أبو العباس العُريبى ؛ وكيف احتاج المريد إلى مَن يلقّنه درساً في آداب المريد وسلوكه مع شيخه وفى هذا كرامة لابن عربي في أنه قد وصل إلى درجة تؤهله لرؤية الخضر وإن كان قد جهله حتى تأتى الكرامة الثانية للشيخ العريبى الذي يعرف ما جرى بين الخضر ومريده ابن عربي.

أما الحكاية الثانية فهي تندرج تحت الكرامة المعقدة التي تتوالى فيها الكرامات حتى تصل إلى الذروة ليأتي المدد الممثل في الخضر كي يفك طلاسم كل الأحداث والعقد الموجودة في الحكاية ؛ وكي يقوم بدور المثبّت للكرامات تجاه منكريها .

---

[٤١٠] ابن عربي : (الفتوحات المكية ، السفر الثالث ص ١٨٠-١٨٧)

وحديث ابن عربي عن الخضر حديث له أهميته إذ يؤكد بشكل واضح أنه قد رآه واجتمع به وأن الله قد أطال عمره إلى الآن ، كذلك فإن ابن عربي يتحدث عن كرامات الخضر التي منها المشي على الماء دون أن تبتل قدماه ، وكذلك الطيران في الهواء ثم إنه يعرف ما في نفسك ويخبرك به ؛ ويرعى الأولياء ويدافع عنهم ضد منتقديهم وضد منكري الكرامات إذن الدور هو دور المعلم كما ورد في القرآن الكريم في قصة موسى مع الخضر . ولا تخلو قصة ابن عربي مع الخضر من تصوير مسرحي ؛ فالأشياء مرتبة يقود بعضها إلى بعض ،ولا ينسى ابن عربي وصف المكان وتحديده جغرافيًّا كوسائل مثبّتة للحكاية في ذهن المتلقى ، إضافة إلى أنه لا يفك كل طِلَّسمات حكاياته وإنما يترك بعض شخصيات مجهولة وبعض أحداث لا يصرّح بها ،وهذا يسهم في خلق مشاركة من المتلقي لحل هذه الرموز التي تركها –عمداً- دونما إيضاح . هذه المشاركة تنقل الراوي من مرتبة " الراوي/العليم " المصرّح بكل بشيء إلى الراوي/ العليم المصرّح ببعض الأشياء ، مما يتطلب معه أن يتحول المتلقي من المتلقي/السلبي إلى المتلقي/المشارك في صنع الحدث .

في الحكاية الثالثة: يتحدث ابن عربي عن الخرقة التي ألبسها الخضرُ لشيخه على بن عبدالله بن جامع في شهود أبى عبد الله قضيب البان ، ثم يحكى أن الشيخ علي قد ألبسه الخرقة نيابة عن الخضر ، لكن ابن عربي يذكر أن هذه الخرقة كان قد لبسها من قبل على يد شيخه تقي الدين ، مما جعل ابن عربي يغيّر رأيه في الخرقة ويعترف بها لأن الخضر قد وهبها له .

والشاهد في هذه الحكاية أن الخضر هو الذي يختار الأولياء ويخلع عليهم خرقة الولاية أي أن اختيارهم يأتي من خلاله ، فالخضر هنا هو أستاذ الأولياء ومعيّنهم .

ولا تخلو الحكاية من أن الخضر يعلّم ابن عربي أيضا أي لا ينفصل دور الخضر المعلّم عن دوره كأستاذ لدائرة الأولياء . ويرى ابن عربي أن الخضر ليس نبيًا " ودليل ما ذهبنا إليه في هذا قول الخضر لموسى عليه السلام :{وكيف تصبرُ على ما لم تُحط به خُبْراً}؟، فلو كان الخضر نبيًا لما قال له :{ ما لم تحط به خبراً } فالذي فعله (أي الخضر) لم يكن من مقام النبوة ، وقال له في انفراد : " كل واحد منهما (= منا) بمقامه الذي هو عليه) . قال الخضر لموسى –عليه

السلام .: يا موسى أنا على علم علّمنيهِ الله لا تعلمه أنت . وأنت على علمٍ علّمَكَهُ الله لا أعلمه أنا " وافترقا وتميزا بالإنكار " [٤١١] . ويذكر في موضع آخر أنه قد "اختُلف في الخضر بين النبوة والولاية فقيل هو نبي ، وقيل هو ولي " [٤١٢] .

ورؤية ابن عربي الفلسفية هنا للخضر أنه لا يعلم علوم الشريعة على عكس ماذهب بعض الصوفيين في قولهم بعلم الخضر لعلميْ الشريعة والحقيقة أو أن المقصود هنا أنه لا يعلم علم النبوة لكونه ليس نبياً أو رسولاً ، وإنما هو كما يرى ابن عربي ولياً من أولياء الله لذا يقول : " أعنى أن يكون الله قد عرّف ولياً من أوليائه بما يجريه في خلقه- كالخضر -ويعلمه علوماً من لدنه ، (...) كما يقول الخضر {وما فعلتُه عن أمري}"[٤١٣]

إلا أنه يقرر في موضع آخر أن وحى الأنبياء من خلال الملائكة أما وحى الأولياء فدون واسطة مَلَك " فهذا القدر الذي اختص به خضر دون موسى عليه السلام " [٤١٤] . ثم يردف:" فالرسول والنبي لهما حضرة القرب مثل ما لهذا (الولي) . وليس له التشريع منها (أي من حضرة القرب) . بل التشريع لا يكون له إلا بوساطة الملَك الرّوح . وما بقِي" [٤١٥]

لكن هذا العلم هو علم مآله الكتمان و " لو قُطّعوا إرباً ما عُرف ما عندهم لهذا قال الخضر :{ما فعلته عن أمري} . فالكتمان من أصولهم إلا أن يُؤمروا بالإفشاء والإعلان "[٤١٦] . وفى تفسير قوله تعالى {وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً} ابن عربي أن " شيخنا أبو مدين يقول (...) : القليل أُعطيناه ما هو لنا ، بل هو مُعارٌ عندنا ، والكثير منه لم نصل إليه : فنحن الجاهلون على الدوام ! ، وقال : من هذا الباب خضر - عليه السلام - لما رأى الطائر الذي وقع على جرف السفينة ونقر في البحر بمنقاره :أتدرى ما يقول هذا الطائر في نقره في الماء ؟ قال موسى - عليه

---

[٤١١] ابن عربى : الفتوحات المكّية ، السفر الثالث ، ص ٢٤٧ ويذكر بن عربى هذه الحكاية فى السفر الثانعشر ص٦٨.٦٩ ويشرح فى موضع آخر أن علم الخضر هو علم الذّوْق ، السفر ١٢ص١٣٦ .

[٤١٢] ابن عربى : السابق . سفر ١٢ ص ٣٢٠ .

[٤١٣] ابن عربى : الفتوحات المكية ، السفر الثالث ، ص ٢٥٣ .

[٤١٤] السابق سفر ٣ص ٢٦٤-٢٦٥ .

[٤١٥] السابق سفر ٣ ص٢٦٦ .

[٤١٦] السبق سفر٣ ص ٢٧٨ .

السلام – لا أدرى. قال الخضر: يا موسى يقول هذا الطائر : ما نقّص علمي وعلمك من علم الله إلا ما نقّص من هذا البحر منقاري"[٤١٧]

وهنا دور الخضر/المعلم ولكن يضاف إليه علم الخضر بلغة الطير ومجاز حركاته وأفعاله.

يحاول ابن عربي تفسير ماهية علم الخضر يقسم العلوم إلى علمين :العلم الوهبي والعلم الكسبي، وأن الخضر قد حاز العلم الوهبى؛ ثم يتحدث ابن عربى عن نفسه " ونحن نعلم أن ثَم علمًا اكتسبناه من أفكارنا ومن حواسنا ؛ وثَمّ علما لم نكتسبه بشىء من عندنا بل (هو) هبة من الله عزّ وجل أنزله فى قلوبنا وعلى أسرارنا فوجدناه من غير سبب ظاهر. " [٤١٨] ثم يقرر " وممن حصّل علوم وهبٍ مما ليس بشرع جماعة قليلة من الأولياء منهم الخضر على التعيين ، فإنه قال : " من لدنه. " [٤١٩]

ويسميه فى موضوع آخر العلم اللّدنّى ويقول : اعلم أن العلماء بالله لا يأخذون من العلوم إلا العلم الموهوب وهو العلم اللدنى علم الخضر وأمثاله ؛ وهو العلم الذى لا تَعَمُّل لهم فيه خاطر أصلًا ، حتى لا يشوبه شىء من كدورات الكسب "[٤٢٠] . ويذكر فى موضوع آخر فى تفسير قوله تعالى ":{ آتيناه رحمةً من عندنا}وهو الظل {وعلّمناه من لدنّا علمًا}وهو الضياء أى الكشف الضيائى وهو أتم الكشوف "[٤٢١] . بل يطلق ابن عربى فى شعره على الخضر العبد اللّدنى ففى حديثه عن الحج يقول :

" فيه الإجابةُ للرحمنِ من كثَبٍ بنعتِ عبدٍ لدنّيٍّ وإلياسِ"[٤٢٢]

وفى قضية الخلود حتى قبل يوم القيامة يقرر ابن عربى أن الذين حصلوا على هذا الفضل أربعة " فأبقى الله بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الرسل الأحياء بأجسادهم فى هذه الدنيا ثلاثة هم إدريس عليه السلام بقى حياً بجسده ؛ وأسكنه الله السماء الرابعة ، وإلياس وعيسى وهما قائمان بالدين الحنيف الذى جاء به

---

[٤١٧] السابق السفر الرابع ص ١١٦–١١٧ .

[٤١٨] ابن عربى : الفتوحات –المكية السفر الرابع ص ١٢٠ ويسميه فى موضع آخر " علم الوهب سفر ص ٢٨٣ .

[٤١٩] السابق سفر ٤ ص ١٢١ ١٢٢ .

[٤٢٠] ابن عربى : الفتوحات – المكية السفر الثامن ص ٤٣٩ وأنظر أيضاً السفر ص ٣٨٥ .

[٤٢١] السابق سفر ١٢ ص٥٣٩ .

[٤٢٢] السابق سفر ٩ ص ٤٨ .

محمد صلى الله عليه وسلم – فهؤلاء (= إدريس ، إلياس ، عيسى) ثلاثة من الرسل ، المجمع عليهم أنهم رسل . وأما الخضر – وهو الرابع – فهو من المختلف فيه عند غيرنا ، لا عندنا. فهؤلاء باقون بأجسادهم فى الدار الدنيا ، فكلهم " الأوتاد " ، واثنان منهم " الإمامان " وواحد منهم " القطب " الذى هو موضع نظر الحق من العالم ، فما زال المُرسلون – ولا يزالون – فى هذه الدار يوم القيامة ، وإن لم يُبعثوا بشرعٍ ناسخ ، ولا هم على غير شرع محمد – صلى الله عليه وسلم {ولكن أكثر الناس لا يعلمون}"[٤٢٣] . وهو بذلك يطرح قضية الخلود لأربعة وليس للخضر وحده كما ذهب معظم الصوفيين إلا أن طرحه وإن كان بشكل فيه من الإبداع الخيالى الفنّى ما يرقى به إلىالنظرة الفانتازية إلا أنه يحاول أن يواكب رؤيته فى إطار الشرع ، وعندما يتحدث عن الخضر يذكر أن آراء بعض الناس ذكرت أنه من الأنبياء إلا أنه يؤكد بشكل مطلق أنه ليس نبياً ، ويلجأ ابن عربى إلى غموض رؤاه وعدم اكتمال حل حلقاتها فيترك الحلقة الرباعية موظفة ما بين الإماميْن والقطب دون تسمية وربما لا يود التصريح فعلومهم . كما ذكر- تتطلب الكتمان .

إلا أنه يردف فى شطحة من شطحاته "والواحد من هؤلاء الأربعة الذين هم – عيسى ، و إلياس ، و إدريس ، و خضر – هو القطب ، وهو أحد أركان بيت الدين ، وهو ركن الحجر الأسود ، و اثنان منهم هما الإمامان ؛ وأربعتهم هم الأوتاد فبالواحد يحفظ الله الإيمان ، وبالثانى يحفظ الله الولاية و بالثالث يحفظ الله النبوّة ، وبالرابع يحفظ الله الدين الحنيف ، فالقطب من بين هؤلاء لايموت أبدا ، أى لا يُصعق ! وهذه المعرفة التى أبرزنا عينها للناظرين ، لايعرفها من أهل طريقتنا إلا الأفراد الأمناء."[٤٢٤] فهو لا يصرح بما يبدو به عليما، ثم يقرر خلود القطب الدائم وفى ذلك مخالفة لمفهوم الخلود الذى طرحه المفسرون والصوفية للخضر .

---

[٤٢٣] ابن عربى : الفتوحات المكية ، سفر ١١ ص ٢٦٨،٢٦٩ .

[٤٢٤] ابن عربى : الفتوحات المكية السفر الحادى عشر ص ٢٩٦–٢٧٠ .

ويذكر ابن عربى في موضع آخر أنه" لولا أن الخضر أمره الله أن يظهر لموسى – عليه السلام بما ظهر ، ما ظهر له بشيء من ذلك ، فإنه من الأمناء "[٤٢٥] .
وهذا هو تكرار لدور الخضر/المعلم بما علّمه الله تعالى .
وفى قاموس المسائل الروحية عند ابن عربى يرى أن "إلياس هو عبارة عن القبض وأن الخضر هو عبارة عن التبسُّط "[٤٢٦] .كذلك نجد مقولة جميلة لابن عربي حول خرق الخضر للسفينة ؛ يقول "خرقَ الخضر سفينة الحروف لموسى عليهم الصلاة والسلام"[٤٢٧]
ويحكى عمن رأى الخضر وحادثه فقد قال :" روينا عن بعض الصالحين أنه لقى الخضر فقال له :ما تقول فى الشافعى ؟ فقال : هو من الأوتاد – فقال : فما تقول فى أحمد بن حنبل ؟ قال : رجل صِدّيق – قال فما تقول فى بشر الحافى ؟ قال : ما ترك بعده مثله" [٤٢٨] . ويضع ابن عربى تعريفاً جميلاً للخضر وطبقته ." ومنهم من كان سيره فيه (تعالى) بأسمائه فهو صاحب سير منه وإليه وفيه وبه فهو سائر فى وقوفه، واقف فى سيره ؛ والخضر والأفراد من أهل هذا المقام" [٤٢٩] .
ويرجع ابن عربى علم الخضر فى زمان موسى عليه السلام إلى أنه "جزء من أجزاء ما يحويه صاحب القرآن المحمدى من العلوم"[٤٣٠]. وربما كان ذلك تمهيداً لكى يصف ابن عربى حاله وعلمه الذى رآه يفوق ما لدى الخضر فقد أطلق لنفسه العنان فى قصيدته وصرح قائلاً مفتخرا بعلمه:

هذا هو العلم الذي يقضي على علم الخضر

وأظن أن الخضر يلعب دوراً كبيراً فى فكر ابن عربى ويحاول من خلاله الاستناد على مخالفة الولى للناس ؛ وأنه أبصرهم معرفةً وأعزهم قدراً وأعلمهم خُبراً؛ ولذلك فهو لا يهتم باحتجاج العلماء الذين طمست بصائرهم مستدلا من قصة الخضر وموسى عليه السلام ما يؤكد ما يراه حقيقة لا تستطيع أنت أن تراها ولا أن تصل كنهها ، ويعزى كل أمر مخالف إلى قوة تسيطر عليه {وما فعلته عن أمري}إذن

---

[٤٢٥] ابن عربى : الفتوحات المكية السفر ١١ ص ٣٦٣ .
[٤٢٦] السابق السفر ١١ ص ١٩٢ .
[٤٢٧] ابن عربي (محيي الدين٥٦٠–٦٣٨هـ):رسائل ابن عربي شرح مبتدأ الطوفان ورسائل أخرى ص١٦٦ تحقيق قاسم محمد عباس وحسين محمد عجيل، ط.المجمع الثقافي –أبوظبي ،١٩٩٨
[٤٢٨] ابن عربى : الفتوحات المكية السفر ص ٣٩١–٣٩٢
[٤٢٩] ابن عربى : الفتوحات المكية السفر ١٢ ص ١١٨ – ١١٩ .
[٤٣٠] السابق السفر ١٢ ص ٥٤٠ .

على المتلقى أن يسلّم متدثراً بجهله . كذلك فإن الجانب الإبداعى ينبغى ألا يغفل فالتقاء ابن عربى مع الخضر يصوره ابن عربى تصويراً إبداعياً أشبه بفصل أساسى فى سيرته الذاتية نحو الولاية ، كذلك فإن لغة ابن عربى لغة أدبية متنوعة يمسرح بها الحدث ويمنطق بها اختلاف الشخصيات ثقافياً وعلمياً .

ولم ينس ابن عربي أن يعرج نحو تأويل ذي القرنين الذي يراه"في هذا الوجود هو القلب الذي ملك قرنيه، أي ، خافقيه شرقهاوغربها"[٤٣١]

ويبدو لي أن ابن عربي تناول الخضر على عدة مستويات تبعاً لأحواله ومقاماته، وتبعا لأحوال المتلقي.

"فإن المتأهب إذا لزم الخلوة والذكر، وفرّغ المحل من الفكر ، وقعد فقيراً لاشيء له، عند باب ربع، هينئذ يمنحه الله . تعالى . ويعطيه من العلم به، والأسرار الإلهية والمعارف الربانية التي أثنى الله . سبحانه . بها على عبده خضر فقال .{ عبداً من عبادنا آتيناه رحمةً من عندنا وعلمناه من لدُنّا علماً}[٤٣٢]

وذكر ذلك في موضع آخر"قصة موسى مع خضر"[٤٣٣]ويحكي عن أماكن تعزى إلى الخضر كالرابطة التي في وسط المقابر بقرب المنارة الكائنة بشرقي تونس وكان يجد قلبه فيها[٤٣٤] ويرى أن إلياس مختلف عن الخضر[٤٣٥]

وتحدث عن أهل الأذواق "الذين يأخذون العلم عن الله ، كالخضر وأمثاله"[٤٣٦]

"وكان عنده من أسرار إحياء الموت عجائب ،وكان مما خصه الله به أنه ماحلّ بموضع قد أجدب إلا أوجد الله فيه الخصب والبركة ما روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في خضر وقد سئل عن اسمه بخضر فقال صلى الله عليه وسلم " ماقعد على فروة إلا اهتزت تحته خضراء"[٤٣٧]

---

[٤٣١] ابن عربي، محيي الدين ت٦٣٨هـ : تفسير القرآن الكريم ج١ ص ٧٦٦-٧٧٣ تحقيق د.مصطفى غالب ، ط.الأندلس ، بيروت ١٩٩٣

[٤٣٢]ابن عربي:(محيي الدين):الفتوحات المكية،السفر الأول ، ص١٢٨ تحقيق وتقديم د.عثمان يحيى، تصدير ومراجعة د.إبراهيم مدكور،ط.الهيئة المصرية الهامة للكتاب،القاهرة، ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م.

[٤٣٣]السابق السفرالأول ص ١٤٤وكذلك سفر ٣ ص٨٣

[٤٣٤]الحكاية في الفتوحات سفر ١ ص ١٢١

[٤٣٥]السابق سفر٢ ص ٢٩٣

[٤٣٦]السابق سفر٢ ص٢٩٦

[٤٣٧]السابق سفر ٢ ص٣٧٠

فابن عربي يرسم صوراً متعددة للخضر لأنه حمال تأويل ومتعدد الرؤى ، ويوظف ابن عربي أساليب إبداعه ونقده في تشكيل الأخضار لديه..

٤-٣ الخضر يطلب العلم :

الدور المكرور للخضر هو المعلم ، لكن هناك قصصا تعكس الدور ومنها ما "حُكي عن أبي العباس الخضر عليه السلام :أنه قال كنت بصنعاء اليمن في مسجد عبد الرازق الواعظ وكان من أكابر العلماء والأولياء أسمع منه مايقول فنظرتُ إلى شاب منفرد بناحية من المسجد مختل بنفسه واضعاً رأسه بين ركبتيه فأتيت إليه ووكزته وقلت يا هذا لم تحضر مجلس عبدالرازق وتسمع مايقول ، فقال :سمعتُ من الله عزّ وجل ، فأدهشني ذلك ، فقلت له إن كنت صادقاً فمن أنا؟ فقال : إن صحت الفراسة [٤٣٨] فأنت الخضر عليه السلام ، ثم غاب عن بصري فلم أره نفعنا الله تعالى به آمين."[٤٣٩]وهذه الحكاية التي رواها اليافعي توضح مايلي :

أولاً: إنه لأول مرة نرى ولياً لايعرفه الخضر فطبقاً للمنظور الصوفي يرأس الخضر الأولياء.

ثانياً: الخضر هو الحاكي وليس المُحكى عنه .

ثالثاً: يجيء الخضر متعلماً على يد عبد الرازق وليس معلِّماً كعادته.

رابعاً: الخضر مندهش الحالة وليس مُدهِشاً بل إن تصرفات الولي الشاب لايستطيع متابعتها فهو يعرفه ، وهو يستمع من الله دون واسطة ، ويغيب عن بصر الخضر دون أن يلاحقه ودون أن يعرف وجهته.

خامسا: تبدو الجملة الأخيرة غير واضحة القائل : هل هو الخضر الذي يتوسل إلى الله بهذا الولي أو هو اليافعي الراوي.وعلى كل تبدو هذه الحكاية فريدةً في بابها.

أورد الهجويري في كتابه كشف المحجوب حكاية على لسان محمد بن علي الحكيم أن أبابكر الوراق "أعطاني كراسة قائلاً : ألقها في جيحون[٤٤٠] ! فلم يطعني قلبي ، وأخفيتها في منزلي ، وجئته وقلت : ألقيتها . فقال : ماذا رأيت ؟ فقلت : لم أر

---

[٤٣٨]الفراسة:مكاشفة اليقين ، ومعاينة الغيب ، وهي من مقامات الإيمان." د. عبد الستار عز الدين الراوى : التصوف والبارسايكولوجى ، مقدمة أولى فى الكرامات الصوفية والظواهر النفسية الفائقة ص٤١،ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ،١٩٩٤.

[٤٣٩]اليافعي :مختصر روض الرياحين في مناقب الصالحين١٧٣-١٧٤

[٤٤٠]نهر.

شيئاً. قال : لم تلقها ؛ عد وألقها في البحر ، فرجعت وقد استحوذ وسواس ذلك البرهان على قلبي ، وألقيتها في الماء ، فانشق الماء وظهر صندوق مفتوح ، فلما وقعت فيه أغلق الغطاء فعدت ورويت له ما حدث ؛ فقال : الآن ألقيتها ، وقلت : أيها الشيخ ! ما سر هذا ؟ حدثني به . قال : كنت قد صنفتُ تصنيفاً في الأصول والتحقيق ، يعجز الفهم عن إدراكه ، فطلبه مني أخي الخضر عليه السلام ، فأمر الله تعالى الماء أن يوصله إليه."[٤٤١] وهذه الرواية تجعل الخضر متعلما على مصنفات الوراق التي يعجز الفهم عن إدراكها لكنها ليست مستعصية عن فهم الخضر ، وقد كان من المتوقع أن يأتي الخضر على عادته ويأحذ المصنف من أخيه الوراق إلا أن الحكاية لم تكن لتبلغ وهج إبداعها وخيالاتها وقد انشق الماء وخرج صندوق يفتح ويغلق دون وسيط ، كما أن الرواية هذه أوجدت شاهدا ثالثا إضافة إلى الخضر والوراق ، ووجود شاهد يساعد على تثبيت الحكاية في ذهن المتلقي ومن ثم تقوم بدور الإيحاء بتصديقها والتفاعل معها.ولايخفى الدور الذي قامت به الحكاية بتفرد الوراق بالعلم دون أهل زمانه ، ولعل هذا أسهم في لقبه "فقد دعاه المشايخ رحمة الله عليهم : مؤدب الأولياء"[٤٤٢]

ويحكي الهجويري عن أبي عبدالله محمد بن علي الترمذي أيضاً "وله مناقب كثيرة ؛ منها أنه كان قد صحب الخضر عليه السلام . ويروي مريده أبوبكر الوراق الترمذي أن الخضر كان يأتي إليه كل يوم أحد ، وكانا يتساءلان الوقائع."[٤٤٣] والرواية هنا تجعل الترمذي في درجة الخضر علماً.

يذكر لؤي فتحي وشذى الدركزلّي وجمال نصار في كتابهم" علم خوارق العادات البارانورمالوجيا Paranormalogy "أن الخضر هو العبد الصالح الذي أرسل الله موسى ليقابله والذي وصفه الله بأنه كان {عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما}[٤٤٤] والملاحظ أن الله عز وجل لا يُعرِّف الخضر باسمه وإنما بالرحمة والعلم اللدني اللذين أنعم بهما عليه جزاء تحقيقه العبودية الكاملة لربه وذلك لأن الرحمة الإلهية والعلم اللدني هما سر سقوط أسباب الخلقة

---

[٤٤١] الهجويري(أبوالحسن علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي):كشف المحجوب جـ ١ص ٣٥٤،ترجمة وتحقيق د.اسعاد عبد الهادي قنديل ، ط. المجلس الأعلى للشيءون الإسلامية، القاهرة ١٩٧٤.

[٤٤٢] الهجويري(أبوالحسن علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي):كشف المحجوب ص٣٥٤.

[٤٤٣] الهجويري(أبوالحسن علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي):كشف المحجوب ص٣٥٣

[٤٤٤] الكهف :من ٦٥

البشرية عن الخضر فأصبح بسقوطها من الفانين عن الطعام والشراب ومن المنعزلين عن الخلق والمحجوبين عنهم فلا يراهم الناس ، ومن المعمرين في الأرض بلا موت ، إن الرحمة الإلهية والعلم الإلهي اللدني هما سر صفات الخضر الخارقة للعادات والتي لاتنتمي إلى عالم الأسباب ولكن إلى عالم {كن فيكون} وهما سر ما شاهده موسى من خوارق للعادة مدة مصاحبته له"[٤٤٥]

وحول أبي يزيد البسطامي والخضر ، قال رجل:"ياأبايزيد ! مات رجل بطَبَرِستان ، فحضر الناس جنازته فرأيتك مع الخضر عليه السلام ، يدُكَ على عنقه ،ويَدُه على عنقك . فلما رجع الناس من الجنارة رأيتك في الهواء . قال: كان كذلك."[٤٤٦]والكرامة هنا تجعل البسطامي صديقا للخضر ؛ وربما في منزلته.

٥- الخضر في الأدب:

استُخدم الخضر رمزا للكتابة أو موضوعا لها ، وقد حاول الأدباء استحضار الخضر في كتاباتهم الشعرية والنثرية؛ يقول ابن الجوزي في اللطائف:" في قيام الليل ؛ ياجامدا على طبع وضعه، يحرك إلى قلب طبعه، انظر لماذا خلقت، وما المراد منك، رض مهر النفس يتأتى ركوبه، أمت زئبق الطبع يمكن استعماله، تلمح فجر الأجر ظلام التكليف، أرق خمر الهوى فما يفلتك صاحب الشرطة.بحر طيعك أجاج، وماء قلبك عذب، والعقل بينهما قائم مقام الخضر، فيا "موسى أطلبك لا تبرح عن السلوك حتى تبلغ مجمع البحرين. قف على قدم الصبر، وإن طال الوقوف، تجلس سعلى مقلوب كرسي؟."وهي كتابة تجمع خصائص من الشعر والنثر.

وقال ابن الجوزي في المدهش:" في قصة الخضر عليه السلام :لما علا شرف الكليم بالتكليم كل شرف، قال له قومه أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. ولم يقل فيما أعلم، فابتلي فيما أخبر به واعلم، فقام بين يدي الخضر، كما يقوم بين يدي السليم الأعلم، فابتدأ بسؤال "هل أتبعك" فتلقاه برد "لن" وكم أنّ موسى من لن. أمر قومه بالإيمان ، فقالوا "لن نؤمن" وقعوا في التيه فقالوا "لن نصبر" ندبوا إلى

---

[٤٤٥]لؤي فتحي وشذى الدركزلّي وجمال نصار (دكاترة) : علم خوارق العادات البارانورمالوجياParanormalogy ص ٢٧٨ ط.الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ١٩٩٩

[٤٤٦]كتاب مناقب سيدنا أبا يزيد البسطامي ص١٤٥

الجهاد فصاحوا "لن ندخلها" طرق باب أرني فرده حاجب "لن"، دنا إلى الخضر للتعلم فلفظه بلفظ "لن" ثم زاده من زاد الرد بكف "وكيف تصبر" فلما سامحه على نوبة السفينة، وواجهه بالعتاب في كرة الغلام، أراق ماء الصحبة في جدال الجدار "هذا فراق بيني وبينك" ثم فسر له سر المشكل، فجعل يشرح القصص فصلاً فصلاً، بمقول قائل يقول فصلاً، وكلما ذكره أصلاً أصلى، لم يبق لموسى عين تراه أصلاً، وكلما سل من حر للعتاب نصلاً، صاح لسان حال موسى: كم نصلى؟

فألقى تفسير الأمور على الكليم وأملى، والقدر يقول: أهو أعلم أم لا؟ فعلم موسى ويوشع أي عبد أمّا منذ ابتدأ بالشرح بأمّا، ثم أخذ لسان العتاب، يذكر منسى موسى، أتنكر خرق سفينة؟ لظاهر إفساد تضمن ضمنه صلاح "ولكم في القصاص حياة" أو تنكر؟إتلاف شخص دنى لإبقاء دين شخصين؟ أو كرهت إقامة الجدار، لشح أهل القرية بالقرا أفاردت من الأصفياء معاملة البخلاء بالبخل؟، أما تلمحت سر صل من قطعك؟، لقد

أنكرت ما جرى لك مثله، حذرت يوم السفينة من الغرق، فصحت بإنكار "أخرقتها"أنسيت يوم "فألقيه في اليم" أنكرت قتل نفس بغير نفس، أنسيت يوم "فوكزه" نهيت عن عمل بلا أجر، أنسيت يوم "فسقى لهما" فلما بان البيان، خرج الخضر من باب الدعوى، وأخرج يده من ملك التصرف وأحال الحال على الغير "وما فعلته عن أمري".وهذه القصة قد حرضت على جمع رحل الرحيل في طلب العلم، وعلمت كيفية الأدب في كف كف الاعتراض على العالم، وصاح فصيح نصيحها بذي اللب: دع دعواك فعلى دعوى الكليم ليم، وفوق كل ذي علم عليم."[٤٤٧]وقال ابن الأثير الكاتب"ومن ذلك ما ذكرته في فصل من كتاب يتضمن الشكوى من خلق بعض الإخوان، وهو:لقد صبرت على أخلاقه العائثة،وعاملته بالخليقة الرائثة،وعالجته بضروب المعالجات فلم تنفع فيه رقى الراقية ولا نفث النافثة، ولما أعيا علي إصلاحه أخذت بمقالة الخضر لموسى في المرة الثالثة.

وهذا مأخوذ من قصة موسى عليه السلام وقصة الخضر في سورة الكهف"وفي تصحيح التصحيف وتحرير التحريف لصلاح الدين الصفدي " يقولون: تعِبَ الخَضِرُ

[٤٤٧]ابن الجوزي :المدهش ص ١٩١-١٩٢

في حاجةِ الإسكندر. وإنما هو تَعِبَ الإسكندرُ في حاجة الخَضِر."[٤٤٨]وهذا الجنس الأدبي الذي يجمع الشعر والنثر وجد في الخضر مادة ترقى بالنص .

٥-١ الخضر في الشعر :

من خلال ما مر يتضح لنا كيف عبر الخضر الحدود ليكون عالميا لايقف عند دولة ولا أمة ، وكما قلت آنفاً يحمل الخضر في موضوعه ما يؤهله للتداول والانتشار ، والتوظيف والإسقاط ، ومن هنا تغلب على من حاولوا طمس ملامحه بعقلنة الأمر ؛ وإني لأدعو أن يكون الخضر موضوعا في الأدب المقارن بين اللغات .

لقد أغوت شخصية الخضر الشعراء بما فيها من تجدد وامتداد عبر التاريخ ، وقدرة على التحرك والتخفي ومشاهدة التغيرات التي لا يستطيع المرء بقصر عمره أن يراها لذا تأتي أحكامنا قاصرة كما رأينا في قصيدة Ruckert فالجميع يؤكدون حقيقة عدم التغير بل يسخرون من الخضر الذي يعرف الحقيقة دونهم فلا يجابههم بل يتركهم ويختفي ليعود مرة أخرى فلايرى ما رآه من قبل بل يرى العامرَ صار طللا والطلل أضحى بحرا والبحر غدا غابة والغابة صارت مدينة آهلة بالسكان وهلم جرا.

لقد "سافر رمز الخضر متجاوزا الحدود الجغرافية والأيديولوجية ، وتطورت الأسطورة وتوزعت على أنواع كثيرة من الحضارات والثقافات العالمية"[٤٤٩]

وقد وجدتُ الخضر في أشعار ليست بالعربية كما في الشعر التركي والفارسي وبعض آداب اللغات الهندية والسريلانكية إذ يقوم بدور كبير كما يرى أسيف حسين " ويسود في سريلانكا اعتقادات كبيرة حول الخضر كما يقول Asiff Husseinأسيف حسين" يعرف مسلمو سريلانكا خضر بالأسماء المختلفة . إنه يُسَمَّى,Kilur, Kalir or Halir كيلُر، كالير أو هالير، كلّ المشتقّات لخضر العربيّ وأيضًاHayatun Nabi "حياةُ النبي" أو النّبيّ الحيّ . هذا بالرّغم من حقيقة أنّ النّبيّ محمد يُعدّ آخر الأنبياء في الإسلام . إن الطّقوس التي نمت حول

---

[٤٤٨] ابن الأثير ، ضياء الدين :المثل السائر ص ٢٣٠

[449] Omar, Irfan;*Khidr in the Islamic Tradition*, The Muslim World,Vol.LXXXIII, No.3-4 July-October,1993,P.290

خضر هنا في سريلانكا كانت مختلفة نوعًا ما عن مثيلاتها في العالم الإسلامي إذ تأثرت بالنفوذ الهنديّ في الجنوب بشكل كبير، بخاصّة في طقوس رفع أعلام في الاحتفال به وهذا من التّقاليد المحلّيّة"[٤٥٠] .

والباكستانية وكما مر في قصائد جوته وريكرت ، وهناك قصائد طوال كما في قصيدة "خِضر نامه[٤٥١]" لنصر الدين هُنْذائي ، وفي أشعار نِظامي الذي يراه "سيد العالم" نجد حضور الخضر لافتا للانتباه مما يجعله موضوعا جيدا في الأدب المقارن.

وجد الشعراء في الخضر ضالتهم المنشودة ، وحلمهم المستحيل ، فراحوا يحاورونه في جلجامش وفي فاوست وفي أوزيريس مع خلاف في الأسماء ، لكنه ظل حاضرا في أشعار جوته وريكرت كما ذكرت سابقا ، وظل حافظ شيرازي ينادي" أدرك أرواحنا الصادية الظامئة ، ولو بجرعة واحدة ، حينما يصبُّون* زلال الخضر* في قرارة كأسك."[٤٥٢]

يطور نجم الدين كبرى ماء الحياة الذي شربه الخضر فلا يراه سوى العشق فيقول:

"إن العشق باقة شجيرة الشباب

والعشق رأس مال الحياة الخالدة

وإذا أردت ماء الحياة كالخضر

فإن ينبوع ماء الحياة هو العشق"[٤٥٣]

يقول محمد إقبال:

عدوتُ للطِلاب في البراري مرتديا بالنفع والإعصارِ

بغير خضرٍ أبتغى المنازلْ يحمل رحلي للخيال كاهل[٤٥٤]

وتأتي قصيدة فريدالدين العطار "مجنون الله" وحواره الفلسفي مع الخضر ، يسأل الخضر فيها مجنون الله:

"– أيها الرجل الكامل هل تحب أن تكون صديقي؟

– أنا وأنت لا نتفق

---

[450] Asiff ,Hussein :"Kataragama - The land of Khidr", The Sunday Observer (Colombo) of August 31, 2003

[٤٥١] هونذائي ، نصر الدين : خِضر نامه ، ط.خناي حكمت ، كراتشي ، باكستان ؟

[٤٥٢] أخبار الأدب " من أشعار حافظ شيرازي " ترجمة د.إبراهيم الشواربي ، العدد ١٢٩ ، ١٩٩٥/١٢/٣١م.

[٤٥٣] غني ، د.قاسم :تاريخ التصوف ج٢ ص٨٤٧ ترجمة صادق نشأت ،ط.النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٠

[٤٥٤] عبدالوهاب عزام (دكتور): إقبال ص ٢٤٣ ط.دار القلم ، القاهرة ١٩٥٤

- فإنك شربت جرعات كبيرة من ماء الخلود
- ولذلك ستعيش أبدا
- أما أنا فإنني أتمنى أن أسلم روحي لله"[٤٥٥]

وقد دافع جلال الدين الرومي في مثنوياته عن موقف الخضر مع موسى :

"فإذا كان الخضر قد خرق السفينة في البحر ، فقد كان في عمله هذا مائة صواب . وقد خفي هذا على وهم موسى ، مع كلّ ما كان له من نور وفضل ، فلا تطر أنت بلا جناح".[٤٥٦]

وفي موضع آخر يقول :"واسلك سلوك موسى وهو لرهن حكم الخضر.

واصبر – بدون نفاق – على كل ما يعمله الخضر ، حتى لايأمرك بالذهاب قائلاً{ هذا فراق بيني وبينك }[٤٥٧]

فلو أنه خرق السفينة فلا تنبس بكلمة . وإذا قَتل الطفل فلا تقتلع شعر رأسك ".[٤٥٨]

وقد أكثر الرومي من الاستشهاد بقصة الخضر وموسى في حكاياته في المثنوي مدللاً على أن العقل ينبغي أن يخضع للروح ، وعلى المرء أن يتعظ من مواقف الخضر الذي يغدو لديه وسيلة تعليمية وأنموذجاً للحوار التعليمي.وعلى حد قول الدكتور محمد عبد السلام :"موسى هنا رمز للمريد ، والمرشد يدعوه إلى الصمت ، حتى لا يضطر إلى الابتعاد عنه ،كما اضطر الخضر إلى مفارقة موسى"[٤٥٩]

وآخر القصائد الطوال في "بانك درا" صلصلة الجرس لإقبال قصيدتان عنوانهما "خضر راه" و"طلوع الاسلام" وصف في الأولى قصائد المسلمين[٤٦٠].

وقد ذكر ابن الجوزي في اللطائف:". فيالك من جرح تعز مراهمه.كان عيش عشبة خضرا فأحالت الحال سنة، فكأن أيام الوصال كانت سنة، فكاد يقطع باليأس، حتى التقى الخضر بإلياس.

أَرقى قَد رَقّ لي مِن أَرقى وَرثى لي قَلقَي من قَلَقي

---

[455] Omar, Irfan;*Khidr in the Islamic Tradition*, The Muslim World,Vol.LXXXIII, No.3-4 July-October,1993,P.287

[٤٥٦]جلال الدين الرومي :المثنوي جـ١ ص ٩٥.

[٤٥٧]سورة الكهف ، ١٨ :٧٨

[٤٥٨]جلال الدين الرومي :المثنوي جـ١ ص ٣٥٢

[٤٥٩]د. محمد عبد السلام كفافي :شروح مثنوي جلال الدين الرومي جـ٢ ص ٥٧٤

[٤٦٠]عبدالوهاب عزام (دكتور): إقبال ص ١٨٠ ط.دار القلم ، القاهرة ١٩٥٤

وَبُكائي مِن بُكائي قَد بَكى وَتَشَكَّت حُرقي مِن حِرقي"

ولقد ألفيتُ حضوراً كبيرا للخضر في الشعر العربي ، وقد أحصيت مئات الأبيات التي استحضرت الخضر واصفة لقاءه موسى عليه السلام أو موظفة إياه توظيفاً فنياً من حيث الإسقاط أو الرمز أو المعادل الموضوعي .

لا يوجد أثر للخضر في الشعر في العصر الجاهلي ، ولعل أول إشارة نجدها في قول مجنون ليلى (ت٦٨هـ=٦٨٧م) الشاعر الأموي الذي كان أول من ذكر الخضر في شعره عندما قال:

وتزعم ليلى أنني لا أحبُّها بلى والليالي العشر والفع والوترِ

بَلى وَالَّذي نَجّى مِنَ الجُبِّ يوسُفاً وَأَرسَلَ داوُوداً وَأَوحى إِلى الخِضرِ [٤٦١]

يكثر الحديث عن الخضر والاستشهاد به في العصر العباسي والفاطمي والأندلسي والأيوبي والمملوكي وفي العصر الحديث أيضا ، وهذا يدلل على استحضار الخضر في الذاكرة الإبداعية التي تعد مرآة للذاكرة الجمعية للشعوب.

يتحدث أبونواس (ت ١٩٨هـ=٨١٣م)على لسان الخمر وأنها قديمة منذ بداية الخلق فتقول مزهوة:

سَمِعتُ بِذي القَرنَينِ قَبلَ خُروجِهِ وَأَدرَكتُ موسى قَبلَ صاحِبِهِ الخِضرِ

وَلَو أَنَّني خُلِّدتُ فيهِ سَكَنتُهُ إِلى أَن يُنادي هاتِفُ اللَهِ بِالحَشرِ

ولو تمعنا البيت الثاني لألفينا صدى بقاء الخضر حيا حتى نهاية الدنيا ، وأبونواس هنا ينقل ما يسمعه في عصره حول خلوده.

ينتشر اسم الخضر في الربوع العربية وربما يعد هذا دليلا على حضوره في ذاكرة الشعوب ؛ ويكتسي الخضر صفات الجوّاب الجوّال حتى يغدو مثلا ؛ ففي مجمع الأمثال للميداني يذكر "الخضر معه وتد"يضرب للطائش الجوال ، وأسبق من الأجل ومن الأفكار أسير من الخضر عليه السلام.

وفي معرض حديث ابن خلكان على القاضي الجرجاني يقول:" وهي أبيات طويلة ومشهورة، فلا حاجة إلى ذكرها. وذكره الثعالبي في كتاب "يتيمة الدهر"

[٤٦١] ابن الملوح ، قيس : ديوان ص ١١٠ تحقيق د.رحاب عكاوي ، بيروت ١٩٩٤

" فقال: " هو فرد الزمان، ونادرة الفلك، ...، وقد كان في صباه خلف الخضر في قطع الأرض وتدويخ بلاد العراق والشام وغيرها، واقتبس من أنواع العلوم والآداب ما صار به في العلوم علماً، وفي الكمال عالماً" فالخضر قاطع البلاد أضحى مدحا وإضفاء على جمال صفات الممدوح.

وقد ذكر الراغب الأصفهاني في باب الكثير التقلب في البلدان في كتابه محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء قول أبي تمام:

خليفة الخضر من يربع على وطن في بلدةٍ فظهور العيس أوطاني"[٤٦٢]

فالجوال خليفة الخضر ، وإذا أخذنا الأمثال في دلالاتها النقدية فإنها توحي بانتشار الرأي السائد نحو بقائه حيا يجوب البلاد وتطوى له الأرض ، وهنا نلحظ اختلاط الفكر الصوفي بالإبداع وبالذاكرة الجمعية وربما نتلمس جذوره في التراث العربي والإسلامي وكيفية نشأته.

وفي التمثيل والمحاضرة لأبي منصور الثعالبي ذكر"ويقال: فلانٌ خليفة الخضر، إذا كان يديم السفر ويكثر المسير"

وقال أبو منصور الثعالبي أيضاً في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب:"يقال للرجل إذا كان جوالاً في الأسفار، جواباً للآفاق: فلان خليفة الخضر. كما قال أبو تمام في نفسه:

خليفةُ الخضر من يربع على وطنٍ في بلدةٍ فظهورُ العِيسِ أوطاني[٤٦٣]

ثم قال:

بالشام قومي، وبغداد الهوى، وأنا بالرقتين، وبالفسطاط إخواني

وما أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تسافر بي أقصى خراسان[٤٦٤]

وقال الثعالبي:

"يقال فلان خليفة الخضر إذا كان جوالاً في الأسفار جوابا للبلاد ... "وقد" يوصف بهذه الكناية من تكثر نهضاته وتتصل حركاته وان لغير الاستماحه ورؤي بعضهم يسأل في قرية فقيل له ما تصنع فقال ما صنع موسى والخضر يعني أنهما استطعما أهل قرية"

---

[٤٦٢] الأصبهاني،أبوالقاسم حسين بن محمد الراغب: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء ج٢ ،ط. ١٩٧٠

[٤٦٣] أبوتمام:ديوان أبي تمام ج٢ ص ١٥٦-١٥٧ شرح الخطيب التبريزي ، ط.دار الكتاب ، بيروت ١٩٩٢

[٤٦٤] السابق

وقال الزمخشري في ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: "يقال للرجل المسفار خليفة الخضر"،وذكر بيتيْ أبي تمام.

وقيل لرجل: إن السفر قطعة من العذاب، فقال: بل العذاب قطعة من السفر. قال:

كل العذاب قطعة من السفر يا رب فارددني إلى روح الخضر"

كما أورد الزمخشري.

قال شهاب الدين الخفاجي في ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا "وكنتُ لما ذُيل بالنَّوى عيْشِي النَّضِر، وَلَيْت سِياحةَ الآفاقِ فَصِرت خليفةَ الخَضِر، تهادتْني التَّنائِف، وقذفَتْنِي الأمانيُّ في لَهَوات المخاوِف، كأنِّي قَذَاة بأجفانِ الدهر، أو سَفَاة بوجْه

نهر، أو كُرَة لاعب، أو سهم محارب، طَوْراً أُشَقِّق قلب الشرق كأنِّي أُفتِّش على الفجْر،"

وقال:" وقد قيل لكلِّ زمان خَضِر.

إذا ما ذكَرْنَا جُودَه كان حاضرا نأَى أو دَنَى يسْعَى على قَدَم الخِضْرِ"

وقال أبو منصور الثعالبي في نثر النظم وحل العقد ، "فصل في حل قول الشاعر"

تغريت أسألُ من عن لي من الناس هل من صديق صدوق

فقالوا عزيزان لا يوجدان صديق صدوق وبيض الأنوق

أنا رجل طالما تغربت. وشرقت وغربت. حتى كأني قذاة أوكحل مض. في عين الأرض. وخليفة الخضر في قطع البر والبحر وضالتي المنشودة في أسفاري. (...)"

فالبحتري (ت٢٨٤هـ=٨٩٧م) يقول مفتخرا:

كُلِّمَ الخِضرُ لي فَصَيَّرَني بَعـ ـدَكِ عَيناً عَلى عِيارِ البِلادِ

ليلة بالشآم ثُمّتَ بالأهْـ ـوازِ يوما ، وليلةً بالسَّوادِ

وطني حيث حطّت العيسُ رَحلي وذراعي الوِسادُ وهو مِهادي[٤٦٥]

ويؤكد الناشىء الأكبر (ت٢٩٣هـ=٩٠٦م) في بيته التالي القول بطول عمر الخضر ؛ وأنه قد صار من الأشياء الشائعة في عصره لدرجة أنه يقول:

تبلَّج برَوحِ اليأسِ أو رَوحة الغِنى أو الصِدقِ لي في الوعدِ أو طلب العُذرِ

---

[٤٦٥] البحتري (الوليد):ديوان ج ١ ص ٦٢٠ تحقيق حسن الصيرفي ، ط.دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٢

فما لي تُقى يحيى ولا حلمُ يوسُفٍ ولا صبرُ أيوبٍ، ولا مُدَّةُ الخِضرِ[٤٦٦]

فمدة الخضر الممتدة عبر الأزمنة صارت من المقولات المتواترة في عصره ؛ ونستشف من إشاراته الشعرية إلى بقاء الخضر.

يحكي على بن الجهم (ت٢٤٩هـ=٨٦٣م)في قصيدته الدنيا والرسل حتى إذا جاء ذكر شعيا قال

وَيونِسٌ وَلّى ، فَقامَ شَعيا فَأَنزَلَ اللَهُ عَلَيهِ الوَحيا

وَقيلَ إِنَّ الخِضرَ مِن إِخوانِهِ وَإِنَّهُ قَد كانَ في زَمانِهِ

ويعود ذكره مع ابن حجاج (ت٣٩١هـ=١٠٠١م) في قوله:

ثم قلْ للشمالِ من أين يا ريـ حُ تحملت روح هذا النسيم

أترى الخضر مرّ لي فيك أم جز ت برضوان في جنان النعيم

أو قوله :ويضيع فيها الخضر وهـ و يسير في ظهر البراق

ويكشف بيت ابن حجاج هذا عن منح الخضر البراق وهذا يشف عن أثر الإسراء والمعراج وتأثيرها في تشخيص الخضر في الذاكرة الجمعية.

يتحدث المتنبي (ت ٣٥٤هـ=٩٦٥م)عن ممدوحه ابي الحسين بن إبراهيم ونرى مصطلحا صوفيا من مرتكزات الصوفية وأقوالهم اللاحقة " يَسعى عَلى قَدَمِ الخِضرِ "وهذا ما سيشتهر عند المتصوفة من بعد ؛ فيقول:

إِذا ما ذَكَرنا جودَهُ كانَ حاضِراً نَأى أَو دَنا يَسعى عَلى قَدَمِ الخِضرِ[٤٦٧]

والمتنبي يشير هنا إلى أن الخضر جوّاب أمكنة شرقا وغربا ، ولا شك أن التشبيه يوحي بشهرة الخضر حتى صار مشبها به في المديح.فينقل البهاء زهير(ت٦٥٦ هـ=١٢٥٨م) مقولة المتنبي في مدحه الملك الكامل فيقول:

أَياديهِ بيضٌ في الوَرى مُوسَوِيَّةٌ وَلَكِنَّها تَسعى عَلى قَدَمِ الخِضرِ[٤٦٨]

وينقل محمود سامي البارودي المقولة في شعره على لسانه:

بَلَغْتُ مَدَى خَمْسِينَ وَازْدَدْتُ سَبْعَةً جَعَلْتُ بِهَا أَمْشِي عَلى قَدَمِ الْخِضْرِ

يؤكد التهامي (ت٤١٦هـ=١٠٢٥م) لنا أن الخضر جوّاب أمكنة:

لَعمري لَقَد طَوَّفت في طَلَبِ العُلى وَحالَفَني بَرٌّ ، وَحالَفَني بَحرُ

---

[٤٦٦] كما ورد هذان البيتان منسوبين لابن طباطبا العلوي (ت٣٢٢هـ=٩٣٣م)

[٤٦٧] المتنبي: ديوان ج١ ص٢٤٠ ط.دار الكتاب ، بيروت ١٩٨٦

[٤٦٨] البهاء زهير: ديوان ص١٠٠ تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم ، ط.دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢

فَشَرَّقَت حَتّى لَم أَجِد لي مَشرِقاً وَغرَّبت حَتّى قيلَ هَذا هوَ الخضرُ

في عصر أبي العلاء المعري(ت٤٤٩هـ=١٠٥٧م) يبدو أن مقولة بقائه نالت شأوا بعيدا ومناقشات عديدة حتى أضحت فتنة بين المؤيدين والمعارضين، فقد رأيناه يحاول دحض هممهم بعقلانية لم تجد آذانا واعية، فيتهكم معملا خياله فيما لو كان الخضر حيا ، يقول:

يَقولُ الغُواةُ :الخِضرُ حَيٌّ عَلَيهِمُ عَفاءٌ، نعم لَيلٌ مِنَ الفِتَنِ اِخضَرّا

وَلَو صَدَقوا ما اِنفَكَّ في شَرِّ حالَةٍ يُعاني بِها الأَسفارَ أَشعَثَ مُغبَرّا

وَلَكِنَّ مَن أَعطاهُمُ الخَبَرَ اِفتَرى وَأُلفِيَ مِثلَ السِّيدِ أَجمَعَ وَاِفتَرّا

جَنى قائِلٌ بِالمَينِ يَطلُبُ ثَروَةً وَيُعــذَرُ فيــهِ مَــن تَكَــذَّبَ مُضطَرّا[٤٦٩]

فالمعري هنا يتهم من قال ببقائه بأنهم غواة كاذبون مفترون لهم غرض جمع الثروات، وهي إشارة غامضة فربما عني القائلين ببقاء الإمام الغائب! أو أنه قصد الشحاذين الذين يعبرون مدعين أنهم الخضر فيخشاهم الناس ولذا يعطونهم ابتغاء دعواتهم واتقاء غضبهم.وربما عني هؤلاء الذين يرون حياة الخضر عموما، ولا يخفى تهكم المعري من الغواة الذين لوصدقوا فإن الخضر أشعث أغبر يجول البلاد في شر حالة ؛ كما لا نتجاوز ما أشار إليه المعري في قوله " وَيُعذَرُ فيهِ مَن تَكَذَّبَ مُضطَرّا" فما وجه الضرورة التي تعفي الكاذب من وزر كذبه؟

ويقول في موضع آخر:

يا رَبَّةَ الخِدرِ عُدّي ميتَةً وَسَناً فَإِنَّما أَنتِ إِحدى الغيدِ مِن مُضَرِ

طيبي ضَميراً بِأَمرٍ لا مَحيدَ لَهُ يَلقاهُ بِالرَغمِ أَهلُ البَدوِ وَالحَضَرِ

لَم تُكفَهُ الخُضرُ مِن لُؤمٍ وَلا كَرَمٍ وَلا تَجاوَزَ عَن موسى وَلا الخَضِرِ

لَو كانَتِ الريحُ تَحتي ما نَجَوتُ بِها فَكَيفَ أَنجو بِذاتِ الشَدِّ وَالخُضُرِ[٤٧٠]

فالمعري يرى أن الخضر حقيقة لكنه مات من زمن وهومذهب عقلاني آمن به المعري في نظرته تجاه القضايا ، واتخذه منهج تفكير صارم ينتهجه دوما.

يوظف ابن حيوس (ت ٤٧٣هـ=١٠٨٠م)شهرة سرعة الخضر وطي الأرض له في مدائحه:

---

[٤٦٩] المعري ، أبوالعلاء :لزوم ما لايلزم ج١ ص ٨٨ ،بيروت ١٩٧٥

[٤٧٠] الخضْر:ارتفاع الفرس في عدوه ، المعري :لزوم مالا يلزم ج١ ص ٥٣٣...

قَد شاعَ ذِكرُكَ في الدُنيا بِرَغمِ عِدىً يَطوُونَهُ ما اِستَطاعوا وَهوَ يَنتَشِرُ
فَهَل رِياحُ سُلَيمانٍ تَجوبُ بِهِ الـ بِلادَ أَم باتَ يَسري بِاِسمِكَ الخَضِرُ

يتخذ عمارة اليمني (ت٥٦٩هـ=١١٧٤م)شهرة الخضر في تشبيه فضائل الممدوح لكننا نرى فيها تطواف الخضر في بقاع الدنيا:

ووقائع أيدتها بصنائعٍ ضمن المديح لذكرها أن يشترى
نابت مناب الخضر في تطوافه مذ فارقت هذا الجناب الأخضرا

أو قوله:

ودوخت أقطار البلاد كأنني إلى الريح أعزى أو إلى الخضر أنسب

وينقل العماد الأصفهاني قول علم الدين الشاتاني في عمر المَلاّء:

وأصدقُ النّاس في حفظ العهود إذا ميَّزْتَ بالفكر أحوالَ الورى عُمَرُ
الزَّاهد العابد البَرُّ التَّقِيُّ ومَنْ يزوره ويُقوِّي أزرَه الخَضِرُ[٤٧١]

وهذا يدل على بقاء الخضر في نظر العماد الأصبهاني...

وينتقل الخضر إلى المغرب و الأندلس وهذا ما نراه في حكاياهم وأشعارهم ؛ ففي أقدم كتاب أندلسي نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري التلمساني(ت ١٠٤١=١٦٣١م) نجده عقد بابا عن " الأمم التي استوطنتها"قال ابن حيّان في المقتبس: ذكر رواة العجم أن الخضر عليه السلام وقف بإشبان المذكور وهو يحرث الأرض بفدنٍ له أيام حراثته، فقال له: يا إشبان، إنّك لذو شانٍ، وسوف يحظيك زمانٌ، ويعليك سلطانٌ، فإذا أنت غلبت على إيليا فارفق بذرية الأنبياء، فقال له إشبان:أساخرٌ رحمك الله؟ أنّى يكون هذا مني وأنا ضعيفٌ ممتهنٌ حقيرٌ فقيرٌ ليس مثلي ينال السلطان؟ فقال له: قد قدّر ذلك فيك من قدّر في عصاك اليابسة ما تراه، فنظر إشبان إلى عصاه، فإذا بها قد أورقت، فريع لما رأى من الآية، وذهب الخضر عنه، وقد وقع الكلام بخلده، ووقرت في نفسه الثقة بكونه، فترك الامتهان من وقته، وداخل الناس، وصحب أهل البأس منهم، وسما به جدّه فارتقى في طلب السلطان حتى أدرك منه عظيماً، وكان منه ما كان. ثم أتى عليه

[٤٧١] العماد الأصفهاني: خريدة القصر وجريدة العصر ج٣ تحقيق محمد المرزوقي وآخرين ، ط.الدار التونسية ١٩٧٣.

ما أتى على القرون قبله، وكان ملكه كلّه عشرين سنةً، وتمادى ملك الإشبانيين بعده إلى أن ملك منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكاً"

ونجد القصة السالفة الذكر في الروض المعطار في خبر الأمصار لابن عبدالمنعم الحميري، وهي رواية على غير نسق الروايات الأخرى فالخضر فيها يولي الملوك ؛ ولهذا فليس غريباً أن نجد الخضر في أشعارهم.

يقول ابن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ=١٠٧١م) لممدوحه:

كلُّ المدائحِ إلا فيكَ بَاطِلَةٌ إنَّ البلاغَةَ في الأَحْبَابِ كَالحَصَر

بقيتَ حتى تقولَ النَّاسُ قاطبةً هَذا أَبُو إلياسِ أَو هذا أَخُو الخضرِ

أو قوله:خضرةٌ في لَونِه ولَهُ نفَسٌ يُعْزَى إلى الخَضِرِ

يقول السيد البطليوسي (ت ٥٢١هـ=١١٢٧م)في مدحه لأبي عامر يقول :

وأصبحت كالمأمون تقفو سبيله كأنك موسى تقتفي أثر الخضر

وما علت صبراً حين قلدك العلا وجاء بأمر من بدائعه أمري

يؤكد سِبط ابن التَّعاويذي(ت ٥٨٣هـ=١١٨٧م) خلود الخضر في مدحه الإمام الناصر لدين الله؛ يقول:

عَيشَةَ مُلْكٍ خَضراءَ ناعِمَةً تَخلُدُ فيها ما خُلِّدَ الخَضِرُ[٤٧٢]

ويقول أبوالحسن الششتري (ت ٦٦٨هـ=١٢٦٩م):

حالُ أهْلِ الوَلايَهْ حال مُصحَّحْ مُحكَّم

إنَّ في الخِضْرِ آيهْ والنَّبيّ مكلَّم

كُلُّهُم لو طرِيقه والْتَقُوا عِندَ مجْمَع

إنَّ عِلْمَ الحقيقه نُور وبالحقِّ يصتدع

يوظف الشريف الأصم – من شعراء الأندلس في القرن السادس الهجري – شهرة الخضر كناشر للخضرة أينما حل ، وهذا استحضار للأحاديث النبوية التي أشارت إلى جلب الخضرة أينما سار ، فيقول في وصف نارنجة نصفها أحمر ونصفها أخضر كما روى النويري في نهاية الأرب في فنون الأدب:

وَبِنتِ أَيكٍ دَنا مِن لَثمِها قُزَحٌ فَلاحَ مِنهُ عَلى أَرجائِها أَثَرُ

يَبدو لِعَينَيكَ مِنها مَنظَرٌ عَجَبٌ زَبَرجَدٌ وَنُضارٌ صاغَهُ المَطَرُ

---

[٤٧٢] سِبط ابن التعاويذي (أبوالفتح) : ديوان ص ١٦٢ تحقيق مرجليوث ،ط.المقتضب ١٩٠٣

كَأَنَّ موسى كَليمَ اللَهِ أَقبَسَها ناراً وَجَرَّ عَلَيها كَفَّهُ الخَضِرُ

يستحضر ابن الحاج البلفيقي (ت٧٧١هـ=١٣٧٠م)قصة الخضر والجدار ويبني عليها:

من عَذيري من لائمٍ في بنائي وهو لي التَرجُمان عن أخباري
ليس يدري معناه من ليس يدري أنَّ ما عنده على مقدارِ
أقتدي بالذي يقول بناها ذلك الخالق الحكيمُ الباري
وبمن يرفع القواعد من بيـ ـتٍ عتيقٍ للحج والزوارِ
وبمن كان ذا جدارٍ وقد كا ن أبوهُ من صالحي الأَبرارِ
وبما قد أقامه الخِضر المخـ ـصوص علماً بباطن الأَسرارِ
كان تحت الجدار كنزٌ وما أد راكَ ما كان تحت كنز الجدارِ

وقد وردت لدى داوود الأنطاكي في تزايين الأسواق قصة الخضر في معرض الغزل ، إذ أورد قول ابن قرناص:

ووجنةٍ قد غدت كالوردِ حمرتها وأشبه الآس ذاك العارض النضر
كأن موسى كليمُ اللّه أقبسها ناراً وجرّ عليها ذيله الخضر[٤٧٣]

ويلحظ هنا أن الخضر قد تجاوز القصة الدينية بل غدا لشهرته يدخل في معظم فنون الشعر ، فكل جميل مخضر من الأمكنة يستحضر الخضر ويؤمن بقول من قال بمروره في هذا المكان فاخضر ما حوله ؛ فقد قال مرج الكحل (ت٦٣٤هـ=١٢٣٦م) وهو شاعر أندلسي وكانت شهرة حكايا الخضر قد وصلت الأندلس ووظفها الشعراء في أشعارهم عندما وقف على الجزيرة :

سَقى اللَهُ الجَزيرةَ مِن مَحَلٍّ فَقَد حَسُنَت لِقاطِنِها مَراحا
وَكانَ جَنابُها يَخضرُّ آسا فَأَصبَحَ وَهُوَ مَبيضٌ أَقاحا
كَأَنّ الخضرَ مَرَّ بِهِ يَميناً وَمَدَّ عَلَيهِ جبريلٌ جَناحا

ولا يمكن أن نفهم هذه الأشعار بصورها البلاغية إلا إذا فهمنا أن شهرة الخضر قد أضحت من القوة بمكان لدرجة أن الشعراء يأخذونها وسيلة إيضاح وطرق إبداع جمالية.

[٤٧٣] ورد البيت الأخير منسوبا للشريف الأصم

من خلال أشعار ابن الأردخل (ت٦٢٨هـ=١٢٣١م)نطمئن إلى شيوع أسطورة الخضر وعين الحياة والظلمات فيقول:

واهاً على عيش مضت سنواته وكأنما كانت هي الساعات

والراح ترحم كل هم طالع بكواكب أفلاكها الراحات

قابلت بالساقي السماء فاطلعت بدراً على كأنها مرآت

الخضر عارضه وواضح ثغره عين الحياة وصدغه الظلمات

وهنا نرى أسطورة عين الحياة ناصعة البياض والظلمات التي تلفها ، وربما كان هذا من آثار رواية وهب بن منبه.

يستخدم القاضي الفاضل (ت٥٩٦هـ=١٢٠٠م) خلود الخضر في كتاباته قائلا:

كِتابٌ بِهِ ماءُ الحَياةِ وَنَقعةُ الـ حيا فَكَأَنّي إِذ ظَفِرتُ بِهِ الخضر

وهذا الاستحضار ينبئ أن خبر الخضر قد انتشر في أوساط المجتمع بحيث صار من الأمور الشائعة التي يعزى إليها في ألوان البلاغة والتصوير.

ثم نجد اللواح (ت٩٢٠هـ=١٥١٤م)يقول:

ورب قوافٍ بين مدح ممجد وبين نسيب كالمزاهير مطرب

شوارد مثل الشمس في كل بقعةٍ أو الخضر لم يفقد بشرق ومغرب

ويقول المكزون السنجاري (ت ٦٣٨هـ=١٢٤٠م) وهو زعيم من زعماء الطائفة العلوية:

يَتيمَةُ الدَهرِ الَّتي كافِلُها وَلِيُّ ذي الكِفلِ وَصاحِبُ الخِضِر

يسخرحسام الدين الحاجري(ت٦٣٢هـ=١٢٣٥م) من أحد الأطباء قائلا:

أفنى ابن شمعونٍ جميع الورى فليت لو يعدمنا طبه

لست أطيل الشرح في وصفه لو عالج الخضر قضى نحبه

وهذا دليل على أن معظم الأدباء رأوا بقاءه حيّاً، وربما كان هذا دافعا لشحذ خيالاتهم نحو تجواله شرقا وغربا ، ورؤيته بين الناس فجأة واختفائه عنهم دون أن يخلف أثرا.

والبيت الثاني دليل شيوع بقاء الخضر عبر العصور ، فلا توجد قطيعة زمنية في عصر ما تحول دون هذا الشيوع المنتشر في شتى البيئات.

يقول شرف الدين الحلي (ت ٦٢٧هـ=١٢٢٩م):

فشككت هل دارين فضت عطرها فيها أو الخضر النبيّ تديَّرا

أو قوله:

كأنه كان لي بقربكمُ يمين موسى إذ أَمَّه الخضِر

كما يقول عبدالمنعم الجلياني (ت ٦٠٢هـ=١٢٠٥م):

أَنسى مَلاحِمَ ذي القَرنَينِ وَاِعتَرَفَت لَهُ الرُواةُ بِما لَم يُنمِهِ أَثَرُ

أُعينُ إِسكَندَرَ بِالخَضرِ هَوله عَونٌ مِنَ اللَهِ يَستَغني بِهِ الخَضرُ

يؤكد فتيان الشاغوري(ت٦١٥هـ=١٢١٨م) أن الخضر صار المشبه به شهرة وسؤددا :

هُوَ الخَضرُ المَشهورُ نَشراً وَسُؤدَداً وَيوسُفُ حسناً والْقَ موسى تجد موسى

ويذكر كمال الدين ابن النبيه(ت٦١٩هـ هـ=١٢٢٢م) :

عَليمٌ لَهُ سَهْمٌ مِنَ الْغَيْبِ صائِبٌ ومَا كُلُّ موسى مُسْتَمِدٌّ مِنَ الخضْرِ

عند محيي الدين بن عربي(ت٦٤٠ هـ=١٢٤٢م) يتخذ الخضر شأنا آخر فالخضر هو صاحب الخرقة :

أُلبستُ من هوى ذاتي خِرقة الخَضر ما بين زمزم والركنين والحجرِ[٤٧٤]

على التزيُّن بالمرضيِّ من صفةٍ محمودةٍ بين أهل الشَّرعِ والنظر

ولا تزال مع الأنفاسِ قائمةً به إلى منتهى الأوقاتِ والعُمرِ

وما تحللها من سيءٍ فلنا عليه شرط صحيح جاء في الخبر

والخرقة هنا الرمز ؛ ويؤكد أهميتها ويذكر مكان لبسه الخرقة بمكة، ويلمح ابن عربي إلى أنه وصل بالتقوى إلى منزلة أعلى من خرقة الخضر فيقول أيضا:

لما تأدبتَ بي يا منتهى ألمي وأحسنَ الناسِ في المعنى وفي الصورِ

وكان قد ملكت قلبي محاسنُها خبراً تحققه يربى على الخبرِ

ألبستُها من سنى الأثوابِ ثوبَ تُقى فخراً على جنسِها من خِرقةِ الخضر

وهي التأدُّب بالآدابِ أجمعها مع التخلُّق بالآياتِ والسُّوَرِ

والعهدُ ما بيننا أنْ لا تبوح بها ولا تعرّفُها شخصاً من البَشَر

لكي تكونَ من الإخلاص نشأتُها فليس يلحقها شيءٌ من الغيرِ

لكنه في موضع آخرفي الفتوحات المكية يتحدث عن مُلْك الضياء"الذي يراه أرفع ملكا فيقول:

---

[٤٧٤] في الشطر الأول كسر عروضي بين.

فالكلُّ في مُلك الضياء وليس عندهم خبرْ
والكل في عين الظلال وهو المسمَى بالمقرْ
هذا هو العلم الذي يقضي على علم الخضر
هل كان إلا خرقُهُ سفينةً ذاتَ دُسُر؟
وقتل نفسٍ رحمة لو أنّه يحيا كَفَرْ
وسَتره كنزَ الذي كان يتميا يُحتقرْ
وعلمنا بالله لا بعينِ كونٍ عن نظرْ
فأين ذا من ذاك يا أهل القلوب والبصر؟
هذا هو العلم الذي يقال "سحر مستمر"
ودونه الشمس التي تُكسف فيه والقمرْ
في مقعد من صدقه "عند مليك مقتدر"
متكئٌ على سرر وسْط جنان في نَهَرْ"[٤٧٥]

ويقر ابن عربي أنه أضحى أعلم من علم الخضر وهذي إحدى شطحاته ، ويكرر ابن عربي الاستناد إلى موقف الخضر من موسى ويحول الخضر لديه إلى أخضار متعددة حسب الموقف.

يتحدث ابن حجر العسقلاني(ت ٨٥٢هـ=١٤٤٩م) في قصيدة غزلية:

وَمذ لاح في الخدّ اِخَضرارُ عذاره تواتر عِندي ما رَواه عَن الخضرِ

يستخدم ابن نباتة المصري (ت٧٦٨ هـ=١٣٦٦م) الإسقاطات التاريخية في وصف حماة فيقول:

أما حماة فعيش ساكنها صفو وكل زمانه سحَر
إسكندر الأيام مالكها بدليل أن زمانه الخضر

وقوله:

سلامٌ على إسكندر الوقت إن يفح شذا الذكر عنه فالسلام على الخضر

وقوله مادحا الوزير بهاء الدين مؤكدا بقاء الخضر:

يبقى الوزير بهاء الدين ما بقيت زهر النجوم ، ويفنى أكثر البشر
وقد تفاءلت من طول البقاء له إذ قال عنه الورى هذا أخو الخضر

---

[٤٧٥] ابن عربي : الفتوحات ج١٨ ص ٥٤٤

وقد ذكرت آنفا شهرة مقولة "هذا أخو الخضر" التي غدت مثلا متواترا.

وقوله:

قل للإمام الذي جلت صنائعه عندِي وعند عفاة البدو والحضر

يا من أغاثَ بذي القرنين أضحيتي بقيت للدين والدُّنيا بقا الخضر

وبقاء الخضر عند ابن نباتة المصري واضح أنه بقاء طول الأزمنة ، وإلا لما صار دعاء يدعى به للممدوح والأحبة، وهذا ما يؤكد ما أذهب إليه من أن من رأى بقاءه كان أكثر عددا وحضورا من الذين رأوا موته ، كما أن معظم الأدباء رأوا هذا الرأي وهذا ما ينطق به شعرهم الكثير ، وأنهم ألفوا فيه رؤية فنية للخلود ورمزا للبقاء والحضور والتجدد والشباب الذي لا يهرم ولا يبلي، وأنه الجوال في البُلدان دون توقف، والمشاهد أحوال الناس دون ملل، والشاهد على التغير في ثبات وبقاء.

في مدائح السراج الوراق(ت ٦٩١هـ=١٢٩٢م) يركز على انتشار الخضر وطيب ذكره:

وَقَدْ طَافَ في الدُّنيا أرِيجُ ثَنائِه فإنْ لَمْ يَكُنْ خِضْراً فإنَّ ابنَهُ الخِضْرُ

وواضح انتشار أسماء خضر والخضر في الأوساط العربية والإسلامية.

ضاق الشاب الظريف(ت٦٨٨ هـ=١٢٨٩م)ذرعا بأهل قرية يقال إنها القرية التي استطعما أهلها ، فهجاها الشاب الظريف:

لا طَلّ صَوْب الغَوادِي سَاحَتي قطنا ولا رَعى اللّه مَنْ في أَرْضِها قطنا

ما أَنْصَفُوا الخَضِر الباني جِدَارهُمُ لَمَّا أَرادَ بِأَنْ يَنْقَضَّ حِينَ بَنَى

فَاسْتَطْعَما أَهْلَهَا مُوسَى وَصاحِبُهُ فَلَمْ يُضَيّفُوهُما شَيئاً فَكَيْفَ لَنا

هَجاهُمُ اللّه في القُرآنِ فَاهْجهُمُ وَالعَنْهمُ الدَّهْرَ واشْكُرْ كُلَّ مَنْ لَعَنا

ويقول الصاحب شرف الدين(ت٦٢٢ هـ=١٢٦٤م)

أَخْجَلْتَهُ عِلْماً وعَزْماً ماضياً فأصابَ مِنْكَ الخَضْرَ والإسكندَرا

والربط بين الخضر والإسكندر(ذي القرنين) واضح في الشعر العربي.

وقوله:

حَيِيْتَ فينا حَياةَ الخضْرِ مُغتَبِطاً كَما بُملْكِ قَرينِ الخَضْرِ حُيِّيتا

وبقاء حَياة الخضْرِ الطويلة واضحة في البيت.

يوظف القطب الجيلي قصة موسى والخضر عليهما السلام لوضع آداب المريد مع شيخه:

وَإِن ساعَدَ المَقدورُ أَو ساقَكَ القَضا إِلى شَيخِ حَقٍّ في الحَقيقَةِ بارِعُ
فَقُم في رِضاهُ وَاتَّبِع لِمُرادِهِ وَدَع كُلَّ ما مِن قَبلُ كُنتَ تُصانِعُ
وَكُن عِندَهُ كَالمَيتِ عِندَ مُغَسِّلٍ يُقَلِّبُهُ ما شاءَ وَهوَ مُطاوِعُ
وَلا تَعتَرِض فيما جَهِلتَ مِنَ امرِهِ عَلَيهِ فَإِنَّ الإِعتِراضَ تنازِعُ
وَسَلِّم لَهُ مَهما تَراهُ وَلَو يَكُن! عَلى غَيرِ مَشروعٍ فَثَمَّ مَخادِعُ
فَفي قِصَّةِ الخضرِ الكَريمِ كِفايَةٌ بِقَتلِ الغُلامِ ؛ وَالكَليمُ يُدافِعُ
فَلَمّا أَضاءَ الصُبحُ عَن لَيلِ سِرِّهِ وَسَلَّ حُساماً لِلمُحاجِجِ قاطِعُ
أَقامَ لَهُ العُذرَ الكَليمُ وَإِنَّهُ كَذَلِكَ عِلمُ القَومِ فيهِ بَدائِعُ

يقصد بـ"علم القوم" علم الصوفية وأدب الطريق.يركز القطب الجيلي على وجود أمر خفي لما يراه الشيخ وعلى المريد الطاعة دون تفكير ، وله في موقف الخضر حجة دامغة.

ثم يقول سيف الدين المشد(ت٦٥٦ هـ=١٢٥٨م) في غزله واصفا حاله مع المحبوب:

فأنت الخليلُ ونومى الذبيحُ وقلبي الكليمُ وأنت الخضر

فالمحبوب يفعل ما لا يتقبله المحب فينكره لكن قلبه يلتمس له عذرا له.

يتحدث شرف الدين البوصيري(ت٦٩٦ هـ=١٢٩٦م) عن الأولياء قائلاً:

ما ضرَّهم قول المُعانِدِ إنهمْ بِفِعَالِهِم أقوى الأنامِ نُفُوسا
كَم ذَمَّهُم جَهلاً وَأَنكَرَ حالَهُم قَوْمٌ يَلُونَ الحُكْمَ والتَّدرِيسا
فَرَدَدْتُ قَوْلَهُم بِقَوْلِي ضارِباً مَثَلاً على الخَضِرِ السَّلامُ وموسى

وكما أوردت آنفا فهي حجة يدعي معتقدوها بتعارض علمي الشريعة مع الحقيقة وكلاهما على حق .

تغدو عين الحياة لدى صفي الدين الحلي(ت ٧٥٠هـ=١٣٤٩م) مشبها به لجود الممدوح:

قَد كانَ جودُكَ لي عَينَ الحَياةِ إِذا وَردَتُهُ وَحَواني رَبعُكَ الخَضِرُ

وفي مدائح محمد بن حمير الهمداني(ت٦٥١ هـ=١٢٥٣م)يقول :

وابيض الوجه يُستسقى الغمام به والأرض تخْضَرّ حتى إنه الخضِرُ

وقوله

واطلُب الخضر تجدّه حيثما سار ذاك الشخصُ أو ماخيَّما

وقول يوسف الثالث:

بحيثُ التقى موسى الخضر إفادةً عسى اللّه بالعقبى كموسى وطارق

كما يقول ابن رازِكَه(ت ١١٤٤هـ=١٧٣١م) في مدح ابن الكَوري:

جَمَعتُ مَعارِفي مِنها وَقَصدي بِها تَكميلُ تَحلِيَةِ القَصيدِ

فَمِنها صُحبَةُ الخَضِرِ الَّذي لَم يُصاحِبهُ الوَرِعِ الرَشيدِ[٤٧٦]

وقوله:لأَمرٍ في اِزدِيادِ العِلمِ سارَت إِلى الخَضِرِ العَزيمَةُ بِالكَليمِ

في غزل ابن معتوق الموسوي(ت١٠٨٧ هـ=١٦٧٦م) نجد توظيفا للتراكيب اللغوية في قصة الخضر وموسى :

كأنّ دماً منها سَقى التُرْبَ قد سَقى رِقابَ العُلا بعد البِلى جَرعةَ الخَضْرِ

وقوله:كأنّما الخِضرُ فيما نال شارَكه ففي المراشِفِ منه طعمُ جُرعَتِهِ

وقوله: وبالخدِّ وردٌ نارُ موسى بصحنِه وميمُ فمٍ من عينه جُرعةُ الخضْرِ

وقوله

كشفْتُ حجابَ السّجْفِ عن بيضةِ الخِدْرِ فزحْزَحْتُ جنحَ الليلِ عن طلعةِ البَدْرِ

وهتَكْتُ عن سِـــينِ الثّنايا لِثامَها فأبصَرْتُ عينَ الخضْرِ في ظُلمةِ الشَّعْرِ

وهنا نجد مسكوكات جَرعة الخَضْرِ و عين الخضْرِ وقدم الخضر وكلها تدل على شهرة المسكوكات اللغوية من جهة وعلى أن الأدباء وجدوا فيها غنى لغويا وبلاغيا فاستخدموها في أشعارهم.

يقول أحمد بن حسين الكيواني (ت١١٧٣ هـ=١٧٦٠م):

اللَهُ أَكبر جاءَ النَصر وَالظفرُ وَالأَمن وَاليمن لَما ساعَدَ القَدرُ

وَاخضر رَوض الأَماني فَهِيَ حالية كَأَنَّما جَرَّ فيها ذَيلَهُ الخضرُ

ويذكر الأميرُ الصنعاني مادحا أحد الفقهاء لدقة تفسيره:

أظهرتم نكت اختلاف ضمائر خفيت على من فسر التنزيلا

في قصة الخضر الكريم ومن أتى من عند رب العالمين رسولا

فعلمت أنك راسخ في العلم ليـ س سواك حبراً يعلم التأويلا

---

[٤٧٦] بالشطر الأخير خطأ عروضي واضح.

والبحث في أطفال أهل الشرك قد طالعته فرأيت أقوم قيلا
ورأيت نقل كلام شارح مسلم مع ما تعقبتم به المنقولا
لكن قولكم التوقف في التـ عيين قول عل فيه ذهولا
(...)
من ظن موسى في الذي بالعلم فضـ له عليه إلهه تفضيلا
تركاً لهدى الأنبياء وإنه بعمارة الدنيا غدا مشغولا
أيظن بالخضر الكليم الميل للد نيا ويحسب ما يراه فضولا
مع أن ظاهر فعله حسن وليـ س كما مضى قد خالف المعقولا

أي أن قصة الخضر وموسى اتخذت سندا فقهيا حسم جدالا بين الفقهاء.

ويقول عبدالرحمن العيدروس:

إنما الخضر في الغلامين راعي لهما والداً من الصلحاء

ويأتي عبدالغني النابلسي ليتحدث عن نفسه من منطلق بلوغه درجات ومقامات:

أنا مجمع البحرين موسى ظاهرٌ والباطن الخضر الأجل السامي

وقال

قد رام فرعون أن يتبع أباه الخضرْ دعوى بِنَفْسهْ فَقَدَّمْ نفسَهُ في الصدرْ
وقال أنا ربك بالنفس ذات الخدر حتى غرق ؛ فاحترق بالنار نار القدر

وقوله:

وأراد الإله إطلاع موسى أن في الباطن العلوم الأنيقه
وابتلاء فلم يطق صحبة الخضـ رِ وقد كان في المسير رفيقه
فغدا منكراً عليه إلى أن نال تغريبه وذا تشريقه

وقوله في إحدى شطحاته:

وعلمي ليس يدريه سوى من لم يزل مثلي
وعلم الخضر في علمي وموسى رشحة البل

وربما كان من المعدودين القلائل الذين رأوا أنهم أعلم من علم الخضر وربما كان هذا من آثار ابن عربي، وهي رؤية لا تقبل من الجمهور لكن النابلسي يكررها كثيرا.

ينقل كاظم الأزري الموضوع إلى الغزل:

قلبي لدى بعضكم رهن وبعضكم هذا دمي راح مطلولا بوجنته

أفدي لكم كل مخصور ذوائبه تتلو لنا ذكر فرعون وفرقته
كأنما الخضر فيما نال شاركه ففي المراشف منه طعم جرعته

فكأن الخضر يستخدم في الشعر في فن المديح كمشبه به في السرعة والخلود ، والدعاء للممدوح بطول البقاء ؛ كما يوظف في فن الغزل ، ويوظف في فن النظم التعليمي سواء في منظومات تتحدث عن الأنبياء أو الأولياء أم تعليم المغزى الحقيقي من قصة موسى عليه السلام والخضر ؛ كما يوظف في شعر صوفي يتحدث عن تجارب خاصة بين الخضر والشاعر.

ومن المديح قول أبي مسلم العماني:

يخضر دارس قطر حيث تنزله كأن رجلك فيه راحة الخضر

يشبه أحمد محرم الأدب الراقي بعين الخلود

أدبٌ ينسابُ من معسولهِ في رُبوعِ الشرقِ ما يَشفي السَّقاما
مثلُ عين الخِضرِ من يظفرْ بهِ لا يَذُقْ داءً ولا يُطعَمْ حمِاما
إنّ للعلم لَسِرّاً جللاً نستفيدُ الخُلدَ منه والدّواما

يتوسل المفتي فتح الله إلى الله تعالى بالخضر في منظومته فيقول:

بِيوشَع ثمَّ الخضرِ بليا بأرميا بِشعْيا بِشمعونٍ بحزقيلَ في العَدِّ

وقوله:

اِخضَرَّ شارِبُهُ وَريقَتُه غَدت تُحيي لِشارِبها بقَرْقَفِها العَطِرْ
لَو لَم يَكُنْ ماءُ الحَياةِ بِثَغرِهِ ما كانَ قيلَ بِأَنّ شاربَه الخَضِرْ

وقوله متحدثا عن زيارة إمام دمشق لمقام الخضر ببيروت:

لَقَد زارَ بَيروتاً وَشرَّفَ أَرضَها فَقامَت عَلى الدُّنيا تَتيهُ وتعجَبُ
وَزارَ أَبا العبّاس أَعني مَقامَهُ هوَ الخضِرُ الحيُّ النبيُّ المُقرّبُ
لَدى نَهرِها السلسالِ طابَ زُلالُهُ وَسالَ لُجَيناً وَهوَ يَحلو وَيَعذُبُ

وقال بهاء الدين الرواس وهو أديب متصوف ردا على الجهلاء ممن يعيبون على الأولياء:

والنُّورُ نـورٌ بارِزٌ والفَيْضُ فيضٌ حاصِلُ
موسَى مع الخِضْرِ انْطَوَتْ منه لديهِ مَشاكِلُ
فرَقائقٌ وحَقـائقٌ وعَوائقٌ وعَواضِلُ

ويبدأ الخلط بين الخضر ومار جرجس عند الشعراء ؛ لانجد في الشعر أثرا للخلط بين الخضر وجرجس قبل خليل مطران الذي يقول:

عيدك باسم الخضر عيد الندى وافى وللعلياء فيه وسام
تدعو قلوب الناس فيه بأن تحيى إلى أمثاله ألف عام

وقوله

مِنْهُمُ الْفَارِسُ الَّذِي طَعَنَ التِّنِّيـ نَ وَالرِّمْحُ ظَامِئٌ بَسَّامُ
حَيِّ جَاوَرْجِيُوس فَهْوَ التَّقِيُّ الْ خِضْرُ وَهْوَ المُجَاهِدُ الضِّرْغَامُ[٤٧٧]

إن قاتل التنين هوالقديس جورج الذي حرر البلاد من تنين شرير كان الناس يقدّمون له كل عام عذراء كقربان وهذا نقلا عن [٤٧٨]Friedlaender كما قلت آنفا.

وهذا نراه لدى خليل ناصيف اليازجي أيضاً:

الخِضر جرجُسَ قد شدا طير الهنا واخضرَّ عند قرانهِ عود الصَفا
فَشَدا بِهِ ارّخ مَليحُ جمالهِ ذي مريمٌ وأَنا دعَوتك يوسُفا

وقول جرمانوس :

مَقامَ الخضر جرجس قَد تَولّى بِهِ أَرسانُ مَن للخيرِ يَجري

وقد جمع بعض الشعراء الخضر مع جورج وهذا من أثر الخلط ولاسيما في الشام وبخاصة في لبنان حيث المزارات المشتركة وكنائس القديس جورج الملاصقة لمساجد الخضر.

يربط جواد البلاغي بين الإمام الغائب والخضر الذي يتخذه حجة دامغة على بقاء الإمام وغيبته في قصيدة طويلة انتقيت بعض أبياتها:

وكم مختفٍ بين الشعاب وهارب إلى اللّه في الأجيال يألفه النسرُ
ولم يك من خوف الأذاة اختفاؤه ولكن بأمر اللّه خير له الستر
فهلا بدا بين الورى متحملا مشقة نصح الخلق من دأبه الصبر
وإن كنت في ريب لطول بقائه فهل رابك الدجال والصالح الخضر
أيرضى لبيب أن يعمر كافر ويأباه في باق ليحمي به الكفر

---

[٤٧٧] مطران، خليل: ديوان الخليل ،ج٣ ص ٢٣٦ ، ط.بيروت ١٩٧٥

[478]Friedlaender,I,Die Chadirlegende und der Alexanderroman,Leipzig 1913

فالدجال حي والشيطان حي فكيف – كما يقول البلاغي– تصدق هذا وترفض بقاء الإمام الغائب؟

يعلي جعفر الحلي من شأن الممدوح الإمام:

وَاندب أَبا صالح المَهديَّ إن طرقت نَوائبُ الدَهر شَتّى مِن هُنا وَهنا

هوَ الصَبور لَو اَنَّ الخضر أَبصَره في يَوم مُوسى لَقال اَقبِل وَسر مَعنا

وَلَم يَلمه بِإدعام الجدار وَلا قَتلِ الغُلام وَلا في خرقِه السُفُنا

وَراحَ يَبسط محمود الفعال يَداً قَد اِستهلت فَخلناها حياً هَتنا

وقال حيدر الحلي في أبي الفضل:

يا أبا الفضل كلَّما قلتَ شعرا فيه أودعتَ من بيانك سحرا

وإذا ما بعثتَ غائصَ فكرٍ في بحور القريض أبرزتَ درَّا

ينثني العقلُ حين تتلى كأَنَّ الـ لفظ كأسٌ والسمع يرتاح سكرا

فأرى الخضر أنت لكن لديه عين ماء الحيـاة تنبع خمرا

وقول خضر القزويني متغزلا:

فرضابها عين الحياة وإنني الخضر الذي قد ذاق طعم زلالها

وقوله:

وأنا الخضر ذو الحياة ولكن ما حياتي إلا بورد لماك

ومن أطرف الغزل قول سليمان الصولة :

توهمت أن الخال فارق خدها وحلّ بفيها يبتغي جرعة الخضر

ويقول شبلي الأطرش:

يا لِلّه بجاه الخضر أَبو العَباس تفرج هموماً بالضَمير اطماس

كما يتحدث شكيب أرسلان عن طبرية:

وَكَم نَبى في ذي البِلادِ قَفا موسى وَكَم مَرَّ هَهُنا الخَضرُ

يقلب صالح الكواز الحلي الموقف تجاه الخضر فممدوحه:

أخو علم لو أن الخضر أضحى لديه صاحباً لن يستطيعا

وفي قول عبدالباقي العمري:

لو رآه الذي على قرية مر لدرى أنه بذلـك أخبر

بل برفع الجدار أولى وأجدر لو مع الخضر كان حين أتى القر

يـة من قبلـه أقام الجدارا

وفي الموشحات نجد علي الدرويش يقول:

رأيت الغصن يتمايل فقالْ لي شوف بستاني

وهات عقلك وخُذْ بوسهْ وهات روحك وبوس تاني

هوى العصفور في العصفر يجنني وهو يصفر

ومن لامْني على المحبوب يرى المحبوب لا يظفر

صحيح الخضر ويّا الْياسْ على خدك ينادوا الناسْ

إذا العاشق سلا روحه وباسك من عليه شي باسْ

يجر قلوب أهل الوجدْ بمغناطيس خال الخدْ

فإن حدّ القلوب لحظه فما في الحسن مثله حدْ

ويتحدث عمر الأنسي عن حديقة:

لَم يَكُن موسى هُنالك إِذ جَرَّ فيها ذَيلَهُ الخضرُ

في غزليات قاسم الكستي يقول:

عني سلو ظبي الحمى كيف تاه وما جنى في الحب ذنباً فتاه

لخاطري في جفنه أسوةٌ من جهة الكسر الذي قد حواه

عذاره أورد عن ثغره حكايةَ الخضر وعين الحياه

فما تثنى قده مائساً إلا وقال الغصن واحسرتاه

ويقول محمد الهلالي:

لست أنسى إذ غدت تسفر عن غرة تشرق تحت الطرر

حبذا سين ثنايا صانها ميم ثغر فيه عين الخضر

وعند محمد صالح الجزائري:

فمن قد رآها قال من فرط حيرة هي الكاس أم خد الحبيب أم الخمر

تفردت في شربي لها فكأنني إذا لم يصب اسكندر كأسها الخضر

يذكرنا محمود سامي البارودي بمقولة المتنبي حينما يقول:

بَلَغْتُ مَدَى خَمْسِينَ وَازْدَدْتُ سَبْعَةً جَعَلْتُ بِهَا أَمْشِي عَلى قَدَمِ الْخِضْرِ

وفي ديوان لسان الدين بن الخطيب نجد أبياتا يخاطب فيها السلطان "أبا حَمّو الزياني" في شأن الجزيرة الخضراء التي تقع عند طنجة حيث مجمع البحرين على قول ذُكر في قصص الأنبياء[٤٧٩]:

"لقد زار الجزيرةَ منك بحرٌ يُمَد فليس نَعرفُ منه جَزْرا
أعدتَ لها بعهدكَ عهدَ موسى سَمِيّكَ، فهي تتلو منه ذكرا
أقمتَ جدارها وأفَدتَ كنزا ولو شيءتَ اتخذتَ عليه أجرا"[٤٨٠]

ويذكر مشيرا إلى التقاء الخضر مع موسى بالجزيرة

وقالوا الجزيرةُ قد صَوّحتْ فقلتُ غمام الندى تنتظرْ
إذا وَكَفَت كف موسى بها غماما يعودُ الجَناب الخَضِرْ"[٤٨١]

وقد تحدث البوصيري عن الجدار الذي أقامه الخضر فقال :

وأقيم منقضّ الجدار وتحته كنز الوصولِ إلى المقام السرمدِ[٤٨٢]

ويقول الشيخ محمد محمد أبوخليل على لسان أبيه:

"وكنت على حدّ الشريعةِ واقفاً ولو أنني بالخضرِ عُلّمتُ بالغيبِ"[٤٨٣]

ورد ذكر الخضر في المقامة الصعدية للحريري :

"وإن رُددتَ فما في الردّ منقصةٌ عليك قد رُدّ موسى قبلُ والخضرُ"[٤٨٤]

ويقول أحمد فؤاد نجم في قصيدته "زيارة لضريح عبدالناصر":

"السكة مفروشة
تيجان الفل
والنرجس
والقبة
صهوة فرس
عليها الخضر..بيبرجس"[٤٨٥]

---

[٤٧٩] ابن كثير : قصص الأنبياء ص ٤٥٣-٤٥٥ تحقيق سعيد اللحام ، ط. مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٩٣

[٤٨٠] ابن الخطيب ، لسان الدين بن الخطيب السلماني :ديوان ابن الخطيب ص٤٠٥ تحقيق د.محمد مفتاح ، ط. دار الثقافة ، الدار البيضاء ١٩٨٩

[٤٨١] ابن الخطيب ، لسان الدين بن الخطيب السلماني :ديوان ابن الخطيب ص٤٠٥

[٤٨٢] النويري : الإلمام ج٦ ص ١٨٩

[٤٨٣] محمد محمد أبوخليل: المربي ، سيرة ومناقب العارف الرباني شيخنا أبي خليل وسموّه الروحي ص٣١ ، القاهرة ١٩٧٦.

[٤٨٤] الحريري : مقامات الحريري ص ٢٨٩ تحقيق يوسف بقاعي ، ط.دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٩٠

[٤٨٥] أحمد فؤاد نجم :زيارة لضريح عبد الناصر ، مجلة الشعر ص ٥٤

ويقول السياب في إحدى رسائله إلى سهيل إدريس معلقاً على قصيدته "وله[أي القارئ] أن يقارن بين نقالة الإسعاف في أول القصيدة وبين نقالة الموتى في ختامها ، وبين الأسماك المصنوعة من الذهب والفضة وبين الخضر وسمكته الميتة التي ألقاها في مياه بحر الحياة فعادت حية."[٤٨٦]

وهذا يؤكد استحضار القصة في عقول الشعراء بحيث يظل التناص قائما والتوظيف والإسقاط مبررا.والشعراء يرون الخضر إما معلما أو يقرضون أشعارا تعليمية تشرح أبعاد القصة القرآنية أو تؤكد آداب المريد مع شيخه وألا يكون لحوحا معترضا أو يتخذونه في الغزل دليلا على فتنة المحبوب متكئين على مفردات القصة عين ، الحياة ، الظلام ، الخضرة ، الجمال ، الخلود ؛ بينما يوظفه آخرون للتعبير عن أحوالهم الروحية ومقاماتهم كما وجدنا عند ابن عربي والنابلسي ، أما شعراء الشيعة فيرون بقاءه حجة دامغة تؤكد بقاء الإمام الغائب، ولاشك أن المنتصرين لبقائه من الشعراء أكثر من مخالفيهم ، وهذا لأن بقاءه أكثر إبداعا من موته ، فالعجائبية في تنقله وترحاله وظهوره المفاجئ واختفاؤه المنتظر يوحي بالفجاءة في التعبير والحل السحري.

إن احتفاء الشعراء بالخضر وتوظيفه بأشعارهم يعبر عن المأزق الوجودي للإنسان تجاه الحياة والموت ، تجاه الفناء والخلود ، وما بقاء قصة الخضر وشربه من ماء الخلود إلا محاولة الإنسان نفسه للبحث عن هذا النبع الذي غدا حلما لا ينال ولا نكف عن البحث العبثي عنه ، إنه التوق إلى الخلود الذي لايجيء.

٥-٢ إبداع مملكة الخضر:

بنى الخيال إبداع مملكة الخضر وكاد أن يرسم جغرافيتها وأنظمتها في إبداع منظم ، وقد احتفظ الخيال للخضر بمركز الصدارة فهو الذي يعين الأولياء غالبا ، ويقيلهم في أحايين نادرة ، وقد يكون الخضر مقاما في شخوص متغيرين ، فقد روى ابن حجر العسقلاني عن عبد العزيز بن أبي فارس[٤٨٧] ... قال الجزري في تاريخه "ذكر لي أن له أسمعة كثيرة وله ديوان شعر نقلت منه نحو أربعين قصيدة

---

[٤٨٦] ماجد السمرائي : رسائل السياب ص ١٢٣ ط.المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٩٤.

[٤٨٧] "الحسني أصله من الينبع وانتقل سلفه إلى الإسكندرية وسكن الصعيد مدة وتعانى التصوف فتقدم فيه وروى عن المشائخ الذين لقيهم وأخذ عن أبي الحجاج الأقصري ومحيي الدين ابن العربي والشيخ فتح الواسطي وغيرهم ونقل عن عبد الغفار كرامات كثيرة جداً" ابن حجر العسقلاني.

وقرأت عليه منه شيئاً وأجاز لي قال ورأيت في ديوانه ما ملخصه أن الأقطاب سبعة والأبدال والأعين وهم النجباء كذلك والأديان أربعة والغوث يجمعهم وهو مقيم بمكة والخضر يجول ولا حكم له إلا على أربعة أشياء إغاثة ملهوف أوإرشاد ضال أو بسط سجادة شيخ أو تولية الغوث إذا مات والغوث يحكم على الأقطاب والأقطاب على الأبدال والأبدال على الأوتاد فإذا مات الغوث ولّى الخضر من يكون قطباً بمكة غوثاً وجعل بدل مكة قطباً وعين مكة بدلاً وبدل مكة رشيداً وهكذا أبداً فإن مات الخضر صلى الغوث في حجر إسمعيل تحت الميزاب فتسقط عليه ورقة باسمه فيصير خضراً ويصير قطب مكة غوثاً وهكذا قال والخضر في هذا الزمان هو حسن بن يوسف الزبيدي من أهل زبيد اليمن"[٤٨٨]

فالخضر متجدد ولاشك أن طريقة التعيين من أجمل ما ابتدعه الأدباء ، فسقوط الورقة تعيين للغوث حتى يغدو خضرا ، وربما كان هذا الرأي حلا لمشكلة بقائه شخصا واحدا طوال الأزمنة ؛ لكنه هنا أخضار متعاقبون أزمانا، متساوون درجة.

٥-٣ الرّحّالة والخضر:

انتشرت الأضرحة والمقامات في ربوع العالم ، ونظرا لكثرة الحكايا المرتبطة بالخضر فقد استوجب على الرحالة أن يكتبوا مشاهداتهم وأن يدونوا ما يستمعون إليه من روايات ، وأن يتداخل الإبداع مع الحقائق في تفسير ظواهر مستعصية على الفهم والتحليل ، وقد وجد هؤلاء في الخضر مرجعا لفهم مسميات أماكن في البحر والبر ارتبطت به ؛ والمتأمل في مسميات الأمكنة يجد عددا كبيرا منها لصيق بالخضر ؛ فاستوجب تدوين الرحالة ولم يتوقفوا حيال التدوين فقط بل زادوا من إبداعهم وخيالاتهم.

فقد أكثر ابن بطوطة من إيراد حكايات الأولياء في رحلته وهو جانب لما يلتفت إليه جيدا ؛ وعند حديثة عن هرمز ذكر ابن بطوطة أنه على بعد ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب إلى الخضر وإلياس عليهما السلام ، يذكر أنهما يصليان فيه ، وظهرت له بركات وبراهين"[٤٨٩]

---

[٤٨٨] ابن حجر العسقلاني المائة الثامنة

[٤٨٩] ابن بطوطة (أبوعبدالله محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم ت ٧٧٩هـ = ١٣٧٧م): رحلة ابن بطوطة ص ٢٧٤ تحقيق كرم البستاني ، بيروت د.ت

وأخذت المدينة التي زارها الخضر وموسى بعداً كبيرا فياقوت يقول عن تِلِمْسَان "يزعم بعضهم أنه البلد الذي أقام به الخِضر عليه السلام الجدار المذكور في القرآن سمعته ممن رأى هذه المدينة" ويحكي أنه بدمشق يوجد مشهد الخضر وزاويته.وأن بالسهلة من الكوفة" موضع مناخ الخضر" ويتكلم عن قرية " شميرف: قرية قبال أرمنت العطار بمصر في الغربيات بها مشهد الخضر يُزار"

كما يحكي القزويني أن تلمسان هي القرية التي ذكرت في قصة الخضر وموسى ، و"حدثني بعض المغاربة أنه رأى بتلمسان مسجداً يقال له مسجد الجدار يقصده الناس للزيارة"[٤٩٠] وذكر أيضاً أن بالكوفة مَناخ الخضر "وما أتاه مغموم إلا فرج الله عنه"[٤٩١] ويحكي المقدسي أنه"بقرب سردوس مسجد الخضر عليه السلام"[٤٩٢] ويذكر ياقوت الحموي أن مدينة "أتنَوهَةُ: من قرى مصر من ناحية المنوفية من الغربية وتُعرَف بمسجد الخضر أيضاً"[٤٩٣] وفي معرض حديثه عن "بُلاَطَةُ: بالضم، قرية من أعمال نابلُس من أرض فلسطين يزعم اليهود أن نمرود بن كنعان فيها رمى إبراهيم عليه السلام إلى النار وبها عين الخِضْر وبها دُفن يوسف الصديق عليه السلام"[٤٩٤]

ويحكي ابن المجاور في صفة بلاد اليمن عن مسجد "يقال إنّه مسكن الخضر عليه السلام و هو جبل عالي عاصي على الملوك باليمن".

ويحصي جعفرالبحراني في مقاله "مسجد الخضر (ع) تاريخ عريق وخصوصية غائرة في القدم" مساجدَ الخضر في بلدان الخليج العربي ويبدو أنها متناثرة في بلدان الخليج ؛ومنها مسجد الخضر (ع)، الواقع في جزيرة تاروت بين مثلث بلدة تاروت وسنابس ودارين محاذياً لبلدة الربيعية من الجنوب، في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، "وهو مسجد قيل في حقه الكثير من الأساطير والخرافات التي لا يقرها دين ولا يقبلها عقل في الغالب، إذ يقال بأن الخضر يطير مساء كل ثلاثاء ويستشهدون عليه بهالة من النور في السماء، التي لا أرى أنها ليست أكثر من شهاب عابر أو أي جرم سماوي آخر .وروى أحدهم بأنه كان ماراً

---

[٤٩٠] القزويني :آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٣٩

[٤٩١] القزويني :آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٠٦

[٤٩٢] المقدسي :أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص١١٢

[٤٩٣] الحموي، ياقوت:معجم البلدان ص٥٣

[٤٩٤] السابق

بالقرب من المسجد ليلاً فشاهد من خلال نوافذه أنواراً غريبة، حيث تكمن غرابتها كونها في منتصف الليل ولما حاول أن يدخل وجد أن باب المسجد مقفلاً وكان في ذلك الوقت خائفاً فغض الطرف منسحباً بعد أن سمع صوت هدير خفيض جداً.وليس مستغرباً أن نعرف أن هذه الخرافات وغيرها موجودة في الكويت حول مسجد الخضر الموجود في جزيرة فيلكه، حيث يعتقدون أن الخضر (ع) يقيم في كربلاء ولكنه يطير مساء كل ثلاثاء إلى مكة ويستريح في مساء ذلك اليوم في مسجد الخضر بفيلكه، وإذا ما أرادت امرأة أن تحمل بولد وهي عاقر، فعليها أن تقضي ليلة الثلاثاء بالصلاة والعبادة في المسجد حتى يستجاب لها وتلد.ويشاع في هذا الموضوع أن بعض الدول الإسلامية مثل تركيا والبحرين وغيرهما من دول العالم الإسلامي لديها مساجد باسم الخضر وتحظى بعضها بنفس الخصوصية وإن اختلفت بعض الأساطير والأطروحات في هذا الأمر"[٤٩٥]

والأساطير لا تنشأ من فراغ بل هي نتاج ثقافة شعبية سائدة عبر قرون بعيدة.

وفي حديث ياقوت عن "شميرف: قرية قبال أرمنت العطار بمصر في الغربيات بها مشهد الخضر يُزار"

فهذه المساجد الواقعة في معظم البلدان تؤكد وجود الخضر في المعتقدات الشعبية وأن الناس مايزالون في اعتقادهم بوجوده وعدم موته من جهة ومن جهة أخرى تؤكد أن محاربة الأساطير لا تأتي بالمنع والعقاب بل بالعقلانية والحوار.

٥-٤ الخضر في الرواية

لم أجد كبير أثر للخضر في النصوص الروائية المعاصرة ،وهذا يعود إلى عدم معرفة التراث الصوفي بشكل كبير لدى عدد من الروائيين ، ولتعالي بعض الروائيين على التراث الصوفي من جهة أخرى ، وربما كان التراث الصوفي

---

[٤٩٥] جعفرالبحراني :"مسجد الخضر (ع) تاريخ عريق وخصوصية غائرة في القدم" مقال بمجلة الواحة – بيروت ، ١٩٩٩ وينقل الكاتبأن مسجد الخضر بفيلكة قديم كما "يعتقد جيفري بيبي أن المعبد الذي شيد عليه المسجد يحظى بخصوصية وقدسية معينة استمرت لفترات طويلة جداً قبل اليهودية والمسيحية وحتى بعد أن أعتنق الناس الإسلام، حيث يقول (كان هناك معبد لانزاك على فيلكه، وكان هناك معبد لأرتميس قبل ألفين من السنين وكذلك مصنع لإنتاج التماثيل النذرية للآلهة والإلهات الإغريقية، وبدا كما لو أن فيلكه كانت لآلف من السنين جزيرة مقدسة، ولا تزال مكاناً يحج إليه"

والشعبي طريقا لتجدد النص الروائي العربي ، والخضر مادة طيعة للتوظيف والإسقاط التاريخي كما رأينا في قصيدة Ruckert التي مرت بنا ؛ فهو الذي يعاصر العصور ؛ ويرى التغيرات دونما دهشة المفاجأة ،وقد وظف الروائي الألماني Gustav Meyrink كوستاف مايرِنك الخضر في روايته Das gruene Gesicht الوجه الأخضر ؛ بينما نجد توظيف الخضر عند الروائيين العرب الذين استوعبوا التراث الصوفي فقط .

ومايلفت النظر في هذه الروايات أنها تتمسك بالخضر دفعا للفناء الذي يهدد أبطال الرواية فتبني تصورها للشخصيات والأحداث على الخلود لا على الموت الذي يهدد شخوصها. فالعودة إلى الماضي التراثي في النص الروائي جزء من النص الذي يضفي عليه التراث مسّاً من التقديس والمغايرة بحيث يكون في النص زمنان الآني والمرجعي الذي يأخذ المتلقي إلى سراديبه التراثية وعجائبه السحرية.

في تشخيص شخصية البطل في " سيرة الشيخ نورالدين" لأحمد شمس الدين الحجاجي يحاول إضفاء قوى خارقة على البطل نورالدين وعندما يفسر بصيري – وهو صديق البطل – هذه القُوى يُرجعها إلى الخضر " بصيري العبادي يحلف بأن الخضر عليه السلام قد مسّه بقوته العظمى حتى إن محمداً وبصيري العبادي وقد جاءا لينقذاه خافا أن يقتل نورالدين الخفراء فأخذا يمسكان به ليمنعاه عنهم ، لكن نورالدين لم يهدأ ضرب محمدا وبصيري ؛ قال محمد: ربنا يستر" [٤٩٦]والخضر هنا هو واهب القوى الخارقة للمختارين من الأولياء ولاشك أن إدخاله في النسيج الروائي السّيري يضفي على الشخصية هالة من القداسة والقوة ؛وإذا وضعنا في الاعتبار أن الخضر له حضور خاص في نفوس الناس لأمكننا تفسير مغزى حضوره في رواية تركز على صنع البطل الأسطوري المتميز عن الآخرين.

في رواية الطيب صالح : عُرس الزين يصف لنا شخصية الزين "يرى أهل البلد هذه الأعمال من الزين فيزداد عجبهم ، لعله نبي الله الخضر"[٤٩٧]

في خطط الغيطاني نلمح مسميات بعض الشخصيات التي استمدها من التراث الصوفي كالخضر والياس وتبدو الشخصيات في بداية الخطط منفصلة تماما عن التراث إلا أنه بين الحين والآخر يستقي بعض جُمله من المعاني القرآنية على نحو

---

[٤٩٦]أحمد شمس الدين الحجاجي:سيرة الشيخ نورالدين ص ١٠٠ ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،١٩٨٧.

[٤٩٧]الطيب صالح : عُرس الزين ص ٢٧ ط.دار العودة ، بيروت ١٩٨٨.

قوله:" لا يدري إنسان متى ظهر الخضر على وجه التحديد،لكن تفيد الحكايات المتناقلة انه هو الذي أنهى مرحلة الخلوات الفردية في كهوف التقية،وأقام التجمعات، والحياة الجماعية للمهاجرين الأوائل ، ومن المؤكد أنه عرف سليمان وصاحبَه ، وزامله ، وقال له في أول لقاء :(أنت لي مثل الولد..)قال له سليمان :إنه سيصحبه إلى شقوق الخلاوي لكن عليه ألا يستفسر عن بعض الأمور التي قد تبدو له غريبة، وإلا فإن العهد سينتهي بينهما ، صحبه عبر كافة الدروب ، أرشده إلى العلامات المميزة(...) سأل الخضر: لماذا(...)؟ نظر إليه سليمان عاتباً، قال :ألم أقل لك إن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أشرح لك، قال الخضر:لاتؤاخذني قد نسيت. انطلقا فمشيا(...) لماذا؟ نظر إليه سليمان متضايقاً ، قال:ألم أقل إن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أشرحه لك، قال الخضر :قد نسيت ، ثم انطلقا فمشيا (...) لماذا(...)هنا بدا وجه سليمان حزيناً، أسياناً، قال بهدوء :(...) هذا فراق بيني وبينك لأنك لم تستطع معي صبرا"[٤٩٨]ويلحظ ان الغيطاني قد قلب الأدوار فالخضر ليس معلّماً بل هو متعلم ، كذلك فإن ماهيات الخلاف بينهما تبدو شبيهةً إلى حدٍ ما بأوجه الإختلاف بين موسى والخضر.ينهي الغيطاني خططه بأن "الخضر لم يمت ، الصور التي نشرت لجثته كاذبة ،والأصبع المقطوعة التي عرضوها وقالوا إنها تحمل بصمته ليست أصبعه ، الخضر لم يمت ولن يموت ، إنه يظهر يومياً عند جسور الفجر وحدود الضحى ،ينتقل مع النسمات ويتحول إلى ضوء فوق ذرى الخلاوي، وفوق القمة الجرداء يلتقي بسليمان(...)إنه يطوف بقية النهار على أهالي الخطط في المنافي والمهاجر ليطمئن عليهم ، أما إلياس فيطوف بهم ليلا ،ثم يلتقيان مع سليمان قبل الفجر في موضع من الخطط لم تغرقه مياه البحر ، يقفون ليتأكدوا من سلامة المدخل الوحيد إلى المغارة العظمى ، ثم ليشهدوا لحظة إقلاع الطائر الأخضر ، عندئذ تطمئن قلوبهم (...) ياناس ، الخضر وإلياس وسليمان لن يموتوا ،لأنهم شربوا من نبع الحياة الخفي"[٤٩٩] وواضح هنا تأثر الغيطاني بحديث الخضر والتقائه بإلياس كما أنه أضفى على الأحداث جوًّا أسطورياً ودّ من خلاله أن ينقل الحدث من تقريريّته إلى خيال الأسطورة الواسع.

---

[٤٩٨]جمال الغيطاني:خطط الغيطاني ص ٣٧٥-٣٧٦ ط.مكتبة مدبولي،الطبعة الثانية ،القاهرة ،١٩٩١

[٤٩٩]السابق ص ٤٣٧-٤٣٨

ويستخدم الشاعر نظامي (١١٤١-١٢٠٢) في قصصه أسطورة الخضر في قصة "من مغامرات ماهان الجميل".فقد دُعي إلى حفل من صديق له بقصر يطل على النيل وكان محط أنظار الناس في الحفل لجماله وشخصيته إلا أنه ود لو يخلو بنفسه بعيدا عن الناس وفجأة يلمح صديقا قديماً كان يعمل بالتجارة فسارا معاً بعيداً عن الحفل يتسامران وألفى نفسه رويداً رويداً يبتعد عن الحفل والناس بعد أن أغواه بصفقة مربحة، فسارا معا حتى خرجت أشعة الشمس في الأفق فاختفى المصاحب ونام ماهان من التعب ، وعندما صحا وجد نفسه في مملكة الجن فلم يكن هذا الصديق سوى الجني هول الصحراء في صورة صديقه . والذي قبض أرواح المئات قبله ،وتبدأ المغامرات والخوف في أسلوب خيالي بديع حيث يجند نظامي كل طاقاته الإبداعية نحو خلق عالم الجن حيث الجنيات الساحرات بجمالهن المغري من بعيد يغوينك حتى تقترب منهن حتى إذا ما وقعت فريسة ألفيت قبحهن وبشاعتهن ووحشيتهن ، وبعد أن يقع ماهان في يد الجن الذين أغووه ويقع فريسة للجمال بعيدا عن أهله في أرض لا يعرف أين تقع أو كيف يعود من :"حديقة هي واحة خضراء محاطة من كل النواحي بصحراء يسكنها الجن"[٥٠٠]. يأتي الخضر في صورة المنقذ الذي يجهله ماهان المصري الذي رآه مطابقاً . إلى حد كبير- صورته ويدرك أن الخضر كان هو ذاته وعلى صورته وعندما سأله عن شخصيته ابتسم وقال :" أنا اسمي خزرChizr وأنا مبعوث من نعبده معًا ألا تعرفني إنني أنت ، خيرُك ونيّتك الطيبة ، جئتُ كي أرافقك إلى أهلك ، أعطني يدك حيثما تقف وأغمض عينيك برهة ثم افتحهما ."[٥٠١]ويفعل ماهان ما أمره به ليكتشف أنه في الحديقة على النيل.إننا هنا أمام توظيف لشخصية الخضر كرمز للنية الحسنة والعمل الطيب وهو من جانب آخر سَيْر في رَكْب التوظيف القديم للخضر المنقذ من الهلاك وهادي الناس في الصحراء وفي أوقات الشدة والقادر على تحقيق الأمنيات ؛ لكن نظامي قد استحدث التوظيف الإبداعي لشخصية الخضر الذي يوجَد في كل إنسان فالخضر ليس شخصية خارجية منعزلة وإنما هو الخير في كل نفس بشرية ، إذن في كل منّا يوجد الخضر رمز الجمال والنية الطيبة والعمل الحسن.

---

[500]Schimmel,Annemarie,Rumi,S.125

[501] Ibid

وعندما يوازن نظامي مابين الخضر والإسكندر الأكبر يكشف أن "قصور إسكندر عن إدراك ماء الخلود راجع إلى لهفته المتعمدة وتخطيطه العقلاني للبحث عنها؛ بينما في حالة خِزر[الخضر]لم يخطط للوصول إلى ماء الحياة ولم يكن الماء منشوداً بينما كان الإسكندر يتبع خطّته، أي يسير وفق إنجاز شخصيّ، فشل الإسكندر في البحث عن الكأس المقدّس ؛ وعلى العكس، وجد خِزر ماء الحياة بدون حتّى الشّكّ فيه فشرب وخلد"[٥٠٢] فالفشل راجع لاعتماد التخطيط في الشرب من نبع لايُعطى بالعقل بل بالوهب.

٥-٥ الخضر في القصة القصيرة :

دارت حول الخضر قصص كثيرة تصلح أن تكون لبنة من لبنات بناء القص العربي والإسلامي فالقصة تقوم على حدث وشخصيات وعقدة ودائما يقوم الخضر بالبطولة المطلقة، ويحكي ابن إياس في بدائع الزهور " قال الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه بلغنى أن رجلا يقال له حامد بن أبي سالم وهو من ولد العيص بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام خرج هاربا من بعض الملوك الجبابرة فدخل إلى مصر فلما رأي نيلها تعجب منه وحلف على نفسه أن لا يفارق ساحل النيل حتى يبلغ منتهاه ومن أين يخرج أو يموت قبل ذلك فسارعلى ساحل النيل نحوا من ثلاثين سنة حتى وصل إلى جبل القمر فإذا هو برجل قائم يصلى تحت شجرة تفاح فلما رآه سلم عليه وأستأنس به فقال ذلك الرجل الذى تحت الشجرة من أنت أيها الرجل فقال له حامد أنا من ولد العيص بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليه السلام ثم قال له حامد من أنت فقال أنا أبو العباس الخضر فما مجيئك إلى هنا قال فى طلب معرفة النيل فقال له الخضر عليه السلام ستمر عليك حية ترى آخرها ولا ترى أولها فلا يهولنك أمرها وهى دابة معادية للشمس إذا طلعت..."وإذا ما تأملنا العجائبية في الحكي سنجد أن الخيال المبدع أضفى جبل القمر والحية والتصوير فنقل المتلقي إلى تصور مشهد غرائبي بحيث وجد المتلقي نفسه في ضيافة الخضر الذي يفسر الأحداث في عجائبية مبدعة.

في قصة الجد حسن ليحيى الطاهر عبد الله يضع الخضر في موازاة الرجل المغربي الذي يعرف موضع الكنوز المخبأة ؛ فالجد حسن ينتظر كل يوم مجئ ضيف

---

[502] Ibid

سيأتي ذات يوم "من يكون الضيف ؟ ذلك الضارب في الأرض من يكون ؟ رسول الله الذي يبدو في البعيد نقطة سوداء من يكون؟ أهو الخضر عليه السلام معلم موسى ؟ أم هو المغربي؟"[٥٠٣] ولعل الربط بينهما ينبع من القصة القرآنية بين الخضر وموسى عندما عرف الخضر مكان كنز تحت جدار {يُرِيدُ أَن يَنْقَضَّ فَأَقَامَه}[٥٠٤] فمعرفة الكنز هنا قاسم مشترك بين الخضر والمغربي ، والجد حسن مشغول دائماً بالكنز ، ويحفظ عن ظهر قلب ما سيقوله للخضر عند مجيئه المنتظر :"تفضل يا سيدنا الخضر ، هذا بيتك وهذا خير الله ، أنا عبد الله الجد حسن يامولاي الخضر تفضل واجلس."[٥٠٥] وهذا الحضور القوي لشخصية الخضر ينقله يحيى الطاهر من البيئة التي تعتقد أن مجئ الخضر لها أعطية ومنّة لأنه سيحقق لها ماتتمناه ، وينقل الكاتب تصوير العامة للخضر والمغربي المجهول "كلاهما يأتي في ثوب خرق ، متنكراً في شخص متسول ، بيده عصا وعلى كتفه خرج ، ولايفرق الرائي بينهما لو اجتمعا ، الخضر جواب آفاق ولاتراه سوى عين المؤمن ؛ حين يأتيك في شكل متسول وتصده تبيد نعمة الله التي أنعمها عليك ، وإن أكرمته أكرمك الله وذلك الخضر معلم موسى على خبايا الأرض بنت الله البكر فتعيش في النعيم أبداً ، وكذلك المغربي الماكر يعرف صورة الخضر فيتشبه به ، فيغافلك ويجنح للدار ، وهو الوحيد الذي يعرف مكان الكنز (...) عيْنا الخضر تلمعان حقاً كجوهرتين فهو رسول ؛ أما عينا المغربي فهما ماكرتان حالما تشوفان المال ، إن كان الخضر يا جد حسن قل له : معذرة يامولاي ؛ وقبّل كفيه وامطرهما بدموع الندم ، وإن كان المغربي فساومه."[٥٠٦]

وهذه الصورة التي رسمها يحيى الطاهر للخضر مستقاة من التراث والمعتقدات الشعبية التي ترى في كل غريبٍ متسوّلٍ الخضر ، ولذلك يستغل المتسولون هذا التخوف لدى العامة أيما استغلال.والطاعة للخضر طاعة تهدف إلى الإستفادة من دعواته المُستجابة واتقاءً لشر دعواته المستجابة أيضا ، فهي مزيج من الخوف والطمع ، ونلمح هنا أن الكاتب لايجدد في صورة الخضر أوفي وظائفه وإنما إلى

---

[٥٠٣] يحيى الطاهر عبد الله :الكتابات الكاملة ص ١٠٣ الطبعة الثانية ، ط.دار المستقبل ١٩٩٤.

[٥٠٤] الكهف ٧٧/١٨

[٥٠٥] يحيى الطاهر عبد الله :الكتابات الكاملة ص ١٠٤

[٥٠٦] يحيى الطاهر عبد الله :الكتابات الكاملة ص ١٠٤-١٠٥

حد كبير يتفق مع التراث الوصفي للخضر ، بيد أنه جدّد في عقد موازنة بينه والمغربي فالخضر يعرف الكنز الذي فسره سليمان الجمل أنه "كان لوحاً مكتوبا فيه كلمات."[٥٠٧] وكان ابن عباس يقول "ماكان الكنز إلا علماً."[٥٠٨]

يوظف أبوالمعاطي أبوالنجا الخضر في قصته"عندما بكى سيدنا الخضر"توظيفاً سياسياً فالخضر يحذر الناس من الخطر القادم المتمثل في الغريب الذي يأتي في سيارة فارهة عارضاً على الناس البسطاء توصيلهم دون مقابل وبعد أن يثقوا فيه يمنحهم الفواكه التي يجهلون كنهها لكن يستطيبون مذاقها ، فيقنعهم بشرائها منه ولأنهم فقراء فهم يستدينون منه ثم يقنعهم بترك زراعة القمح ويشجعهم على زراعة الفواكه واعداً إياهم بشرائها منهم ، ثم تستشري هذه اللعبة في كل القرى المجاورة فلا يجدون قمحاً يقتاتونه ويشتري منهم الفواكه بأبخس الأسعار فيضطرون إلى بيع أراضيهم له .فالخضر هنا ليس المعلم التقليدي بل هو الناقد السياسي لسياسة الانفتاح التي أوصلت إلى هذه الهوة الواسعة بين الطبقتين ، إلا أن وصف أبوالمعاطي أبو النجا للخضر يأتي في إطار الوصف الشعبي لهذه الشخصية فهو"يعود من قلب الضباب ، يرتدي ثياب العاملين في مؤسسةالبناء"[٥٠٩] ويرفض عرض أحد الأغنياء ؛ وفي نهاية القصة يبكي على ما آل إليه الحال حيث الناس يتصارعون على اكتساب حب الغريب الذي يدّعي أنه كليْلة القدر في تحقيق الأمنيات.تأتي القصة على لسان الراوي/الأنا الذي سرعان ما يتحد مع الخضر " تلفت إلى جواري ، وكأنني أطلب النجدة ، ولكنني لم أجده بجواري "[٥١٠]لينهي الكاتب قصته بمقولته"لم أستبن ملامحه فقد كانت عيناه وربما عيناي غارقة في الدموع"[٥١١]هذا الدمج بين الراوي/الحاكي والخضر/المُحكَى عنه يجعل المتلقي ينتبه إلى ما قصده الكاتب من توصيل صيحته عبر شخصية لها التقديس والحضور الشعبي ما يجعل لندائه قدسيةً وجلالاً.

---

[٥٠٧] سليمان الجمل :الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية ج١٣ ص٣٨٥ ط.دار الكتب العربية الكبرى ، القاهرة ؟

[٥٠٨] ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ١١٦٠-١٢٣٤): الكامل في التاريخ ج ١ ص١٦٣ ط. دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩.

[٥٠٩] أبوالمعاطي أبوالنجا : عندما بكى سيدنا الخضر ، الأعمال الكاملة في القصة القصيرة ، المجلد الثاني ص ٢٢٤ ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٣.

[٥١٠] السابق ص ٢٣٨

[٥١١] السابق ص ٢٣٩

فى قصة محمد شاكر الملط " سيدنا الخضر " [٥١٢] نجد إعادة صياغة للخضر القديم ولكنه يفتقر إلى الأدوات التى تجعل له خصوصية فى الأداء والحكي ؛ فالخضر فى مجلس ذكر وينادى ياحى ياقيوم ثم يقع على الأرض ويقوم مبتعدا عنهم ويمشى عابرا البحر اليوسفى سيرا على الأقدام دون أن تبتل ملابسه ، ويستجمع كل أولياء الله ويمضى فى طريقه آمرا بالعدل موقفا ذنوبا هَمّ أصحابها بارتكابها لولا تدخله ، فيتهم شبابهم باغتصاب سيدة جميلة ، وينهر رجالهم على إحراق دار خصم ، " وقابله حائط مائل يكاد أن ينهار فى بلدة على الطريق فعدله بكتفه .. إن تحته كنز لأطفال صغار أيتام لم يكبروا بعد "[٥١٣] ونلحظ هنا مدى التناص بين هذه الرؤية والنص القرآنى (جداراً يريد أن ينقض فأقامه)[٥١٤] ثم يمضى لكى يُشهد له جناحان كبيران طار بهما .. وظل يحلق فى أجواء السماء "[٥١٥] وكما ذكرت فالخيال الإبداعى هنا لايتجاوز النصوص المتواترة حول ماهية الخضر الذى يأتى دون دعوة ويمضى دون تبرير ويقيم العدل وتُطوى له الأرض ويحلق فى أجواء السماء أى أن الكاتب يدور فى إطار النص المتوارث دون أن يتجاوزه .

يوظف جمال الغيطاني الخضر والمهدي دامجاً بينهما في قصته "ناطق الزمان" الذي "يجيء إلى الدنيا بعد أن يبلغ أمرها حدا لاحدّ بعده ،إنه يعيش فيها ، لكنه خفي لا يبين"[٥١٦]وفي عصرنة للأحداث يحاول الغيطاني أن يستخدم الإسقاط مبررًا هذا القناع "قال ناطق الزمان :إن الأعداء لاينتهون ، ... اضطر إلى الاستتار في بلدة صغيرة رقيقة كقصيدة شعر نائية في الشام" ويتذكر سامي بطل القصة الموازي لناطق الزمان أن"هنا في مصر منذ أربعمائة وسبعين عاما قبض عليه العسس ، ظنوه من العربان المفسدين ، رموه في سجن الجبل ، قضى فيه مائة عام ، وازدادت تسعا ، تعاقب عليه أجيال من الحراس ، استسلم للقضاء ، أليست عذاباته بعض مما يجري في العالم؟"[٥١٧]يستحضر الغيطاني في تناص واضح

---

[٥١٢]محمد شاكر الملط : " سيدنا الخضر " قصة قصيرة بمجلة الثقافية الجديدة ص ٦٨ .

[٥١٣]السابق

[٥١٤]قرآن كريم

[٥١٥]الملط : سيدنا الخضر ص ٦٨

[٥١٦] الغيطاني ، جمال: منتصف ليلة الغربة ص ٦٧ ط.الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٧

[٥١٧] السابق ص ٧٤

نصوص الخضر التراثية ونصوص الإمام الغائب ، فيتكئ على هذا الموروث الحاضر الغائب ، ويبني عليه رؤاه ، ولا يخفى علينا دقة الغيطاني في عناوينه التي تحيل المتلقي إلى فضاء أوسع ، ثم يلجأ إلى عناوين داخلية "البحث وراء التعابير" ليستحضر قصة لقاء موسى والخضر؛ "المراكبية لا يأخذون معهم أحدا ، لكن ريس هذا المركب عندما رآهما أفسح لهما مكانا رحبا ؛ قال لناطق الزمان :إنه انتظره طويلا عند المنحنيات الحادة في المجرى ، في جري الموج...أينما ذهب يدركه البعض ، يجهله آخرون"[٥١٨]

واستحضار سفينة الخضر وموسى واضح ، ويصل الغيطاني في لمحة رامزة إلى تكرار مآل سامي "يرى عنقه في قبضة جندي يسوقه إلى غرفة الحجز في قسم ، يلقيه بين اللصوص في غرفة الحجز ، يسألونه لماذا جاء ؟أي تهمة ؟ بماذا يجيب؟"[٥١٩]

يبدو ناطق الزمان في قصة الغيطاني اختزال المعرفة الخضرية والمهدوية في إطار عصري ، وفق آليات عصرية وقضايا تتعلق بالحرية والكرامة والحب والفضائل النبيلة ، فهو المختفي من الجور والقادم لتحقيقه ، وهنا تبدو المعادلة التي يود الغيطاني أن ينفذ من خلالها وكأنه قناع يختبئ الكاتب والمتلقي من ورائه ليظهر ما يود أن يبطنه، والكاتب يعرف أن أقنعته أقنعة تاريخية موروثة لكنها موظفة في تلميح يغني عن التصريح.

٥-٦ الخضر في الأدب الشعبي:

يظهر خواجا خيزر ثانية في حكاية شعبيّة هنديّة لنوع قديم جدًّا ، قصّة محبوب الأمير[٥٢٠] التي تحكي عن أحد ملوك إيران الذي أنجب ابنه الوحيد من إحدى جواريه ، وفي غياب أيّ طفل آخر، سيصبح وليّ العهد . ولكن بعد ذلك تحمل الملكة الحقيقيّة. وتنجب ابنا ؛وقد خشي ابن الجارية أن يلي أخوه المُلك فيغزو المملكة، ويقتل أباه و يغتصب العرش . وفي هذه الأثناء تهرب الملكة الحقيقيّة، و يعْتَني أحد المزارعين بالابن المولود، الّذي يُسَمَّى محبوب، و حبيب العالم . فيما

---

[٥١٨] السابق ص٧٧

[٥١٩] الغيطاني ، جمال: منتصف ليلة الغربة ص٩٤

[520] **Shaikh Chilli, *Folk Tales of Hindustan,* Allahabad, 1913, pp. 130 ff**

بعد يذهب محبوب وحيدًا للمنازلة، و يصبح الفائز في المسابقات الرّياضيّة، خصوصًا في رمي السّهام . ويعترف النّاس بتشابهه مع الملك الرّاحل .

عند عودته إلى البيت تخبره أمّه بنسبه الحقيقي، ويرحلان بعيدا لتجنّب شكّ الملك المغتصِب . يصل الأمّ و الابن إلىأرض صحراوية، [ويصابون بالجوع والعطش] وهناك في مسجد بجانب جبل يقابلون فقيراً يعطيهم الخبز و الماء الذي لا ينفد، ويمنحهم قطعتين من العصي، إحداهما تُستخدم كمشعل، والأخرى مَن يمتلكها ويمسك بها فإنها تمكّنه من عبور أعمق بحر لأنه سيصبح ضحلاً،يستطيع المشي عليه ،ويستخدمانها في خوض بحر عميق ، وفي أثناء العبور يكتشفون تيار الياقوت الأحمر ، يعبرون البحر و يصلون إلى الهند، حيث يبيعون الياقوت الأحمر بسعر عظيم . يقع الياقوت الأحمر في أيدي ملك ذلك البلد .ويكتشف مصدره و يبحث عن البطل الذي كان قد بنى قصرًا كبيرًا في أثناء ذلك على الشّاطئ . يطلب من محبوب الحصول على مزيد من نّوع الياقوت الأحمر نفسه ؛ يرحل محبوب وحيدًا، ويشعل المشعل (هذا يظهر أنّه على وشك أن يدخل عالمًا مظلماً)، و بالعصا يقطع البحر حتّى يصل إلى تيّار الياقوت الأحمر . يتقصّاه حتّى يجد مصدره في دوّامة . يقفز فيها و يسقط المدخنة المغمورة السّوداء حتّى يلمس الأرض الصّلبة و يجد المياه تنساب للخارج من مدخل حديدي يمر من خلال أنبوب.

يجد نفسه في حديقة رائعة، بها قصر . في هذا القصر يجد حجرة بها رأس مقطوع لتوه، تتساقط منه قطرات الدّم في حوض، وتتحول إلى ياقوت أحمر يمر بالتّيّار في الماسورة و من ثم إلى الدّوّامة و منها إلى البحر . ثم رأى أشياء ترقص حول الشموعّ بشكل سريع جدًّا لدرجة أن محبوب لم ير سوى دائرة ضوء . وسمعهم ينتحبون ولايدرون إلى متى؟ وأخذوا يتساءلون إلى متى ؟ . . . متى سوف يأتي اليوم الذي تشرق فيه شمس الأمل على ظلام يأسنا ؟ اظهر، أيها الملك ، آه، اظهر، إلى متى ستبقى في هذه الغيبوبة الشّبيهة بالموت ؟ ثمّ من أرضيّة القصر هناك يظهر الفقير الذي ذكرناه سابقا وهو يرتدي الآن ملابس الضّوء . يخضعون له ويسألونه :يا خواجا خيزر، أتجيء السّاعة ؟لم يكن الفقير بالطبع سوى خواجا خيزر الخالد، الذي يبيّن لمحبوب

أن الجثّة التي أمامه هي جثة أبيه الذي قد قُتِلَ من قِبَل كاساب المغتصب، وأن أجداد محبوب جميعًا من المجوس دُفِنوا في القصر تحت الماء، لكنّ والد محبوب قد بقي غير مدفون، لأنه لم تُؤدّ عليه صلاة الجنازة، وينبغي على محبوب الابن أن يقيم عليه الصلاة ، "ينبغي عليك الآن أن تفعل هذا يامحبوب أن تقيم صلاة لله نيابة عن روح أبيك" .

وفورًا يضم الخضر الرّأس إلى الجسد، فتعود الروح إلى الملك الميّت وهنا يختفي خيزر، ويعود محبوب إلى الهند مع أبيه، الّذي اجتمع مع الملكة الأرملة (زوجته). عندما يحضر ملك الهند لأخذ الياقوت الأحمر، يشكُّ محبوب إصبعَه، فتتساقط قطرات الدّم من إصبعه في فنجان ماء فتصبح الجواهر المطلوبة، لأنّ محبوبا الآن يعرف أن كلّ قطرة من الدّم الذي ينساب في عروق ملوك إيران أكثر غلاء من الياقوت الأحمر . ويتزوّج محبوب من أميرة الهند ،ويعود إلى إيران ليطيح بكاساب المغتصب،الذي قُطعت رأسه وأُخِذَ و عُلِّقَ في القصر تحت الأرض، لكنّ كلّ قطرة دم تصبح ضفدعًا "

وتعلق Ananda K. Coomaraswamy في مقالها Khwaja Khadir and the Fountain of Life in the Tradition of Persian and Mughal Art على الحكابة الشعبية السابقة بقولها:

"إن الطّبيعة الحقيقيّة لخواجا خيزر تظهر بوضوح في هذه الحكاية الشعبية التي أشارَتْ إلى الدورين الملخّصين لأدوار الخضر، وأيضًا في الرّمزيّة . خيزر في البيت في كلا العالمين ؛الظّلام و النور، لكنّ قبل كلّ شيء هو صاحب النّهر المنساب للخلود في عالم الظلام : هو مخضر النّبات و صاحب ماء الخلود ، الذي يشبه Soma and Gandharva سوما وجاندارفا في أساطير Vedic و في نقاط كثيرة يشبه Varuria فاريوريا نفسه، ومن الواضح أن الخضر يستقي أوصافه وعلاقته بالله الأعلى من الثقافة الإسلاميّة و من وجهة النّظر الهندوسيّة اللّاحقة . سنجد هذه النّتائج العامّة المؤكّدة بوفرة في مصادر الأساطير الإسلاميّة للخضر"[٥٢١]

[521] Ananda K. Coomaraswamy, "What is Civilisation" and Other Essays, (Cambridge: Golgosova Press, 1989) pp. 157-167

إن الحكاية الشعبية هنا تبدو في ثنائية متعددة فتدور أرضها بالهند وإيران ، ومحبوب ممثل الخير في مقابل كاساب ممثل الشر ، والعالم ينقسم إلى عالمين النور والظلام ، والكون إلى بحر وبر وهناك عصا للنور وأخرى لعبور البحار ، وهناك ماء الخلود في مقابل الفناء، وقطرة من دم محبوب تغدو ياقوتا نادرا بينما قطرة من دم كاساب تغدو ضفدعا، هذه الثنائية جعلت الخضر يقوم بدورين :أولهما :الإنقاذ من الجوع والعطش والغرق والفقر ؛ وثانيهما إعادة الرأس للجسد ومن ثم يعود حيا مرة أخرى.

كعادة الحكايا الشعبية لا تقف كثيراً أمام تفاصيل الحكي بل تترك للمتلقي تخيّل هذي الزوايا المنسية في نسيج النص السردي ومن ثم فإن المتلقي يشارك المبدع /الشعب في أخذ حصته من الإبداع والتخيل والمشاركة.

لا تبتعد هذي الحكاية كثيرا عن حكايا الخضر في التراث الشعبي العربي لكن أثر الهندوسية والتقائها في تداخل واضح مع صفات الخضر الذي يرتدي الضوء ملبسا ويعيد الحياة للمقتول غدرا ، مع الطبقية الواضحة في تصنيف شخصيات الحكاية ووظائفهم ، يبدو الخضر بوظائفه في التراث الإسلامي وعلاقته بالبحر وهنا بأعماق أعماق البحار وينتصرلعبادة الله وللخير المطلق ، وتنتهي حكايا الخضر باختفائه أيضا.

إن هذي القصة التي انتقيتها من قصص مغولية وهندية وإيرانية وتركية حول الخضر توضح عبوره الأرجاء ليأخذ حيزا في عقول الناس وطقوسهم بل يؤالف بين الحضارات المتصارعة والثقافات المتشعبة لتلتقي حوله مما يجعل موضوعه ثريا في الأدب المقارن.

في العقليات العربية يختلط التراث بالمعاصر ، وقل أن نجد ظاهرة حديثة دون أن نردها إلى جذورها التراثية ، وفي بيئات تمزج بين الديني والعرف ، وبين التقاليد والحداثة نجد الخضر متلائما مع معطيات العصر ، فيخذونه متنفسا لهمومهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فهو واسطة الروح وعِقد النفس مما جعله يبقى في المخيلة متجاوزا حدود الدول ، وفواصل الأزمنة ، وجغرافيات البيئات ، ومتغيرات الثقافة ، وفي تداخل كهذا يبقى الأمر ملغزاً إذ انعكس هذا على الأدب الشعبي فأضحى الموروث معاصرا ، ففي سوريا نجد انتشار مقامات الخضر العامرة بالزائرين من ذوي الحاجات ، ففي مقال خالد عواد الأحمد "الخضر سلطان

الماء وقاتل التنين" يرى أن "الحضور الرمزي لشخصية الخضر انعكس في الذاكرة الشعبية السورية في صور وأشكال متعددة، منها الطقوس الاحتفالية الخاصة أو المعتقدات أو التعابير أو الألفاظ المنطوقة، ففي مدينة درعا إلى الجنوب من دمشق يعتقد الناس أن الخضر مدفون إلى الشمال من مدينتهم ب "١٢ كيلومتراً" تقريبا، لذلك يحتلفون كل عام بما يسمونه "عيد الخضر" ويقومون بذبح الخراف عند مقامه، كما جرت العادة بأن تضع الفتيات خرقا حمراء أو خضراء على القبر لتأتي فتيات أخريات في اليوم التالي فينزعن الخرق الموجودة، ويضعن خرقا جديدة ثم تنفرد كل واحدة بمزقة من الخرق التي أصبحت مباركة حسب اعتقادهن لتعلقها بمنديلها الذي ترتديه وتتناقل الفتيات عند زيارتهن أهزوجة تقول:

ياخضر جيتك زايره

وانا بأموري حايره

كل البنات تجوزن

وانا ظليت بايره !"[٥٢٢]

أي أن المعتقد الشعبي وظف الخضر مُزَوجاً للشباب وهذا ما سنراه في ألف ليلة وليلة[٥٢٣] حيث يقوم بالدور ذاته في لمّ شمل عبدالله بن فاضل ومحبوبته التي تنتظره أعواما.

وقد لحظ حسني حداد أن سكان جبال الشمال السوري يكنون للخضر إجلالا أكثر من أي ولي آخر ، وبحسب هذه الروايات فإن اسمه بالنسبة لهم لا يضاهيه ؛ إذ به يتوسلون قبل ابتداء أي عمل تقريبا ، واليمين [القسَم] باسمه هو أكثر إلزاما بالوفاء من أي قسَم آخر، ومن المحتمل أنهم يؤمنون بأن الخضر اسم إلهي وان الأنبياء طرا ماهم إلا فيوض من هذا الاسم"[٥٢٤]فهذا من المسكوت عنه في الثقافة العربية ومن الأجدى أن يُحلل ويُنقد لا أن يُكتم ويُحمد.

و"في مدينة "دير الزور" يحتفل الأهالي هناك بليلة النصف من شعبان التي يسمونها "ليلة المحيا" على ضفاف نهر الفرات من خلال تطويف الشموع

---

[٥٢٢] الأحمد ، خالد عواد الأحمد :"الخضر سلطان الماء وقاتل التنين" مقال بصحيفة الخليج ، الإمارات العربية المتحدة ، ٢٠٠٣/١/٢

[٥٢٣] مجهول : ألف ليلة وليلة ، المجلد السادس ص ١٩٣ وما بعدها ،ط. المكتبة الشرقية ، بيروت ١٩٩٤

[٥٢٤] حداد، د.حسني : أساطير الخصب القديمة والمعتقدات الشعبية في سورية ص٤١-٤٢ ط.الكندي ، حمص ١٩٨٩

والاحتفال بإرسالها طافية على شط الفرات مع أمنية أو وعد أو أمانة، وهي عادة تراثية قديمة مأخوذة في الأصل من العراق، ارتبطت بالخضر أو القديس جرجس كما يعرفه المسيحيون الذي يلقبونه ب "سلطان الماء" لأنه يعيش في النهر ولا يخرج إلى البر ولذلك يقدمون له الشموع ليستضيء بها وليشفع لهم مقابل ذلك، ويعتقد بعض الناس أن هذا الموروث الشعبي هو تكريم للخضر أبوالعباس الذي يحظى بحضور رمزي خاص في منطقة الجزيرة السورية"[٥٢٥] وهنا يبدو الخلط واضحا بين الخضر والقديس جورج.

ولم يقتصر الاحتفال بالخضر بمدينة دير الزور بل "في "حمص" هناك ما يسمى أسطورة "الخضر أبو العيون" وهي أسطورة موغلة في القدم ترتبط بمزار له بناء حجري صغير في حي الفاخورة بالقرب من حي بستان الديوان، وكان يسمى الشيخ خضر ثم حرف إلى الخضر وعرف بالجواني تميزاً له عن مقام الخضر الخارجي، أما تسمية أبو العيون فقد جاءت من الاعتقاد الشعبي السائد بقدرة المزار على شفاء أمراض العيون.

أما طقوس الزيارة والاستشفاء فكانت تتم بإحضار زجاجة صغيرة من الزيت وكسرها على حجر قد ثقب من وسطه على شكل دائرة وهو يشكل قاعدة نافذة على يمين المحراب وفي الوقت نفسه هو غطاء لجرن حجري وضع تحت النافذة فيسيل الزيت نحو الجرن. عندها يقوم المريض بمسح عيونه بهذا الزيت، ويدعي البعض ان عيونا كثيرة كانت منقوشة عليه، أما الآن فتبدو عليه آثار باهتة لما يشبه العيون ويحتفل بالخضر في مدينة حماة في "خميس الخضر" وهو عيد قديم يحتفل به المسيحيون والمسلمون على حد سواء، حيث يجمع الأطفال باقات الزهور ويضعونها في أوعية فيها ماء، ويطوف الأطفال الذين ليس لديهم زهور ليلاً على البيوت ليجمعوا زهورهم وهم يرددون الأناشيد الخاصة بهذا اليوم، وفي الصباح يستيقظ الأولاد ويغسلون وجوههم بماء الزهور، ثم تستعد الأسر للقيام بنزهات نحو البساتين"[٥٢٦]

ويبدو أن بين الخضر وحمص علاقة قديمة فقد حكى ابن خلكان أنه بعد وفاة أسد الدين شيركوه، تولى الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم.ولم "يزل حتى توفي

---

[٥٢٥] الأحمد ، خالد عواد الأحمد :"الخضر سلطان الماء وقاتل التنين" مقال بصحيفة الخليج ، الإمارات العربية المتحدة ، ٢٠٠٣/١/٢

[٥٢٦] الأحمد ، خالد عواد الأحمد :"الخضر سلطان الماء وقاتل التنين" مقال بصحيفة الخليج ، الإمارات العربية المتحدة ، ٢٠٠٣/١/٢

يوم الجمعة عاشر صفر سنة أربع وأربعين وستمائة بالنيرب من غوطة دمشق، ونقل إلى حمص، ودفن ظاهر البلد في مسجد الخضر عليه السلام من جهتها القبلية"[٥٢٧] وهذا يؤكد قِدَم ظاهرة المساجد التي تُسمى باسم الخضر ، وقد حاولت أن أحصيها عددا فلم أستطع ، وقد سكنتُ في حيٍّ بحمص يسمى "حيّ الخضر"

وهذا يجعل الخضر حاضرا في الذهنية العربية وغير العربية ؛ بل يجعل الجموع متعلقة به وسيلة وواسطة إلى الله تعالى حتى يشفيها مما ألمّ بها من هموم وأمراض ونكبات وشدائد.

وقد احتفى الأدب الشعبي بالخضر فجعله فارس الفوارس الذي يقاوم الأعادي وينصر الضعفاء ، ويدخل في المعارك دون أن يصاب بأذى.

وقد سجل كنعان إنشاد الفلاحين في فلسطين وهم يدعون لاستنزال المطر:

"ياسيدبي خضر الأخضر

اسقي زرعنا الأخضر

ياسيدي يامار إلياس

اسقي زرعنا اليباس"[٥٢٨]

ونلحظ الخلط بين الخضر وإلياس ، وقد عقب حسني حداد على هذا قائلا "إن جميع أنحاء سوريا تعزو المعتقدات الشعبية سبب الرعد والبرق لمار إلياس ومار جرجس (القديس جاورجيوس) والخضر ثلاثتهم)، ويسبب القديس جاورجيوس والخضر الرعد والبرق بامتطائهم حصانا عبر السماء، ففي حالة الخضر يحدث البرق من حوافر الحصان وهو يخطو فوق الصخور"[٥٢٩]

هذا الحضور في الواقع العربي والإسلامي في حاجة إلى دراسة لا إلى التعالي عنه ورفضه مع بقائه وانتشاره.

وقد لحظت ارتباط الخضر بالخصوبة والتجدد والمطر والحياة ؛ ولعل في هذا الخيال الشعبي للخضر ما يعزز أهمية دراسته إبداعيا ونقديا.

٥-٦-١ السيَرالشعبية:

---

[٥٢٧] ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان

[٥٢٨] كنعان :القديسون والمقدسات المحمدية في فلسطين ص ٢٣٢، ١٩٢٧

[٥٢٩] حداد، د.حسني : أساطير الخصب القديمة والمعتقدات الشعبية في سورية ص٥٠

وجدت السيرُ الشعبية في الخضر مواصفات الفارس الذي تبدعه وتتمناه وتضفي عليه صفات أحادية ينفرد بها ، وهذا ليس حديثا فعندما قاتل الفارس أبومحجن في القادسية ضد الفرس ملثما والناس لاتعرفه لأنه كان محبوسا واستشفع بسلمى بنت أبي حفصة حتى يشهد الحرب متخفيا فأطلقته على وعد أن يعود بعد الحرب إلى محبسه ، روى ابن الأثير والأصفهاني"قال قوم:إن كان الخضر يشهد الحروب فهو صاحب البلقاء"[٥٣٠] وهذا يدل على وجود الخضر في مخيلة الناس آنذاك.

"والفلاحون في شمالي سورية ينعتون الخضر بـ"أبي حربة" مؤكدين بذلك على شخصيته القتالية ، ويتم تزيين القصص عن قوة ذراعه بالإشارة إلى صخور معينة كان قد رماها من مسافة مئات الأميال، إحدى هذه الصخور ... بارتفاع يقرب من ستة أقدام ترقد على الشاطئ أسفل قلعة المرقب ، وتقوم بعض النسوة بزيارة تلك الصخرة ...للتضرع للولي لمنحهن أطفالا"[٥٣١]

وقد حفلت السير والملاحم بصفات بطولية للخضر كما نرى في حمزة البهلوان والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة وسيف بن ذي يزن وغير ذلك مما جعل المخيلة الجمعية تبدع البطل من خلال مساعدة الخضر له في وقت حروبه وأزماته.

في سيرة بني هلال ؛ رواية الحاج عبدالظاهر بغدادي التي جمعها الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي نجد أن أبازيد الهلالي عندما يتحدى جايل ويدعوه إلى النزال ويصف الراوي النزال "أهُو طَبَق السوق، والخيل على بعض تسوق؛ يعني معناه الخيل انحشرت على بعض . طبعاً جايل مِتْعَظّمْ وِدَه يعني عاملْ حساب لجايل. وجايل ماعْملْش حساب ليه ولا حاجه عندُه.قام لمّا انحشرت الخيل، راح جايل ضاربْ أبوزيد. مَرّرُوا في الهوا.... فَرْ.... كان سيّدْ أبوزيد محزّمه من القدره الإلهيه .. تلقّاه سيدنا الخضر وحطّه ع الكربوزْ كانه ما جاش . لفِّ العَقَبَه وجاه ..

قال له:أنا مَ كتَلْتَكْ . قال له :ربِّنا نشاني ..

. أنا ياواد ما كتلتك...

قال له .ربنا نشاني ...إنت ربنا ياخِي؟

---

[٥٣٠] ابن الأثير : الكامل في التاريخ ص ٣٦٩ ط.ليدن ١٨٧٦

[٥٣١] حداد، د.حسني : أساطير الخصب القديمة والمعتقدات الشعبية في سورية ص ٥٦-٥٧

قام أخذُوا من الصبح لبعد العصر. بالمِيدان كان العرب زمان لمّا ياجو يقولوا يعني ناخد راحه الصّبْحْ.

قال له : خلاص الحرب وبُكْره آتي...

روّحْ أبوزيد مغلوبْ غُلْب شرعي ، قعد يُهرُجْ.

أُمّه : عشان إيه ؟ فيه إيه يابوزيد؟ إيه فيه؟

. مافيش..

بقى طول الليل ما نام ويْصلّي يتركع ... ويْصلّي يتركع .. ويْصلّي .. لَمّا بَقَى يتركّع ويْصلّي لَ مّا عمود الفجر بان. يعني لمّا الفجر شعشع.. قام جاته سَهْيه من النوم وجاله الخضر u قال له: إصحَ يابوزيد ده مكتوب لك بالسبع تِيّام ولا تخافش. بكره تْخُشْ على جايل ..وتِكْتِلْ جايل..

بَس أوّلْ ما يوقع في الأرض تلحق المنطقه بتاعت جايل .إن ما لحقتش المنطقه دي . المنطقه ديه صاحبة الأعوان. حاكمه على جميع أعوان الكون. وأوّلْ ما يوقع تروح متلافي المنطقه وتحطها في صلبك يبقى إرتأت لك جميع الأيام.

أبوزيد أخد الملام ده باعتقاد، وسرح الصبح.(...)وجاه جايل (...) أبوزيد ضربه بدبوس ... وَقَعْ!

راح متلافي المنطقه وحطّها في الصُّلب وقرّط عليها زرار"[٥٣٢]

إن الخضر في هذه السيرة يوظَّف كمساعد ومعين لأبي زيد الذي يقاتل في سبيل الحق والعدل ضد الظالم جايل ولذلك يبث في أبي زيد القوة والحماسة حتى لا يضعف ويخور ؛ ولذا يدله على طريقة الوصول نحو مقتل جايل.

إن الخضر هنا لا يحارب بل يناصر ناصحاً ؛ لكنه يقوم بإحياء الموتى حيث شاهد الوقعة الأولى بين جايل وأبي زيد ولم تعجبه النتيجة أي قَتْل جايل لأبي زيد ولذلك يعيد أبا زيد حياً مما يبعث على دهشة جايل إلا أن أبازيد يفسر له ما حدث مُرجعاً ذلك إلى الله.

وقد استغل القاص الشعبي شخصية الخضر في سيرة الظاهر بيبرس "وإذا كان الخضر لا يظهر إلا لأولياء الله الصالحين فقد ظهر دوما للظاهر بيبرس كما تصوره السيرة"[٥٣٣]

---

[٥٣٢] سيرة بني هلال، رواية الحاج عبدالظاهر بغدادي من قرية الكرنك،مركز الأقصر ،محافظة قنا، جمع الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجي ، مجلة الفنون الشعبية،العدد٢٩ ،أكتوبر ،نوفمبر ،ديسمبر ١٩٨٩

فظهر الخضر في أوقات الشدة مثلما حكى القاص الشعبي عندما أحضر الخضرُ ملكَ أنطاكية حيا في صندوق للظاهر بيبرس الذي أخذه إلى الملك الصالح نجم أيوب.

لقد وَظَّف القاص الشعبي حضور الخضر في المخيلة الشعبية بصفات لا توجد في بشر مثل التخفي والخلود والقوة والشجاعة واستجابة الدعاء والخضرة والبركة ومعرفة اسم الله الأعظم وعلم لدني واختيار الأولياء وترفيعهم وعزلهم في مملكته ، وحضور قوي عند الناس الذين إذا ذُكِر اسمه وقفوا قائلين :"وعليك السلام ورحمة الله وبركاته"إيمانا بمروره في هذا المكان ، وإذا وقع طفل صاح الكبار "يُسَمّي عليك الخضر الأخضر" وقد حكى لي أحد أساتذتي "أنه عندما زار جامع الزيتونة أقسم له أحد رواد المسجد التونسيين أن الخضر يأتي كل عصر ويجلس هنا ، وأشار إلى سارية بالمسجد"، فحضور الخضر حضور مدهش إذ جمعَ صفات غير بشرية فوظفه القاص الشعبي في المعارك منجدا يجلب النصر ويقضي على الخصوم ، وفي اختيار القاص للشخصية التي سيقف الخضر في صفها إعلان بأنها شخصية خَيّرة وإنقاص من شأن عدوها الشرير ، فمن يقف معه الخضر سيكون الحق في جانبه فالخضر لا ينصر ظالما ولا معتديا؛ فيضمن القاص انحياز جمهور المستمعين إلى هذه الشخصية التي ترى الخضر ويساعدها ؛ كما أنه يرقى بهذه الشخصية إلى مصاف الأولياء معتمدا على المخزون الثقافي لدى الناس عن شخصية الخضر.

٥-٦-٢ الخضر في ألف ليلة وليلة :

تعدّ الحكاية الشعبية الذاكرة الجمعية للشعوب والأفراد ، وهي النص الذي يجمع بين العقل والْ "لاعقل" ففيها ينصهر العقل فيكوِّن من عدم منطقيته منطقا خاصاً ، تصوغه المخيلة المبدعة للشعوب ، فتكوّن التاريخ الحقيقي للشعب ، وهو ما غفل عنه المؤرخون في أحايين كثيرة ، ونسيه المدوّنون لتاريخ الدول والأمم ، يغدو الشخص المهمّش بطلا أسطوريا تحكيه الأمهات والأجداد لبنيها في هدأة الليل وظلامه فيتخيل الصغار هذا البطل الذي صار بطلهم الخاص ، وأضحى قاسما

---

[٥٣٣] إبراهيم، د.نبيلة :المقومات الجمالية للتعبير الشعبي ص١٩٦

مشتركاً بينهم ؛ يخاطبونه ويحكون معه ويشكون له آلامهم ومصائبهم ، فيغدو واحداً منهم ، وكم أخطأ معظم المثقفين في التعالي على هذا التراث الشعبي فأهملوه ، ولم يلتفتوا إليه نقداً وتحليلا ، فهو رافد رئيس من روافد الفكر ودراسة الإبداع الجمعي للشعوب ، وفهم نفسية الأفراد والأمم.

إن قراءة في الروايات المعاصرة والقصص القصيرة والمسرحيات تقودنا إلى اتكاء الحكي المعاصر على الحكاية الشعبية العجائبية ، ولو حللنا بعض الروايات العالمية لوجدنا أن من مظاهر تفردها تعود إلى العجائبية التي انتشرت بين طياتها، والسير الشعبية والذاتية في بنيتها النقدية نص روائي لا متناه.

حافظت الحكاية الشعبية على صفات القوة والحق ، ومن خلالها غدا عنترة في ذاكرة الشعوب العربية بطلاً ، ولم يأبه الشعب بامرئ القيس مثلا ، فقد وجد الشعب في عنترة رمز المواطن الذي يكد من أجل حريته وحبه ، ويتخذ من حبه لعبلة طريقاً نحو الحرية مستخدماً شاعريته وفروسيته ؛ بينما وجدوا في الخضر المنقذ في لحظات الشدة إذا اشتدت الأزمة وأنى لها أن تنفرج إلا بمعجزة لا يقدر البشر على أن يأتوا بمثلها ، ومن هنا فالملاحم والسير الشعبية وجدت في الخضر القدرة على أن يأتي بما لم يستطعه البشر، فيضفي على السيرة جمالا وتشويقا وعجائبية يتقبلها المتلقي دون معارضة، لأن الموروث الشعبي تجاه الخضر لم يترك حيادا لدى المتلقي الذي سمع وقرأ وربما شاهد الخضر منذ مولده ولذلك وجد القاص الشعبي في الخضر منقذا ينقل من خلاله رتابة السرد إلى عجائبية السرد وغرائبيته فيظل القاص في مأمن حتى لو خَطَأَ في سرد حادثة وتشابكت أحداثها فيلجأ إلى الخضر الذي لا يخضع لقوانين العقل والطبيعة.

ولم تتوقف البطولة الشعبية عند الرجال كأبي زيدالهلالي والزناتي خليفة وسيف بن ذي يزن ، بل وجدنا المرأة كالأميرة ذي الهمة والجازية وسعدة بنت الزناتي اللائي أخذن مكانة عالية في الحكاية الشعبية.

ولم يخل البطل الشعبي من التفاف شعبي حوله ، وكاد أن يكون مقدّساً ؛ إذ اختلط المقدس بالشعبي ، فالبطل شجاع "وإذا كانت الشجاعة صفة يمكن أن يتصف بها الأفراد العاديون ، فإن شجاعة البطل الشعبي تتميز بخصوصيتها ؛ لا لأنها – قبل كل شيء – مستمدة من القوة الإلهية ، فالبطل فيض من نبع تلك القوة ، وهو تيار متدفق لا يصمد أمامه إلا الحق والعدل والخير ، وهو لا يهمه

الموت ، لأن بطولته تأكيد للحياة والموت على السواء"[٥٣٤] هذا البطل يتحول أحيانا إلى وَلِيٍّ مقدّس، فكيف الأمر إذا كان الخضر هو الذي يعين الأولياء، ولذا اتخذ القاص الشعبي من الخضر رمزا للخير والمعين للمحتاجين.

يعدّ كتاب ألف ليلة وليلة من أهم كتب التراث الإنساني، وسنأخذ قصة واحدة تبين تحول التراث الشعبي الشفاهي إلى تراث مدوّن ، يعتمد على العجائبية والخيال ويمنح الخضر منزلة عظيمة مستخدما إمكاناته الخارقة وصفاته المتفرد بها:

ففي حكاية عبدالله بن فاضل نائب البصرة مع أخويه حكاها للخليفة أنه بعدما تُوفي والدهم قسم الأموال بالعدل ؛ كلٌّ أخذ ثلثه ، وفتح لكلٍّ منهما دكانا لكنهما كانا يحنان للسفر فأغرياه بهذا فوافقهما وملأ مركبا بالقماش من سائر الأصناف النفيسة ، وأبحروا من مدينة البصرة في البحر العجاج ، ونزلوا فباعوا وكسبوا ثم أبحروا فتاهَ البحَّار عن الطريق وفرغ الماء الحلو ، فبكوا وباتوا في كرب عظيم وفي الصباح لاح جبل عالٍ فنزلوا بحثاً عن الماء ، فلم يجدوا ماءً ، واشتدّ العطش بهم ولكن عبدالله بن فاضل لمحَ عن بُعْدٍ "مدينة عالية البنيان ، مشيدة الأركان"[٥٣٥] فنادى أخويْه وقال لهما لقد وجدنا ما نبغي ولكنهما حذراه فربما يكون أهلها كفاراً فيأسرونهم أو يقتلونهم ، ورفضا المضيَّ معه ، فسار بمفرده صوب هذي المدينة ، فوصلها ووجد أناسها واقفين وجالسين لا يتحركون فسلم عليهم فرآهم أحجاراً ، وأخذ ينتقل من قصر لقصر وكل سكانه جالسون أو واقفون متحجّرين ، وحمل من الذهب والجواهر قدر ما يستطيع ثم دلف إلى قصر الملك ثم سمع صوتاً أنثوياً رخيما يتلو القرآن فتقدم منها وأقرأها السلام فردت "وعليك السلام يا عبد الله بن فاضل ، أهلا وسهلا بك ياحبيبي وقرة عيني ، فقلتُ لها : ياسيدتي من أين علمت اسمي ومن أين تكونين وما شأن هذه المدينة حتى صاروا أحجاراً (...) ومن كونها لم يوجد فيها إلا أنتِ؟(...) فقالت لي :إنني بِنت ملك هذه المدينة ، ووالدي هو الذي رأيته جالساً في الديوان على الكرسي العالي والذي حوله أكابر دولته وأعيان مملكته وكان أبي ذا بطش شديد (...)وعنده من الأموال والذخائر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وكان يقهر الملوك ويبيد الأبطال والشجعان في الحرب وحومة الميدان ، وتخشاه الجبابرة وتخضع له الأكاسرة، ومع

---

[٥٣٤] نبيلة إبراهيم (دكتورة) : من نماذج البطولة الشعبية في الوعي العربي ص ١٤ ، ط. ندوة الثقافة والعلوم ، دبي ١٩٩٣

[٥٣٥] مجهول : ألف ليلة وليلة ، المجلد السادس ص ١٩٣ ط. المكتبة الشرقية ، بيروت ١٩٩٤

ذلك كان كافرا مشركا بالله يعبد الصنم دون مولاه، وجميع عساكره كفار يعبدون الأصنام دون الملك العلام.

فاتفق أنه كان يوما من الأيام جالسا على كرسي مملكته وحوله أكابر دولته ، فلم يشر إلا وقد دخل عليه شخص فأضاء الديوان من نور وجهه ، فنظر إليه أبي فرآه لابسا حلة خضراء ، وهو طويل القامة ويداه نازلتان إلى تحت ركبتيه ، وعليه هيبة ووقار، والنور يلوح من وجهه فقال لأبي: يا باغي يا مفتري إلى متى وأنت مغرور بعبادة الأصنام ، وتترك عبادة الملك العلام؟

قل: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله ، وأسلم أنت وقومك ، ودع عنك عبادة الأصنام فإنها لا تنفع ولا تشفع ، ولا يعبد بحق إلا الله رافع السموات بغير عماد، وباسط الأرضين رحمة للعباد' فقال له: من أنت أيها الرجل الجاحد لعبادة الأصنام حتى تتكلم بهذا الكلام؟ أما تخشى أن تغضب عليك الأصنام؟ فقال له: إن الأصنام أحجار لا يضرني غضبها ولا ينفعني رضاها ، فأحضر لي صنمك الذي أنت تعبده وأْمر كل واحد من قومك أن يحضر صنمه ، فإذا حضر جميع أصنامكم فادعوهم ليغضبوا عليّ، وأنا أدعو ربي أن يغضب عليهم ، وتنظرون غضب الخالق من غضب المخلوق ، فإن أصنامكم قد صنعتموها أنتم وتلبّست بها الشياطين، وهم الذين يكلمونكم من داخل بطون الأصنام، فأصنامكم مصنوعة وإلهي صانع ، ولا يعجزه شيء، فإن ظهر لكم الحق فاتبعوه وإن ظهر لكم الباطل فاتركوه. فقالوا له: ائتنا ببرهان ربك حتى نراه ، فقال ائتوني ببراهين أربابكم ، فأمر الملك كل من كان يعبد ربا من الأصنام أن يأتي به ، فأحضر جميع العساكر أصنامهم في الديوان.

هذا ما كان من أمرهم ، وأما ما كان من أمري ؛ فإني كنت جالسة في داخل ستارة تشرف على ديوان أبي، وكان لي صنم من زمردة خضراء ، جسمه قدر جسم ابن آدم ، فطلبه أبي فأرسلته إليه في الديوان، فوضعوه في جانب صنم أبي من الياقوت وصنم الوزير من جوهر الألماس، وأما أكابر العساكر والرعية فبعض أصنامهم من البلخش[٥٣٦] وبعضها من العقيق، وبعضها من المرجان ، وبعضها من العود القماري[٥٣٧] وبعضها من الأبنوس، وبعضها من الفضة، وبعضها من

---

[٥٣٦] البلخش :نوع من الأحجار يشبه الياقوت

[٥٣٧] العود القماري :عود طيّب الرائحة ينسب إلى قمار

الذهب وكل واحد منهم له صنم على قدر ما تسمح به نفسه. وأما رعاع العساكر والرعية فبعض أصنامهم من الصوان، وبعضها من الخشب، وبعضها من الفخار ، وبعضها من الطين ، وكل الأصنام مختلفة الألوان ما بين أصفرَ وأحمرَ وأخضرَ وأسود وأبيض.ثم قال ذلك الشخص لأبي : ادع صنمك وهؤلاء الأصنام تغضب عليّ ، فصفوا تلك الأصنام ديوانا وجعلوا صنم أبي على كرسي من الذهب ، وصنمي إلى جانبه في الصدر ، ثم رتبوا الأصنام : كل منها في مرتبة صاحبه الذي يعبده ، وقام أبي وسجد لصنمه وقال له يا إلهي : أنت الرب الكريم وليس في الأصنام أكبر منك ، وأنت تعلم أن هذا الشخص أتاني طاعنا في ربوبيّتك مستهزئاً بك ، ويزعم أن له إلها أقوى منك ، ويأمرنا أن نترك عبادتك ونعبد إلهه ، فاغضب عليه يا إلهي ، وصار يطلب من الصنم والصنم لا يرد عليه جوابا ولا يخاطبه بخطاب ، فقال له: يا إلهي ما هذه عادتك لأنك كنت تكلمني إذا كلمتك ، فمالي أراك ساكنا لا تتكلم ، هل أنت غافل أو نائم ، فانتبه وانصرني وكلمني ، ثم هزه بيده فلم يتكلم ولم يتحرك من مكانه. فقال ذلك الشخص لأبي: مالي أرى صنمك لا يتكلم؟ قال له : أظن أنه غافل أو نائم ، فقال له: يا عدو الله كيف تعبد إلها لا ينطق وليس له قدرة على شيء؛ ولا تعبد إلهي الذي هو قريب مجيب وحاضر لا يغيب ، ولا يغفل ولا ينام ولا تدركه الأوهام ، ويرى ولا يرى وهو على كل شيء قدير، وإلهك عاجز لا يقدر على دفع الضرر عن نفسه، وقد كان متلبسا به شيطان رجيم يضلك ويغويك، وقد ذهب الآن شيطانه، فاعبد الله واشهد أنه لا إله إلا هو ولا معبود سواه وأنه لا يستحق العبادة غيره، ولا خير إلا خيره، وأما إلهك هذا فإنه لا يقدر على دفع الشر عن نفسه، فكيف يقدر على دفعه عنك؟ فانظر بعينك عجزه. ثم تقدم وصار يصكه على رقبته حتى وقع على الأرض، فغضب الملك وقال للحاضرين: إن هذا الجاحد قد صك إلهي فاقتلوه، فأرادوا القيام ليضربوه فلم يقدر أحد منهم أن يقوم من مكانه، فعرض عليهم الإسلام فلم يسلموا فقال: أريكم غضب ربي؟ فقالوا: أرنا، فبسط يديه وقال: إلهي وسيدي أنت ثقتي ورجائي فاستجب دعائي على هؤلاء القوم الفجار الذي يأكلون خيرك ويعبدون غيرك، يا حق يا جبار يا خالق الليل والنهار، أسألك أن تقلب هؤلاء القوم أحجارا فإنك قادر ولا يعجزك شيء وأنت على كل شيء قدير . فمسخ الله أهل المدينة أحجارا وأما أنا فإني حين رأيت برهانه أسلمت وجهي لله فسلمتُ مما أصابهم.ثم إن ذلك

الشخص دنا مني وقال: سبَقَتْ لك من الله السعادة، ولله في ذلك إرادة، وصار يعلمني وأخذت عليه العهد والميثاق، وكان عمري سبع سنين في ذلك الوقت، وفي هذا الوقت صار عمري ثلاثين عاما، ثم إني قلت له : يا سيدي جميع ما في المدينة صاروا أحجارا بدعوتك الصالحة، وقد نجوت أنا حين أسلمت على يديك ، فأنت شيخي فأخبرني باسمك ومدني مددك وتصرف لي في شيء أقتات منه، فقال لي: اسمي أبو العباس الخضر، ثم غرس لي شجرة من الرمان بيده، فكبرت وأورقت وأزهرت وأثمرت رمانة واحدة في الحال فقال: كلي مما رزقك الله تعالى واعبديه حق عبادته، ثم علمني شروط الإسلام وشرط الصلاة وطريق العبادة وعلمني تلاوة القرآن وصار لي ثلاثة وعشرون عاما وأنا أعبد الله في هذا المكان ، وفي كل يوم تطرح لي هذه الشجرة رمانة فآكلها وأقتات بها من الوقت إلى الوقت ؛ والخضر عليه السلام يأتيني كل جمعة، وهو الذي عرفني باسمك وبشرني بأنك سوف تأتيني في هذا المكان، وقد قال لي: إذا أتاك فأكرميه، وأطيعي أمره ولا تخالفيه، وكوني له أهلا ويكون لك بعلا، واذهبي معه حيث شاء، فلما رأيتك عرفتك، وهذا هو خبر هذه المدينة وأهلها والسلام.ثم إنها أرتني شجرة الرمان وفيها رمانة فأكلت نصفها وأطعمتني نصفها، فما رأيت أحلى ولا أزكى ولا أطعم من تلك الرمانة. ثم قلت لها: هل رضيت بما أمرك به شيخك الخضر عليه السلام بأن تكوني لي أهلا وأكون لك بعلا، وتذهبي معي إلى بلادي وأمكث بك في مدينة البصرة؟ فقالت: نعم إن شاء الله تعالى فإني سميعة لقولك مطيعة لأمرك من غير خلاف. ثم إني أخذت عليها العهد الوثيق ؛ وأدخلتني إلى خزانة أبيها وأخذنا منها على قدر ما استطعنا حمله، وخرجنا من تلك المدينة ومشينا حتى وصلنا إلى أخوي فرأيتهما يفتشان على، فقالا لي: أين كنت فإنك أبطأت علينا، وقلبنا مشغول بك، وأما رئيس المركب فإنه قال لي: يا تاجرُ عبدَ الله إن الريح طاب لنا من مدة وأنت عوَّقتنا عن السفر، فقلت له: لا ضرر في ذلك ولعل التأخير خير، لأن غيابي لم يكن فيه غير الإصلاح وقد حصل لي فيه بلوغ الآمال"[٥٣٨].

أضفى التراث الشعبي على الخضر صفات النور ، وأن عليه هيبة ، وأنه طويل القامة و يداه نازلتان إلى تحت ركبتيه (تغيّر في الخلقة ، وهذا يضفي على

[٥٣٨] مجهول : ألف ليلة وليلة ، المجلد السادس ص ١٩٣ –٢٠٠ ط. المكتبة الشرقية ، بيروت ١٩٩٤

الشخصية المغايرة) وأنه ذو حلة خضراء قد يكون اللون الأخضر رمزاً للحياة والتجدد ، كما أنه مستجاب الدعوة ولديه قدرة على المناظرة.

لا يخفى على المتلقي تناص الحكاية مع قصة إبراهيم عليه السلام من جهة وتناصها من جهة أخرى مع قصة موسى عليه السلام (يوم الزينة) وأثر الطبقية ، والبطلة الحقيقية هي الفتاة الولية راجحة ، وهذا يضفي على المرأة دوراً بطوليا في الحكاية الشعبية ، كما أوضحت آنفا.

ولم تنته القصة بل حسده أخواه وكادا أن يقتلاه إذ رمياه في البحر وبعد قصص وأحداث يلتقي امرأته التي يطلق عليها اسم الشيخة راجحة التي اشتهرت ببركتها "فدخل بواب الخان حتى وصل إلى الستارة وقال: دستور يا شيخة راجحة خذي هذا المريض أدخليه من داخل هذه الستارة، فقالت له: ادخل فدخل ونظر إليها فرأى زوجته التي جاء بها من مدينة الحجر، فعرفها وعرفته وسلمت عليه فقال لها: من أتى بي إلى هذا المكان؟ فقالت له: لما رأيت أخويك رمياك في البحر وتخاصما عليّ رميت نفسي في البحر فتناولني شيخي الخضر أبو العباس وأتى بي إلى هذه الزاوية وأعطاني الإذن بشفاء المرضى ونادى في المدينة: كل من كان له داءٌ فعليه بالشيخة راجحة وقال لي: أقيمي في هذا المكان حتى يؤون الأوان ويأتي إليك زوجك، فصار كل مريض يأتي أكبسه فيصبح شافيا وشاع ذكري بين العالم وأقبل الناس علي بالنذور وعندي من الخير كثير وأنا في عزٍ وإكرامٍ وجميع أهل هذه البلاد يطلبون مني الدعاء.

ثم إنها كبست الرجل المريض فشفي بقدرة الله تعالى وكان الخضر عليه الصلاة والسلام يحضر عندها في كل ليلةِ جمعةِ وكانت تلك الليلة التي اجتمع فيها ليلة الجمعة، فلما جن الليل جلست هي وإياه بعدما تعشيا من أفخر المأكول ثم قعدا ينتظران حضور الخضر، فبينما هما جالسان إذا به قد أقبل عليهما فحملهما من الزاوية ووضعهما في قصر عبد الله بن فاضل بالبصرة ثم تركهما وذهب.

فلما أصبح الصباح تأمل عبد الله في القصر فرآه قصره فعرفه وسمع الناس في ضجةٍ فنظر من الشباك فرأى شقيقيه مصلوبين كل واحدٍ منهما على خشبةٍ (...) [بعدما أقرّا أمام الخليفة تحت الضرب على بعضهما فغضب عليهما الخليفة وقال: خذوهما إلى البصرة واصلبوهما قدام قصر عبد الله، هذا ما كان من أمرهما. وأما ما كان من أمر عبد الله فإنه أمر بدفن شقيقيه ثم ركب وتوجه إلى بغداد وأفاد

الخليفة بحكايته وما فعل معه أخواه من الأول إلى النهاية فتعجب الخليفة من ذلك وأحضر الكاتب والشهود وكتب كتابه على البنت التي جاء بها من مدينة الحجر وأقام معها في البصرة إلى أن أتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات فسبحان الحي الذي لا يموت"

فدور الخضر لم ينته عند مساعدته لعبدالله حتى يلقى تلك الفتاة لكنه يساعد الفتاة المؤمنة لتقوم بدورها الإيماني تعبد الله وتمكث سنوات في انتظار عبدالله الذي بشرها به الخضر ، ويقوم الخضر في القصة بدور النبي مستجاب الدعوة ، وينقذ راجحة مرة أخرى من الغرق ويدبر لها حياتها ويزورها كل ليلة جمعة ، ويعمل على أن يتزوج الحبيبان.وقد جاء تصوير مدينة الحجر تصويرا رائعا جمع بين ثبات الحركة وحركة الثبات ، بين الفناء والبقاء، كما قام الخضر بدوره المشهور فأنبت شجرة رمان لراجحة تتقوى من ثمرها ، وربما أبطأ الراوي في مجيء عبدالله بن فاضل إلى مدينة الحجر حتى يجد متسعاً زمنيا للحكايا، وحتى تبلغ راجحة الثلاثين عاما فتؤهل للزواج.

والخضر هنا لا يختلف عن أدواره الأخرى في قصص الصوفيين ، وهذا يلقي الضوء على تأثر كاتب ألف ليلة وليلة بكتابات الصوفيين عن الخضر في عصره ، وما مقولات "شيخي ومدّني مددك وتصرف لي في شيء أقتات منه، فقال لي: اسمي أبو العباس الخضر، ثم غرس لي شجرة من الرمان" إلا صدى التصوف في ألف ليلة وليلة.

يقوم السرد في القصة السابقة على تشويق المتلقي الذي سرعان ما يجد نفسه شريكا في العملية السردية ، وتعتمد شهرزاد على "الفلاش باك" في السرد فالمدينة الحجرية تحكى بعد تجوال ابن فاضل في هذي المدينة بعد تحذير أخويه له من هذه المغامرة والقارئ هنا يبدي تشوقه لمعرفة لغز الأحجار التي ارتسمت على شفاهها علامات الحياة الصامتة دون أن تنطق ، ويبدأ فك اللغز المحير بصوت مجهول يفاجئ المتلقي " سمع صوتاً أنثوياً رخيما يتلو القرآن فتقدم منها وأقرأها السلام فردت "وعليك السلام يا عبد الله بن فاضل ، أهلا وسهلا بك ياحبيبي وقرة عيني" فحاسة البصر المتأملة للسكون في صمت تتحول إلى حاسة السمع وتتداخل الحواس إلى بُعد غريب مفاجئ عندما يتحول الصوت إلى صوت مُحب " ياحبيبي وقرة عيني" ويأتي السؤال الذي يحبس المتلقي أنفاسه شوقا لسماع

الإجابة ، وتبدأ في سرد قصة المدينة الحجرية متجاهلة الإجابة عن السؤال الموجه إليها "ياسيدتي من أين علمت اسمي؟"ولا تجيب متعمدة لأنها لو قالت الخضر لوجب على المتلقي أن ينفض عن سماع تتمة القصة لكنها تسرد قصة المدينة وتبدأ في فك طلاسم الحجر ، بعد افتتاحية ممهدة تحرص من خلالها على إظهار الطبقية في مجتمع ما قبل الأحجار وتصوير المدينة قبل العدم الذي ألم بها ، والجمل التشويقية في النص لاتحصى ، والأسئلة هنا تعبير عن تشوق للإصغاء وهذا يتطلب سرد الحكاية أي سرد النص مقلوباً ، إن النص لا يكتمل إلا بافتتاحية موصلة إلى النهاية غير المتوقعة ، مع مسرحة الحدث الذي ينقل المتلقي من الماضي إلى الحاضر، ويبدأ في تشخيص الحدث وتحريك الأحجار من خلال وصف راجحة للمآل العدمي الذي آلت إليه المدينة بعدما جاءها هذا الشخص الداعي إلى الله فلم يستجيبوا، والشخصيات الرئيسة في القصة أربعة عبدالله بن فاضل وأخواه وراجحة وتبهت شخصيتا الشقيقين حسبما يركز الأضواء على عبدالله وراجحة بل يموت الشقيقان صلبا في مشهد مأساوي في الوقت الذي يتزوج فيه المحب عبدالله من محبوبته راجحة ، لكن يظل الخضر هو البطل الرئيس في القصة فهو مبشر راجحة بالزوج وهو مُدبر الطعام من خلال شجرة الرمان وهنا يأتي دور الخضر الإنمائي في إنبات الخضرة حيثما حل.

إن دور الخضر في إنبات شجرة الرمانة "غرس لي شجرة من الرمان بيده، فكبرت وأورقت وأزهرت وأثمرت رمانة واحدة في الحال فقال: كُلي" كل ذلك ببركته التي تختصر الزمن فتغدو النبتة شجرة مثمرة يذكرنا بنظرية التحول التي اعتمدها المعري في رسالة الغفران عندما وصف لقاء ابن القارح بالنابغة الذبياني:" ويمرُّ رِفٌّ[٥٣٩] من إوزّ الجنَّة، فلا يلبث أن ينزل على تلك الرَّوضة ويقف وقوف منتظر لأمرٍ، ومن شأن طير الجنَّة أن يتكلَّم، فيقول: ما شأنكنَّ؟ فيقلن: أُلهمنا أن نسقط في هذه الرَّوضة فنغنّي لمن فيها من شَرْبٍ. فيقول: على بركة الله القدير. فينتفضن، فيصرن جواري كواعب يرفُلن في وَشي الجنَّة، وبأيديهنّ المزاهر وأنواع ما يلتمس به الملاهي.فيعجب"[٥٤٠]فجماعة الطيور تتكلم ثم تنتفض فتغدو جواري كواعب يعزفن و يغنين أبيات النابغة ، والعجب هنا قاسم مشترك بين نصي المعري

---

[٥٣٩] الرف : الجماعة من الطير والجمع رفوف ورفاف

[٥٤٠] المعري، أبوالعلاء:رسالة الغفران ص ٢١٢

وألف ليلة وليلة بل هو الهدف المقصود من كليهما ، فالعجائبية هي التي منحت النصين التفرد ، فقد خلص النص من رتابة التقرير عندما خرج إلى رحابة التصوير.

لكن تبقى نقطة الصراع في القصة بين الشقيقين من جهة وبين عبدالله وانتصار المفرد على المثنى لأن المفرد وقف بجانبه الخضر لأنه على حق ، فجعله الأقوى ، ولذلك يرى شقيقيه يهمان بقتله فينجيه وهنا يقوم بدور خضر البحار وهو الدور الذي اشتهر به في الهند بل في آسيا ، ولعل تنوع أدوار الخضر توحي بأثر الحضارات والثقافات في صنع هذا السِّفر التراثي الفريد ،وهذا الدور صُوّر فنيا أيضا ؛ ويتكرر المشهد مع راجحة التي ترمي بنفسها في البحر لتلحق بالمحب فيتناولها الخضر مرة أخرى ويهدئ من روعها ويمنحها المسكن والمأكل والاحترام ويزورها أسبوعيا ويلم شملها والمحبوب عبدالله ثم يطوي بهما الأرض ويوصلهما إلى قصر عبدالله ليتزوجا بشهادة الخليفة ويعيشا معا ؛ ولكن الفناء يطل " أتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات فسبحان الحي الذي لا يموت" ليظل الخضر البطل الخالد ومن ساعدهم يراهم موتى أمامه ليبحث عمن يساعدهم من جديد ليبقى الخضر جوابا جوالا مرشدا.

وقد جاء الخضر في الليلة السادسة والعشرين بعد الخمسمائة كي يوصل بلوقيا إلى بيته بمصر قاطعاً آلاف الأميال في خطوة واحدة بعدما بعدت عنه الديار في هذه الرحلة العجيبة "فإذا الخضر عليه السلام قد أقبل فقام بلوقيا وسلم عليه وأراد أن يذهب.فقال له الطير اجلس يا بلوقيا في حضرة الخضر عليه السلام، فجلس بلوقيا فقال له الخضر أخبرني بشأنك واحك لي حكايتك، فأخبره بلوقيا بجميع ما فيه بين يدي الخضر، ثم قال له يا سيدي ما مقدار الطريق من هنا إلى مصر فقال له مسيرة خمسة وتسعين عاماً.فلما سمع بلوقيا هذا الكلام بكى ثم وقع على يد الخضر وقبلها وقال له أنقذني من هذه الغربة وأجرك على الله لأني قد أشرفت على الهلاك وما بقيت لي حيلة، فقال له الخضر ادع الله تعالى أن يأذن لي أن أوصلك إلى مصر قبل أن تهلك، فبكى بلوقيا وتضرع إلى الله تعالى، فتقبل الله دعاءه وألهم الخضر عليه السلام أن يوصله إلى أهله.فقال الخضر عليه السلام لبلوقيا ارفع رأسك فقد تقبل الله دعاءك وألهمني أن أوصلك إلى مصر فتعلق بي

واقبض عليّ بيديك وأغمض عينيك، فتعلق بلوقيا بالخضر عليه السلام وقبض عليه بيديه وأغمض عينيه وخطى عليه السلام خطوة ثم قال لبلوقيا افتح عينيك، ففتح عينيه فرأى نفسه واقفاً على باب منزله ثم التفت ليودع الخضر عليه السلام فلم يجد له أثراً. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح"

فقصة بلوقيا العجائبية لا تنتهي إلا بالمنقذ الخضر الذي يطوي الأرض طيا والذي لم يجد له أثرا.

وعندما يسأل الأمير موسى ملك السودان "ومن أين لكم علم ولم يبلغكم نبي أو وحي في مثل هذه الأرض ، فقال اعلم أيها الأمير انه يظهر لنا من هذا البحر شخص له نور تضيء له الآفاق فينادى بصوت يسمعه البعيد والقريب : يا أولاد حام استحيوا ممن يرى ولا يرى وقولوا :لا إله إلا الله محمد رسول الله وأنا أبوالعباس الخضر وكنا قبل ذلك نعبد بعضنا فدعانا إلى عبادة رب العباد "[٥٤١]

إبلاغ الناس بوحدانية الله والدعوة إلى عبادته لا تقتصر على دعوة البشر بل الجن أيضا وهذا ما يرويه ياقوت في معجم البلدان" فقال: أنا رجل من الجن كان سليمان بن داود حبس ولدي في هذه البحيرة فأتيته لأنظر ما حاله قُلنا له فما بالُك قائماً على وجه الماءِ قال: سمعت صوتاً فظننته صوتَ رجل يأتي هذه البحيرة في كل عام مرة فهذا أوان مجيئه فيصلي على شاطئها أياماً، ويهلل اللهَ ويمجده قلنا فمن تظنه قال: أظنه الخضر عليه السلام"

وهذا الدور هو نفسه الذي قام به في المدينة الحجرية ، ليقوم بدور أشبه بدور نوح عليه السلام بعد أن يئس من استجابتهم دعا عليهم فجاءهم طوفان الماء وفي قصة عبدالله بن فاضل يلتهمهم طوفان العدم.

وفي قصص ابن عربي عن رؤيته الخضر يمشي فوق البحر وفي أدواره البحرية في ألف ليلة وليلة وتعظيم البحارة الأسيويين للخضر ما يوحي بتداخل التراث الخضري عبر الحضارات والثقافات وتخطيه الحدود والحواجز.

ونلحظ أن الخضر في ألف ليلة وليلة يبدو رسولا يبلّغ الوحي ، ولكنه ليس شخصاً عاديا بل هو مرتبط بالبحر، ولعل هذا يفسر لنا ربط الهنود الخضر بالبحارة الذين يرونه مصدر البَركَة لهم في الإبحار والصيد.

---

[٥٤١] مجهول : ألف ليلة وليلة ص ٣٠١

ويتكرر الخضر في ألف ليلة وليلة حيث "يقوم الولي الجليل بمساواة الفصول وتتويج الأشجار بالخضرة الملكية وتسيير الجداول الرقراقة وبسط العشب سجاجيد على المروج وتعليق نور عباءة خضراء على نسيم الأصيل ليلوّن السماء بعد الغروب"[٥٤٢]

لقد غدا الخضر ظاهرة عالمية بما فيه من خصوصية في الأحداث المرتبطة بالمعرفة والبقاء ، ولذا تجاوز الأمكنة والأزمنة ليكون شاهدا على إبداع الجموع وحبها الأبدي للعلم والخلود؛ ليبدع منه الناس – أدباؤهم وعامتهم– من خلاله أول رواية في التراث العربي والإسلامي.وأول موضوع يستحق الدراسة في مجال النقد الأدبي المقارن ، ومن العجيب أن الخضر لمَّا يُلتفت إليه في الأدب المقارن بعد.

٦.خاتمة الكلام:

من خلال البحث وضح توق الإنسان إلى الخلود ، وقد اتخذ هذا الشوق طريق البحث عن رموز للخلود لتحول الأمل إلى واقع فمنذ الخليقة كانت الغواية في فخ الخلود المنشود { فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى}[٥٤٣] فغوى آدم ومايزال البشر غاوين هذا الأمل ، فأبدعوا فيما قبل التاريخ أساطير خلعوا عليها الخلود وأضفوا عليها البقاء الأزلي، ولقد خلص الباحث إلى إبداع الجموع عبر التاريخ قصصا وأساطير حول شخصيات لاتموت أو تتعدد حيواتها ؛ تغيرت الأسماء وتعددت الأساطير واختلط الديني المقدَّس بالأسطوري الشعبي وهذا ما حللته نقديا ؛ وقد أدى هذا الخلط إلى ديمومة حضور هذه الشخصية الخالدة في التراث الديني و الأدبي والنقدي وفي الفُلكلور الإنساني؛ فتلامست شخصيات أخرى مع الخضر في التراث النقدي ، كجلجامش وتموز وأوزيريس ونفركاه بتاح ابن الفرعون و ديونيسوس – زاغروس والإمام الغائب وإلياس وGeorge جورجيوس وغيرهم.

---

[٥٤٢] حداد، د.حسني : أساطير الخصب القديمة والمعتقدات الشعبية في سورية ص٥٠

[٥٤٣] القرآن الكريم ،سورة طه /١٢٠

وهذا يجعلني أميل إلى نظرية المفكر السويسري Carl Gustav Jung1875 – 1961 – الذي يرى أن أوجُهًا كثيرة متعددة تداخلت عبر القوميات والأجناس البشرية وأن هناك ما يسمى بالمخزون البشري لدى كل البشر فالطفل لا يولد فارغ الذهن وإنما هناك مخزون مخبوء في عقله نسميه المعرفة الإنسانية المتراكمة أو الميراث الغيبي ، وقد كان يانج مطّلعًا على رمزيّة التّقاليد الصّوفيّة المعقّدة مثل الغنوصية، والكيمياء القديمة، و التّقاليد المتشابهة في الهندوسيّة و البوذيّة .ورأى على حد قول C. George Boeree إن "أي شخص باستطاعته أن يفهم الشّيء من العقل الباطن ومن خلال كشف نفسه في الشّكل الرّمزي أو الـ"لا شعور الجماعيّ". يمكن أن تسمّيه ميراثك الغيبيّ .إنّه مخزن تجاربنا كجنس، نوع من المعرفة مررنا به كبشر عبر القرون . و حتّى الآن لا يمكن أن نكون مدركين مباشرة له أبدًا . يؤثّر على كلّ تجاربنا و سلوكنا، إلى أقصى حدّ"[٥٤٤]

أقول ربما كانت نظرية كارل يانج أقرب إلى تفسير الخضر وتقلبات أسمائه وأزمانه عبر البيئات والأزمنة مع تشابه صفاته وتكرار أدواره التي تلامس فيها الواقعي التاريخي بالمتخيل فمُنح البقاءَ والتجدد في الذاكرة الإنسانية ،وأدى إلى تداخل الثقافات والخلط بين الحضارات والوجود في التراث العربي وآداب الشعوب الإسلامية جمعاء بل في معظم الآداب العالمية.

وتناولت آراء المفسرين تجاه الآيات الكريمات التي ورد فيها ذكر العبد الصالح وأبَنت دور المفسرين في نشأة النقد الأدبي وتطوره كما عرجتُ نحو خروج المفسرين عن سياق التفسير إلى نقل إبداع الجموع في تتبع حياة الخضر منذ مولده وإلقائه في الغابة وعودته وزواجه وترك زوجته والترحال في معية ذي القرنين الباحث عن بئر الخلود الذي فاته وأدركه الخضر فشرب وخلد ، وكيف كان الدور الأسبق لكعب الأحبار فنوف البكالي ثم مقاتل بن سليمان وغيرهم ، كما تناولت ما قيل عن شخصيات مشابهة للخضر في التراث اليهودي؛ والتراث المسيحي؛ وأوضحت تأثر الأدب والنقد الأدبي بهذه الشخصية وكيف دارت حولها حركة نقد وتفسير وتوظيف في أدبنا العربي؛كما لم أغفل توظيف التراث الشفهي

[544] C. George Boeree,Dr. Carl Gustav Jung1875 - 1961

للخضر ،حيث تمثله وجسّده وتوسَّل به ورآه قائداً ؛وفي معظم الملاحم والسِّيَر الشعبية يطلّ الخضر مُنْجداً أبطالها في لحظات الضيق والمخاطر .

في الشعر جمعتُ مئات الأبيات التي تناول أصحابها الخضر مستشهدين به معلما وهاديا أو مسقطين عليه رؤى معاصرة في توظيف إبداعي متجدد حيث ورد لدى كل من مجنون ليلى والمتنبي وأبي تمام والمعري وابن حجر العسقلاني وابن نباتة المصري والسراج الوراق والشاب الظريف وبهاء زهير والبوصيري وغيرهم ؛ كما ألفيته

حاضرا عند الكتاب كأبي حيان التوحيدي وأبي منصور الثعالبي والجاحظ وابن الجوزي وابن الأثير وأبي حاتم السجستاني والعماد الأصفهاني والميداني والنويري وغيرهم ، وقد تتبعتُ هذا الحضور اللافت في الشعر والمعاجم والقصة والرواية والأدب الشعبي.

كما تحدثت عن رؤى الآداب العالمية للخضر وتوقفتُ عند أمثلة على هذا التوظيف في الآداب الألمانية والفارسية والتركية وفي النقد أيضاً مما ألفيته مادة خصبة في الأدب المقارن ، والفن العالمي المقارن كما يعد موضوعا ثريا في الفلسفة والفكر الإنساني .

لقد شغل الخضر الناس بصور أخضاره المتعددة عبر الأمكنة والأزمنة ومايزال يشغل إبداعهم وتفكيرهم.

انظر حولك ؛ ها هو الخضر.